** معرفتي **
me3refaty.maktoobblog.com

زقاق المدق

مكتبة مصر

زقاق المدق

تأليف

نجيب محفوظ

** معرفتي **
me3refaty.maktoobblog.com

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

١

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة ، وانه تألق يوما فى تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرى. اى قاهرة أعنى ؟ .. الفاطمية ؟ .. المماليك ؟ السلاطين ؟ ، علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ، ولكنه على اية حال اثر ، واثر نفيس . كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة الى الصنادقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا الى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد . . . !

ومع ان هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا ، الا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل فى أعماقها بجذور الحياة الشاملة ، وتحتفظ — الى ذلك — بقدر من أسرار العالم المنطوى .

***

آذنت الشمس بالمغيب ، والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق الغروب ، زاد من سمرتها عمقا انه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة ، له باب على الصنادقية ، ثم يصعد صعودا فى غير انتظام ، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن ، ويحف بالجانب الآخر دكان ووكالة ، ثم ينتهى سريعا — كما انتهى مجده الغابر — ببيتين متلاصقين ، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة .

مضت حياة النهار ، وسرى دبيب حياة المساء ، همسة هنا

وهمهمة هناك : يارب يامعين . يا رزاق يا كريم . حسن الختام يارب . كل شيء بأمره . مساء الخير يا جماعة ، تفضلوا جاء وقت السمر ، اصح ياعم كامل واغلق الدكان . غير يا سنقر ماء الجوز. اطفيء الفرن يا جعدة . الفص كبس على قلبى . اذا كنا نذوق اهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر انفسنا .

بيد أن دكانين — دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على يساره — يظلان مفتوحين الى ما بعد الغروب بقليل . ومن عادة عم كامل ان يقتعد كرسيا على عتبة دكانه — أو حقه على الأصح — ويغط فى نومه والمذبة فى حجره ، لا يصحو الا اذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق . هو كتلة بشرية جسيمة ، ينحسر جلبابه عن ساقيه كقربتين ، وتتدلى خلفه عجيزته كالقبة ، مركزها على الكرسى ومحيطها فى الهواء . ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياه ، ولا ترى له رقبة . فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم ، أخفى انتفاخه معالم قسماته . فلا تكاد ترى فى صفحته سمات أو خطوط ، ولا أنف له ولا عينان ، وقمة ذلك كله راس اصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة . لا يزال يلهث ويشخر كانه قطع شوطا عدوا ، ولا ينتهى من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس . قالوا له مرات : ستموت بغتة . وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك ، وراح يقول ذلك مع القائلين ، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل ؟ ! .

.. أما صالون الحلو فدكان صغير ، يعد فى الزقاق انيقا . ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن . وصاحبه شاحب متوسط القامة ، ميال للبدانة ، بيضاوى الوجه ، بارز العينين ، ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته ، يرتدى بدلة ، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الاسطوات !

لبث هذان الشخصان فى دكانيهما فى حين اخـذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمالها ، وكان آخر من غادرها صاحبها السيد سليم علوان ، يرفل فى جبته وقفطانه ؛ فاتجه صوب الحانطور الذى ينتظره على باب الزقاق ، وصعد اليه فى وقار ، وملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان . ودق الحوذى الجرس بقدمه فرن بقوة ، وانحدرت العربة ذات الحصان الواحد الى الغورية فى طريقها الى الحلمية . واغلق البيتان فى الصدر نوافذهما اتقاء البرد ، ولاحت انوار المصابيح وراء خصاصها ، وكاد المدق يغرق فى الصمت لولا ان مضت قهوة كرشة ترسل انوارها من مصابيح كهربية ، عشش الذباب باسلاكها ، وراح يؤمها السمار ؛ هى حجرة مربعة الشكل ، فى حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالارابيسك . فليس لها من مطارح المجد الا تاريخها ، وعدة ارائك تحيط بها . وعند مدخلهـا كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها . وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشـاى . وعلى كثب من المدخـل تربع على الأريكة رجل فى الخمسين يرتدى جلبابا ذا بنيقة موصـول بها رباط رقبة ممـا يلبسه الأفندية ، ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة ! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامدا كالتمثال ، صامتا كالأموات ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأنه فى دنيا وحده . ثم اقبل على القهوة عجوز مهدم ، لم يترك له الدهر عضوا سالما ، يجره غلام بيسراه ، ويحمل تحت ابط يمناه ربابة وكتابا ، فسلم الشيخ على الحاضرين ، وسار من فوره الى الأريكة الوسطى فى صدر المكان ، واعتلاها بمعونة الغلام ثم صعد الغلام الى جانبيه ، ووضع بينهما الربابة والكتاب واخذ الرجل يهيىء نفسه ، وهو يتفرس فى وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن اثر حضوره فى نفوسهم ، ثم استقرت عيناه الذابلتان الملتهبتان

على صبى القهوة سنقر فى انتظار وقلق ، ولما طال انتظاره ، ولمس تجاهل الغلام له ، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ :

ـ القهوة يا سنقر !..

والتفت الغلام نحوه قليلا ، ثم ولاه ظهره بعد تردد دون ان ينبس بكلمة ، ضاربا عن طلبه صفحا . وادرك العجوز اهمال الغلام له ، ولم يكن يتوقع غير ذلك ، ولكن جاءت نجدة السماء ، اذ دخل فى تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ اهمال الصبى ، فقال للغلام بلهجة الآمر :

ـ هات قهوة للشاعر يا ولد ..

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان ، وقال بلهجة لم تخل من اسى :

ـ شكرا لله يا دكتور بوشى ..

فسلم الدكتور عليه ، وجلس قريبا منه ، وكان الدكتور يرتدى جلبابا وطاقية وقبقابا ! هو دكتور أسنان ، الا انه اخذ فنه من الحياة بغير حاجة الى مدرسة الطب أو اية مدرسةاخرى . اشتغل فى بدء حياته تمورجيا لطبيب اسنان فى الجمالية ، ففقه فنه بحذقه وبرع فيه ! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة ، وان كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج ، وربما كان خلع الضرس فى عيادته المتنقلة أليما موجعا ، الا انه رخيص ، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (اغنياء المدق طبعا) ، فاذا حدث نزيف ــ وليس هذا بالأمر النادر ــ اعتبر عادة من عند الله ، وترك منعه ايضا لله !. وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبيا بجنيهين بغير زيادة . وهو يدعى فى الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور ، ولعله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه .

جاء سنقر بالقهوة للشاعر ، كما أمر الدكتور ، فتناول الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته ، وراح يرشف منه رشفات متتابعات حتى اتى عليه ، ثم نحاه جانبا .

وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبى القهوة معه ، فحدجه بنظرة شزراء وتمتم ساخطا :

ـ قليل الأدب . .

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها ، متحاميا نظرات الغضب التى اطلقها عليه سنقر ، وراح يعزف مطلعها ، لبثت قهوة كرشة تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها ، واخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة ثم تنحنح وبصق وبسمل ، ثم صاح بصوته الغليظ :

أول ما نبدى اليوم نصلى على النبى .

نبى عربى صفوة ولد عدنان .

يقول ابو سعدة الزناتى . .

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول :

ـ هس ! . . ولا كلمة اخرى . .

فرفع بصره الذابل عن الربابة فرأى المعلم كرشة ، بجسمه الطويل النحيل ، ووجهه الضارب للسواد ، وعينيه المظلمتين النائمتين ، فنظر اليه واجما ، وتردد قليلا كانه لا يصدق ما سمعت اذناه ، واراد ان يتجاهل شره ، فاستدرك منشدا :

يقول ابو سعدة الزناتى . .

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا :

ـ بالقوة تنشد ؟!. انتهى . . انتهى . الم انذرك من اسبوع مضى ؟ !

فلاح الاستياء فى وجه الشاعر ، وقال بلهجة ملؤها العتاب :

ـ اراك تكثر من « الكيف » ، ثم لا تجد من ضحية سواى ؟

فصاح المعلم فى غضب وحنق :

ـ رأسى صاح يا مخرف ، وانا أعلم ما اريد ، اتحسب انى آذن لك بالانشاد فى قهوتى اذا ما سلقتنى بلسانك القذر ؟.

فخفف الشاعر من لهجته مستوهبا عطف الرجل الغاضب ، وراح يقول :

ــ هذه قهوتى أيضا . الست شاعرها لعشرين عاما خلون ؟!

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات :

ــ عرفنا القصص جميعا وحفظناها ، ولا حاجة بنا الى سردها من جديد . والناس فى أيامنا هذه لا يريدون الشاعر ، وطالما طالبونى بالراديو ، وها هو ذا الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله ..

فاكفهر وجه الشاعر ، وذكر محسورا أن قهوة « كرشة » آخر ما تبقى له من القهوات ، أو من أسباب الرزق فى دنياه ، بعد جاه عريض قديم . وبالأمس القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة . عمر طويل ورزق منقطع ، فماذا يفعل بحياته ؟! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد ؟! وماذا يخبىء له المستقبل وماذا يضمر لغلامه ؟! اشتد به القنوط ، وضاعف قنوطه ما لاح فى وجه المعلم من الجزع والاصرار ، فقال :

ــ رويدا يا معلم كرشة ، ان للهلالى لجدة لا تزول ولا يغنى عنها الراديو ابدا .

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة :

ــ هذا قولك ، ولكنه قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتى . لقد تغير كل شىء !

فقال الشاعر فى قنوط :

ــ الم تسمع الأجيال بلا ملل الى هذه القصص من عهد النبى عليه الصلاة والسلام ؟

فضرب المعلم كرشه على صندوق الماركات بقوة وصاح به :

ــ قلت لقد تغير كل شىء !

وتحرك عند ذاك ــ لأول مرة ــ الرجل الجامد الذاهل

ـ ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبيه ـ.
فصعد بصره الى سقف القهوة ، وتنهد من الاعماق حتى خال
المستمعون انه يزفر فتات كبده وقال بصوت كالمناجاة :
ـ آه تغير كل شيء . أجل تغير كل شيء يا ستى ! كل شيء
تغير الا قلبى فهو بحب ال البيت عامر . .
وطامن راسه ببطء وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار ،
فى حركات اخذت فى الضيق رويدا رويدا ، حتى عاد الى موضعه
الاول من الجمود ، وغرق مرة أخرى فى غيبوبته ، ولم يلتفت
اليه احد ممن اعتاد أحواله ، الا الشاعر ، فقد توجه اليه
كالمستغيث وقال له برجاء :
ـ يا شيخ درويش أيرضيك هذا ؟
ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة . وهنا قدم
شخص جديد تعلقت به الانظار فى اجلال ومودة ، وردوا تحيته
بأحسن منها . كان السيد رضوان الحسينى ذا طلعة مهيبة ،
تمتد طولا وعرضا ، وتنطوى عباءته الفضفاضة السوداء على
جسم ضخم ، يلوح منه وجه كبير أبيض مترب بحمرة ، ذو
لحية صهباء ، يشع النور من غرة جبينه ، وتقطر صفحته بهاء
وسماحة وايمانا . سار متمهلا خافض الرأس ، وعلى شفتيه
ابتسامة تنى بحبه للناس وللدنيا جميعا ، واختار مجلسه على
المقعد التالى لاريكة الشاعر ، وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه
شكواه . ومنحه السيد اذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه
وكان قد حاول مرارا ان يثنى المعلم « كرشه » عما اعتزمه من
الاستغناء عنه دون جدوى . ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب
خاطره ، ووعده بأن يبحث لغلامه عن عمل يرتزق منه ، ثم غمز
كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس فى اذنه « كلنا ابناء آدم ، فان
الحت عليك الحاجة فاقصد اخاك ، والرزق رزق الله والفضل
فضله » . وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تالقا ، شأن الكريم

الفاضل يحب الخير ويصنعه ، ويزداد بصنعه رضا وجمالا . كان يحرص دائما على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل . أو ينقلب الى بيته ملوما محسورا . وانه ليبدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع . وان كان فى الواقع لا يملك الا البيته الأيمن من الزقاق وبضعة افدنه بالمرج . وقد وجد فيه سكان بيته ـ المعلم كرشه فى الطابق الثالث ، وعم كامل والحلو فى الطابق الاول ـ مالكا طيب القلب والمعاملة ، حتى أنه تنازل عن حقه فى الزيادة التى قررها الأمر العسكرى الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين ، فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم . وقد كانت حياته ـ خاصة فى مدارجها الأولى ـ مرتعا للخيبة والألم ، فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر الى الفشل ، وقطع بين اروقته شوطا طويلا من عمره دون أن يظفر بالعالمية ، وابتلى ـ الى ذلك ـ بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الاطفال . ذاق مرارة الخيبة حتى اترع قلبه باليأس أو كاد ، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم ، وانطوى على نفسه طويلا فى ظلمة غاشية . ومن دجنة الأحزان اخرجه الايمان الى نور الحب ، فلم يعد يعرف قلبه كربا ولا هماً . انقلب حبا شاملا وخيرا عميما وصبرا جميلا . وطأ احزان الدنيا بنعليه ، وطار بقلبه الى السماء ، وأفرغ حبه على الناس جميعا . وكان كلما نكد الزمان عنتا ازداد صبرا وحبا . رآه الناس يوما يشيع ابنا من ابنائه الى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه ، فأحاطوا به مواسين معزين ، ولكنه ابتسم لهم ، واشار الى السماء وهو يقول : « اعطى واخذ ، كل شىء بأمره وكل شىء له ، والحزن كفر » فكان هو العزاء . ولذلك قال عنه الدكتور بوشى : « اذا كنت مريضا فالمس السيد الحسينى يأتك الشفاء ، واذا كنت يائسا فطالع نور غرته يدركك الرجاء ، أو محزونا

فاستمع اليه يبادرك الهناء » ، وكان وجهه صورة من نفسه ، فهو الجمال الجليل فى أبهى صوره .

اما الشاعر فقد رضى بعض الرضا ، ووجد شيئا من العزاء ، وتزحزح تاركا الأريكة ، وتبعه الغلام وهو يلم الربابة والكتاب ، وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسينى ، وحيا الجلوس متجاهلا المعلم كرشه ، ثم ألقى نظرة ازدراء على المدياع الذى كاد العامل يفرغ من تثبيته ، واعطى يده للغلام فجره الى الخارج ، وغابا عن الانظار . ودبت الحياة مرة اخرى فى الشيخ درويش ، فادار راسه نحو الجهة التى اختفى فيها الذاهبان ، وتأوه قائلا :

ـ ذهب الشاعر وجاء المدياع . هـذه سنة الله فى خلقه . وقديما ذكرت فى التاريخ وهو ما يسمى بالانجليزية History وتهجيتها H i s t o r y .

وقبل ان يختم تهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد ان اغلقا دكانيهما : ظهر الحلو أولا ، وقد غسل وجهه ورجل شعره الضارب للصفرة ، وتبعه عم كامل يتبختر كالمحمل ، ويقتلع قدميه من الارض اقتلاعا ، وسلما على الحاضرين ، وجلسا جنبا لجنب ، وطلبا الشاى ، ولم يكونا يحلان بمكان حتى يملاه ثرثرة .

قال عباس الحلو :

ـ يا قوم اسمعوا : شكا الى صديقى عم كامل قال : انه عرضة للموت فى اية لحظة ، وانه اذا مات فلن يترك ما يدفن به .

فقال بعض الحاضرين متهكما :

ـ أمة محمد بخير .

وقال البعض الآخر :

ـ ان له لتركة من البسبوسة تكفى لدفن امة باسرها .

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلا :

ـ لا تفتأ تذكر الموت . وتالله لتدفننا جميعا بيديك .

فقال عم كامل بصوت رفيع برىء كالأطفال :

ـ اتق الله يا شيخ ، انا رجل مسكين ..

واستطرد عباس الحلو قائلا :

ـ يا قوم : عزت على شكاة عم كامل ، ولبسبوسته فضل علينا جميعا غير منكور . فابتعت له كفنا احتياطيا ، واحتفظت به فى مكان حريز لساعة لا مفر منها ، (والتفت الى عم كامل قائلا) : هذا سر اخفيته عنك ، وها انا اعلنه على الملأ ليكونوا على شهودا .

فابدى الكثيرون اغتباطهم ، متصنعين الجد ، ليجوز الكلام على عم كامل المشهور بسرعة تصديقه ، واثنوا على مروءة الحلو وكرمه ، وقالوا : ان هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذى يحبه ويساكنه شقة واحدة ، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه ، حتى السيد رضوان الحسينى ابتسم راضيا ، حتى جعل عم كامل ينظر الى الشاب فى سذاجة ودهشة ويقول متسائلا :

ـ أحقا ما تقول يا عباس ؟ !

فقال الدكتور بوشى :

ـ لا يداخلك الشك يا عم كامل . لقد علمت بما يقول صاحبك ، ورايت الكفن بعينى راسى ؛ وهو كفن قيم وددت لو يكون لى مثله .

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال :

ـ حظ سعيد . الكفن سترة الآخرة . يا كامل تمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك . ستكون طعاما مريئا للدود ، فيرعى لحمك الهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة ، ومعناها بالانجليزية Frog وتهجيتها F r o g .

وصدق عم كامل ، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجه ، ثم دعا له طويلا ، وانبسط وحمد الله ، وارتفع عند ذاك صوت فتى آت من الطريق يقول :

ـ مساء الخير ..

واتجه صاحبه الى بيت السيد رضوان الحسينى . كان

القادم هو حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة . فتى في العشرين في مثل لون ابيه الضارب الى السواد ، ولكنه ممشوق القوام ، تدل ملامحه الدقيقة على الحذق والفتوة والنشاط . كان يرتدى قميصا من الصوف الأزرق وبنطلونا خاكيا وقبعة وحذاء ثقيلا ، تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطاني، وكان ذاك ميعاد عودته من « الأرنس » كما يسمونه ، فرمقه الكثيرون بعين الاعجاب والحسد ، ودعاه صديقه الحلو الى القهوة، ولكنه شكره ومضى الى حال سبيله .

***

ساد الظلام الزقاق الا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة . ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفيء واحدا في اثر واحد ، واكب سمار القهوة على الدومينو والكومي ، الا الشيخ درويش فقد اغرق في ذهوله ، وعم كامل مال راسه على ثدييه وراح في سبات . وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمي بالماركات في الصندوق ، والمعلم « كرشة » يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر في خمول ذوبان الفص في جوفه ويستنيم الى سلطنة لذيذة . وتقدمت جحافل الليل ، فغادر السيد رضوان الحسيني القهوة الى بيته . وتبعه بعد قليل الدكتور بوشي الى شقته في الدور الأول من البيت الثاني ، ثم لحق بهما الحلو وعم كامل . واخذت المقاعد تخلو تباعا ، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة الا ثلاثة : المعلم والصبي والشيخ درويش . وجاء نفر من المعلمين اقران المعلم « كرشة » وصعدوا جميعا الى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان ، وتحلقوا المجمرة . وبدءوا سهرة جديدة

لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلا برقة :

— انتصف الليل يا شيخ درويش ..

فانتبه الشيخ الى صوته ، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه ، ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبته ونهض قائما واضعا قدميه فى القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة ، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الرقاق . كان السكون شاملا ، والظلمة ثقيلة ، والطرق والدروب خالية مقفرة ، فترك لقدميه مقوده ، حيث لا دار له ولا غاية ، وغاب فى الظلمة .

***

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرسا فى احدى مدارس الأوقاف ، بل كان مدرس لغة انجليزية ! وقد عرف بالاجتهاد والنشاط ، واسعفه الحظ فكان رب أسرة سعيدة . ولما أن انضمت مدارس الأوقاف الى وزارة المعارف ، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوى المؤهلات العالية ، فاستحال كاتبا بالأوقاف ، ونزل من الدرجة السادسة الى الثامنة ، وعدل مرتبه على هذا الأساس . كان من الطبيعى ان يحزن الرجل لمصيره حزنا عميقا ، وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة ، يعلنها حينا ، ويكتمها — مقهورا مغلوبا على أمره — أحيانا . ولقد سعى كل مسعى ، وقدم الالتماسات ، واستشفع الرؤساء ، وشكا الحال وكثرة العيال ، دون جدوى . ثم استسلم للقنوط بعد ان تحطمت أعصابه أو كادت . واشتهر أمره فى الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى ، عظيم اللجاج والعناد ، سريع التأثر ، لا يكاد يمضى يوم من حياته دون شجار أو اصطدام ، كبير الاعتداد بنفسه والتحدى للآخرين ، وكان اذا شجر بينه وبين آخر

خلاف — وكثيرا ما يحدث — تعالى استكبارا ، وخاطب خصمه بالانجليزية ، فاذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب ، صاح به فى ازدراء شديد « تعلم أولا ثم خاطبنى ! » وكانت انباء شجاره وعناده تتصل برؤسائه أولا فاول ، وكانوا يتسامحون معه ، عطفا عليه من ناحية ، وتحاميا لشره من ناحية اخرى ، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر الا بعض الانذارات ، وخصم يوم أو يومين . ولكنه ازداد بكرور الأيام صلفا ، حتى تراءى له يوما ان يحرر خطاباته المصلحية باللغة الانجليزية ففعل . وكان يقول فى تسويغ ذلك انه موظف فنى لا كغيره من الكتاب . وتعطل عمله تعطلا دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة ، ولكن القدر كان اسرع من حزم المدير ، فطلب الرجل يوما مقابلة وكيل الوزارة ، ودخل درويش افندى — كما كان وقتذاك — حجرة الوكيل فى تؤدة ووقار ، وحياه تحية الند للند ، وبادره قائلا بثقة ويقين :

— ياسعادة الوكيل لقد اختار الله رجله .

فطلب اليه الوكيل ان يفصح عما يريد ، فاستدرك قائلا بوقار وجلال :

— انا رسول الله اليك بكادر جديد .

هكذا ختمت حياته بالأوقاف . وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التى كان واحدا منها . هجر اهله واخوانه ومعارفه الى دنيا الله كما يسميها ، ولم يستبق من آثار الماضى جميعا الا نظارته الذهبية . ومضى فى عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا ماوى ، ودلت حياته على ان بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا فى هذه الدنيا المتقيحة برارة الكفاح بلا ماوى ولا مال ولا معين ، ثم لا يجدون هماً ولا كربا ولا حاجة . لا جاع يوما ولا تعرى ولا شرد . وانتقل الى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها . واذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعا

صارت بيتا له ، واذا كان قد حرم مرتبه فالتعلق بالمال قد انقطع عنه ، واذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس جميعا انقلبوا له أهلا . يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد ، ويتمزق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد ، ولا يحل مكانا حتى يرحب به ناسه ، وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه — على ذهوله — اذا غاب عن القهوة يوما ، ومع ذلك فلم يكن يأتى شيئا مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب ، فهو اما ذاهل صامت ، أو مرسل القول كما يحب لا يدرى انى يكون موقعه من النفوس . بيد انه رجل محبوب مبارك ، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا ، ويقولون عنه انه ولى من أولياء الله الصالحين ، يأتيه الوحى باللغتين العربية والانجليزية .

٢

نظرت الى المرآة بعين غير ناقدة ، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا ، فعكست المرآة وجها نحيلا مستطيلا فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأعاجيب . وجعلت تعطفه يمنة ، وتعطفه يسرة ، وأصابعها تنسق ضفيرتها ، مغمغمة بصوت لا يكاد يسمع « لا بأس ، جميل ، وايم الله جميل » . والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاما ، والدنيا لاتدع وجها سالما نصف قرن من الزمان . اما جسمها فنحيل ، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق ، وأما الصدر فأمسح ، بيد أن فستانا حسنا يستره ، هذه هى الست سنية عفيفى صاحبة البيت الثانى بالزقاق ، حيث يسكن الدكتور بوشى طابقه الاول . وفى ذلك اليوم كانت تتخذ اهبتها لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها

ام حميدة . ولم يكن من عادتها الاكثار من زيارة أحد ، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة الا أول كل شهر لتحصل الأجرة ، الا أن باعثا جديدا دب فى اعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة . وهكذا غادرت شقتها ، ونزلت السلالم ، متمتمة برجاء « اللهم حقق الآمال » ودقت الباب بكفها المعروقة ففتحت لها حميدة . واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة ، وقادتها الى حجرة الضيوف ، ثم ذهبت تدعو أمها . كانت الحجرة صغيرة ، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين ، وفى الوسط خوان باهت عليه نافضة سجائر ، واما أرضها فمفروشة بحصيرة . ولم يطل بالمرأة الانتظار ، فسرعان ما جاءت ام حميدة مهرولة وقد غيرت جلباب البيت ، فسلمتا بشوق ، وتبادلتا قبلتين ، وجلستا جنبا لجنب ، وأم حميدة تقول :

— أهلا .. أهلا .. زارنا النبى يا ست سنية .

كانت ام حميدة ربعة ممتلئة فى الستين . ولكنها معافاة قوية ، جاحظة العينين ، مجدورة الخدين ، ذات صوت غليظ قوى النبرات ، فاذا تحدثت فكأنها تزعق ، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزاع . ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال ، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملك امر قد تسوء عواقبه ، وقد ينذر بالخطر . ولكنها وطنت النفس على ان تلبس لكل حال لبوسها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وانها على كلتا الحالتين لقادرة . كانت بحكم وظيفتها — خاطبة وبلانة — عميقة الملاحظة ، كثيرة الكلام بل كانت لسانا لا يكف ولا يمسك ، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحى أو بيت من بيوته ، فهى مؤرخة راوية لأخبار السوء — على الغالب — ومعجم للمنكرات ، وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام فراحت ترحب بالضيفة ، وتطنب فى الثناء عليها ، وتروى لها نتفا

من انباء الزقاق والأحياء المجاورة : اما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة ؟ هى كسابقاتها ، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جبته ، وحسنية الفرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه ، والسيد رضوان الحسينى الطيب الورع زجر زوجه زجرا شديدا ، لماذا يعاملها هذه المعاملة — وهو الرجل الطيب — ان لم تكن شريرة خبيثة !. الدكتور بوشى احتك بفتاة صغيرة فى المخبأ فى آخر غارة وضربه رجل محترم ، كريمة الماوردى تاجر الخشب فرت مع خادمها وبلغ ابوها القسم . طابونة الكفراوى تبيع عيشا غير مخلوط سرا ، الخ .. الخ .

أصغت الست سنية عفيفى باذن غير واعية ، لانها كانت مشغولة بالأمر الذى جاءت من اجله ، وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذى طال اختماره بنفسها مهما كلفها الأمر ، بيد أنها نازعت المراة الحديث حتى تتهيأ لها فرصة مواتية . وقد تهيأت هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة :

— وكيف الحال يا ست سنية ؟

فعبست قليلا وقالت :

— الحق انى تعبة يا ست أم حميدة .

فرفعت أم حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت :

— تعبة ؟ كفى الله الشر !

وامسكت ست سنية ريثما تضع حميدة — وكانت قد دخلت الحجرة فى هذه اللحظة — صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت ، ثم قالت بامتعاض :

— تعبة يا ست أم حميدة . اليس من التعب تحصيل اجور الدكاكين ؟ تصورى وقوف امراة مثلى أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة ..

وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات آسيفة :

— صدقت يا ستي . كان الله في عونك .

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت : لماذا تكثر المراة من ترداد هذه الشكوى ؟ وذكرت انها أعادتها الى سمعها مرات ! بل ذكرت أن هذه ثانى أو ثالث مرة تزورها فى غير أول الشهر . وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها ، وكانت فى أمثال هذه المسائل خاصة ذات فراسة لا تجارى ، فصممت أن تسبر غور الزائرة من وراء وراء ، فقالت بخبث :

— هذه احدى شرور الوحدة . انت امراة وحيدة يا ست سنية . فى البيت وحدك ، وفى الطريق وحدك ، وفى « الفراش » وحدك ، الا قطعت الوحدة . .

وسرت الست سنية بحديث المراة الذى كأنه يلبى خواطرها ، وقالت وهى تخفى سرورها به :

— وما عسى أن أصنع ؟ اقاربى ذوو اسر ، وانا لا ارتاح الا فى بيتي والحمد لله الذى اغنانى عن الناس جميعا .

وكانت أم حميدة تلحظها بمكر ، فقالت فاتحة آخر الأبواب :

— الحمد لله الف مرة ، ولكن بالله خبرينى : لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة هذا الدهر الطويل . . ؟ !

فخفق فؤاد الست سنية ، ووجدت نفسها وجها لوجه حيال ما تريد ، ولكنها تنهدت بانكار وقالت بتأفف متكلف :

— حسبى ما ذقت من مرارة الزواج . . !

كانت الست سنية عفيفى قد تزوجت فى شبابها من صاحب دكان روائح عطرية ، ولكنه كان زواجا لم يصادفه التوفيق ، فأساء الرجل معاملتها ، واشقى حياتها ، ونهب مالها ، ثم تركها أرملة منذ عشرة أعوام . ولبثت ارملة طوال تلك الأعوام ، لأنها — على حد قولها — كرهت حياة الزوجية .

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به اهمال الجنس الآخر لها ، فقد كرهت الحياة الزوجية حقا ، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها ، وظلت على نفورها من الزواج وفرحها بحريتها عهدا طويلا . ثم انسيت تلك العاطفة بكرور الزمن ، ولم تكن تتردد فى تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب يدها طالب . وجعلت تراود الأمل حينا بعد حين ، حتى طال به الأمد ، فغلبها القنوط ، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب ، ووطنت النفس على الرضا بحياتها كما هى . ولما كان من الضرورى ان يوجد فى حياة الانسان شىء تنعقد حوله آماله ، شىء يقرر لحياته قيمة ولو وهمية سخيفة ، فقد وجدت ضالتها كذلك . ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينتقص امرأة عازبة مثلها ، فاولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق المالية الجديدة . وقد كانت فى الأصل تميل قليلا نحو الحرص ، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير ، فجاءت الهواية الجديدة تؤكد ذاك الميل القديم وتقويه وتتقوى به . وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة فى صندوق عاجى صغير اخفته فى اعماق صوان ملابسها ، ووزعتها رزما من ذوات الخمس والعشر ، تتسلى بمشاهدتها ومعاودة عدها وترتيبها . ولما كانت الأوراق خرسا لا كالنقود المعدنية فقد امنت الأخطار ، ولم يدر بها أحد من شطار المدق على شدة حساسيتهم ، ووجدت فى حياتها المالية عزاء ، وانتحلت منها اعتذارا لعزوبتها . وقالت لنفسها : ان أى زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم ، وبأن يضيع عليها فى غمضة عين ثمرة الاعوام الطوال ، ومع ذلك فما كاد يتسرب الى قلبها الايحاء بفكرة الزواج حتى تناست الاعذار والمخاوف جميعا . وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحول العجيب ، سواء عن قصد او عن غير قصد ، بما قصته عليها مرة من تزويجها لأرملة عجوز . ففكرت

فى الأمر على انه ممكن التحقيق ، وسرعان ما استولى على ارادتها ، فتدافعت الى طاعته لا تلوى على شيء . ظنت يوما انها نسيت الزواج ، فاذا بالزواج أملها المنشود لا يغنى عنه شيء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالية جديدة . وجعلت تتساءل فى جزع : كيف ضاع ذاك العمر هباء ؟ كيف قطعت عشرة اعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة ؟ ! وقالت : ان هذا هو الجنون وحملت زوجها المرحوم تبعته ، وصممت على أن تكفر عنه ، وان تكفر عنه اليوم قبل الغد ان أمكن .

واصغت الخاطبة الى تأففها المتصنع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها : « لا يجوز على مكرك يا مرة » . ثم خاطبتها بلهجة تنم عن لوم :

— لا تغالى يا ست سنية ، اذا كان حظك الأول قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشارق والمغارب ..

فقالت الست سنية وهى تعيد قدح القهوة الى الصينية شاكرة :

— لا ينبغى لعاقل أن يعاند الحظ اذا تجهم .

فاعترضتها أم حميدة قائلة :

— ما هذا الكلام يا ست العاقلات ؟ كفاك وحدة ، كفاك .

فدقت المرأة صدرها الأمسح بباطن يسراها وقالت بانكار مصطنع :

— يا خبر . أتريدين الناس على أن يرمونى بالجنون ؟ !

— اى أناس تعنين ؟ ان اكبر منك يتزوجن كل يوم .

فتضايقت من « أكبر منك » وقالت بصوت منخفض :

— لست من الكبر كما تظنين .. لعن الله الهم .

— ما قصدت هذا يا ست سنية ، وما اشك فى أنك ما زلت فى حدود الشباب ، ولكنه الهم الذى تلتحفين به مختارة .

فارتاحت الست ، ولكنها كانت لا تزال مصرة على تمثيل دور من يساق الى قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة ، فتساءلت بعد تردد :

— الا يعيبنى أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة ؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة : « لماذا قصدتنى اذاً يا مرة ؟ » . ثم خاطبت الست قائلة :

— كيف يعيبك ما هو شرع وحق ! انت ست عاقلة شريفة ، والكل يشهد بذلك ، فالزواج نصف الدين يا حبيبتى ، وربنا شرعه حكمة ، وأمر به النبى عليه الصلاة والسلام ..

فقالت الست سنية بايمان :

— صلى الله عليه وسلم .

— كيف لا يا حبيبتى ! نبى عربى ، والله يحب عبيده !

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر ، وثمل فؤادها سرورا ، فقالت وهى تستخرج سيجارتين من علبتها :

— ومن يرضى بالزواج منى ؟

فثنت أم حميدة سبابة يسراها ، ولصقتها بحاجبها ، وقالت باستنكار :

— الف رجل ورجل !

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت :

— رجل واحد يكفى ..

فقالت أم حميدة بيقين :

— الرجال جميعا يحبون الزواج من أعماقهم . ولا يكاد يشكو الزواج الا المتزوجون . وكم من رجل عازب راغب عن الزواج ، ما ان أقولَ له : « عندى عروس لك ! » حتى تدب فىّ عينيه اليقظة ، ويغلبه الابتسام ، ويسألنى فى لهفة لا تخفى : « حقا ..

من !.. من ؟ » . الرجل يريد المرأة ولو اقعده الكساح ، وهذه حكمة ربنا .

فهزت الست سنية رأسها فى ارتياح وقالت :

ــ جلت حكمته !.

ــ نعم يا ست سنية ، لذلك خلق الله الدنيا ، كان فى وسعه أن يملأها رجالا فحسب ، أو نساء فحسب ، ولكنه خلق الذكر والأنثى ، ومنحنا العقل كى نفهم مراده ، فلا محيد عن الزواج .

فابتسمت الست سنية عفيفى وقالت برقة :

ــ كلامك كالسكر يا ست أم حميدة !

ــ حلى الله دنياك ، وآنس قلبك بالزواج الكامل .

فتشجعت الست وقالت :

ــ ان شاء الله ، وبفضلك .

ــ أنا امرأة ــ بحمد الله ــ مباركة . زيجاتى لا انفصام لها ، ياما عمرت بيوتا ، وانجبت أطفالا ، وأسعدت قلوبا ، فليكن اعتمادك على الله وعلى ..

ــ جزاؤك لن يقدر بمال .

فقالت أم حميدة فى سرها : « لا .. لا يا مرة ، ينبغى أن يقدر بمال ، وبمال كثير . هلمى الى صندوق التوفير واعطينى ، وكفاك تقتيرا .. » . ثم قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال اذا فرغوا من المقدمات وطرقوا الهام من الأمور :

ــ أظنك تفضلين رجلا متقدما فى السن ؟ ! .

لم تدر الأخرى بماذا تجيب . لم تكن تطمع فى الزواج من شاب ، ولا كان الشاب بالزوج الذى يناسبها ، ولكنها لم ترتح الى عبارة « متقدم فى السن » هذه ، وكان تدرج الحديث قد خلطها بأم حميدة فآنست اليها ، واستطاعت أن تقول وهى تضحك لتدارى ارتباكها :

ـ أصوم وافطر على بصلة ! .

فضحكت أم حميدة ضحكة عاليــة رنت رنينــا مزعجا ، وازدادت اطمئنانا الى نفاسة الصفقة التى هى بصدد عقدها ، ثم قالت بخبث :

ـ صدقت يا ست ، والحق ان التجارب دلتنى على أن اسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج ، ولكم يناسبك رجل فى الثلاثين او يزيد قليلا .

فتساءلت المرأة فى قلق :

ـ وهل يوافق ؟

ـ يوافق ويوافق ! انت سيدة جميلة وغنية !

ـ سلمت من كل سوء !

فقالت ام حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجد والاهتمام :

ـ اقول له سيدة نصف ، لا ولد لها ولا حماة ، ادب وكمال، صاحبة دكاكين بالحمزاوى وبيت ذى طابقين بالمدق .

فابتسمت انست وقالت تصحح لها ما حسبته هفوة :

ـ بل ذى ثلاثة طوابق .

ولكن الأخرى قالت معترضة :

ـ اثنان فحسب ، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى ايجاره مدى حياتى !

فقالت ست سنية فى سرور :

ـ لك عيناى يا ست أم حميدة !

ـ سلمت عيناك . ربنا يهيىء ما فيه الخير .

فهزت الأخرى رأسها كالمتعجبة وقالت :

ـ يا للعجب ! جئتك لمجرد الزيارة فانظرى كيف انتهى بنا الحديث ؟ وكيف أغادرك فى حكم المتزوجات ؟!

فجارتها ام حميدة فى ضحكها كالمتعجبة أيضا ، وان راحت تقول لنفسها : « يا مرة احتشمى ، أتحسبين أن مكرك يجوز على ؟ ! » ثم قالت :

ـ ارادة ربنا ؟ أليس كل شىء بأمره ؟ ؟

وعادت الست سنية عفيفى الى شقتهـا مسرورة فرحة ، بيد أنها حادثت نفسها قائلة : « ايجار شقة مدى الحياة ! يا لها من امراة جشعة » ! .

٣

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها . كانت تمشط شعرها الأسود الذى تفوح منه رائحة الكيروسين . فنظرت أم حميدة الى شعرها الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة ، وقالت بأسف :

ـ واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل ! .

فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف . ولاحت فيهما نظرة حادة صارمة ، وقالت الفتاة بحدة :

ـ قمل ؟ ! والنبى ما وجد المشط الا قملتين اثنتين !

ـ انسيت يوم مشطتك من اسبوعين وهرست لك عشرين قملة ؟

فقالت بغير مبالاة :

ـ كان مضى على راسى شهران بلا غسيل .

ثم اشتد ساعدها فى التمشيط وهى تجلس جنب أمها . كانت فى العشرين ، متوسطة القامة ، رشيقة القوام ، نحاسية البشرة ، يميل وجهها للطول ، فى نقاء وزواء ، وأميز ما يميزها

عينان سوداوان جميلتان ، لهما حور بديع فاتن ؛ ولكنها اذا اطبقت شفتيها الرقيقتين وحدت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها ! وقد كان غضبها دائما مما لا يستهان به حتى فى زقاق المدق نفسه . وامها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت . قالت لها يوما وهما تتسابان : « لن يلم الله شعثك برجل ، فاى الرجال يرضى بأن يضم الى صدره جمرة موقدة ! » . وكانت تقول فى مرات أخرى : ان جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب ، وسمتها « الخمسين » باسم الرياح المعروفة . ومع ذلك كانت تحبها كثيرا وان كانت فى الحقيقة امها بالتبنى . كانت الأم الحقيقية شريكة لهـا فى الاتجار بالمفتقة والموغات ، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق فى ظروف سيئة ، واخيرا ماتت بين يديها تاركة طفلتها فى سن الرضاع ، فتبنتها ام حميدة ، وعهدت بها الى زوج المعلم كرشة القهوجى فارضعتها مع ابنها حسين كرشة ، فهى أخته بالرضاعة .

مضت تمشط شعرها الفاحم ، منتظرة كالعادة ان تعلق أمها على الزيارة والزائرة ، ولما طال الصمت قالت الفتاة :

— طالت الزيارة ، فيم كنتما تتحدثان ؟

فضحكت أمها فى سخرية وتمتمت :

— خمنى !

فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامها :

— طلبت رفع الايجار ؟

— لو فعلت لخرجت محمولة على ايدى رجال الاسعاف ، ولكنها طلبت خفضه .

فصاحت حميدة :

— هل جنت ؟

— أجل جنت ؟ ولكن خمنى ..

فنفخت الفتاة وهى تقول :

ــ اتعبتنى !

فارعشت المراة حاجبيها وقالت وهى تغمز بعينيها :

ــ صاحبتك تروم الزواج !

فتولت الفتاة الدهشة وقالت :

ــ الزواج ! .

ــ اجل ، وتريد شابا . اسفى عليك من شابة عاثرة الحظ لا تجد من يطلب يدها !

فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهى تضفر شعرها :

ــ بل اجد كثيرين ، ولكنك خاطبة فاشلة تريدين ان تدارى فشلك . وماذا بى مما يعيب ؟ ولكنك كما قلت امراة فاشلة ، يصدق عليك المثل القائل « باب النجار مخلع » ..

فابتسمت أم حميدة قائلة :

ــ اذا تزوجت الست سنية عفيفى فلا يصح لامراة ان تياس ..

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة :

ــ لست اجرى وراء الزواج ، ولكنه يجرى ورائى انا ، وسانبذه كثيرا ..

ــ طبعا ! اميرة بنت أمراء !

فتغاضت الفتاة عن سخرية امها وقالت بنفس اللهجة الحادة :

ــ افى هذا الزقاق احد يستحق الاعتبار ؟

ولم تكن الام فى الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار . ولا تشك فى جمالها ، ولكنها كانت كثيرا ما تثور بعجبها وغرورها . فقالت باستياء :

ــ لا تسلقى الزقاق بلسانك ، ان اهله سادة الدنيا .

— سادة دنياك انت . كلهم كعدمهم ، اللهم الا واحدا به رمق جعلتموه اخي !

وكانت تعني حسين كرشة اخاها بالرضاعة ، فهال امهـا الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء :

— كيف تقولين هذا ؟ ما جعلناه اخا ، وما نملك أن نصنع اخا ولا اختا ، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله ..

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة :

— الا يجوز أن يكون قد رضـع من ثدى ورضعت انا من الآخر ؟

فلكمتها امها في ظهرها وصاحت بها :

— قاتلك الله ..

فغمغمت الفتاة بازدراء :

— زقاق العدم !

— أنت تستحقين موظفا قد الدنيا !

فتساءلت بتحد :

— هل الموظف اله ؟

فتنهدت الام قائلة :

— آه لو تخففين من غلوائك .. !

فقلدت لهجة امها قائلة :

— آه لو تنصفين ولو مرة في العمر !

— آكلة شاربة ثم لا تشكرين . اتذكرين كيف اطلقت على لسانك الطويل بسبب جلباب ؟ !

فقالت حميدة بدهشة :

— وهل الجلباب شيء يهون ؟ ! .. ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة ؟ ! الا ترين أن الأولى بالفتاة التى لا تجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية ؟ !

ثم امتلأ صوتها وهى تقول مستدركة :

ـ آه لو رايت بنــات المشغل ! آه لو رايت اليهـوديات العاملات ! كلهن يرفلن فى الثياب الجميلة . اجل ما قيمة الدنيا اذا لم نرتد ما نحب ؟ !

فقالت الأم باستياء :

ـ افقدتك مراقبة فتيات المشــغل واليهوديات عقلك ، وهيهات أن يهدأ لك بال . .

فلم تعبأ بقــولها وكانت قد انتهت من تضفير شعرها ، فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة ، ثبتتها على مسند الكنبة ، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها ، ثم غمغمت بلهجة تنم عن الاعجاب :

ـ آه يا خسارتك يا حميدة ، لماذا توجدين فى هذا الزقاق ؟! ولماذا كانت أمك هذه المراة التى لا تميز بين التبر والتراب ؟ !

ثم دلفت من النــافذة الوحيدة فى الحجرة التى تطل على الزقاق ، ومدت يديها الى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعــد يفرج بينهما الا مقدار قيراطين من الفراغ ، وارتفقت النافذة ملقية ببصرها الى الزقاق ، متنقلة به من مكان الى مكان ، قائلة وكأنما تخاطب نفسها فى سخرية :

مرحبــا بك يا زقاق الهنــا والسعادة ، دمت ودام أهلك الأجلاء . يا لحسن هذا المنظر ، ويا لجمال هؤلاء الناس . ماذا ارى ؟ ! هذه حسنية الفرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكيبة ، عينا على الأرغفة ، وعينا على جعدة زوجها ، والرجل يشتغل مخافة ان تنهال عليه لكماتها وركلاتها . وهــذا المعلم كرشة القهوجى متطامن الراس كالنائم وما هو بالنائم ، وعم كامل يغط فى نومه ، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب . آه . وهذا عباس الحلو يسترق النظر الى النافذة فى جمال ودلال ،

ولعله لا يشك فى ان هذه النظرة سترمينى عند قدميه أسيرة لهواه ، ادركونى يا هوه قبل التلف . اما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة ، رفع عينيه يا آماه وغضهما ، ثم رفعهما ثانية ، . قلنا الأولى مصادفة ، والثانية يا سليم بك ؟ ! رباه هــذه نظرة ثالثة ! . ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء ! .. مصادفة كل يوم فى مثل هذه الساعة !؟ ليتك لم تكن زوجا وأبا اذاً لبادلتك نظرة بنظرة ، ولقلت لك أهلا وسهلا ومرحبا . هذا كل شيء ، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل ؟!.. أوه .. ها هو ذا الشيخ درويش قادما يضرب الأرض بقبقابه ..

وهنا قاطعتها أمها فى سخرية :

— ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك !

فلم تلتفت اليها ، ورقصت لها عجيزتها وهى تقول :

— يا له من رجل مقتدر . يقول انه انفق فى حب السيدة زينب مائة الف جنيه ، فهل يبخل على بعشرة آلاف ؟ !

ثم تراجعت فجاة كأنهـا ملت موقفها ، وعادت الى المرآة ملقية اليها نظرا فاحصا ، وتنهدت وهى تقول :

— يا خسارتك يا حميدة ..

٤

فى الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل لا تزوره الشمس الا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله . بيد أن النشاط يدب فى الأركان منذ الصباح الباكر ، يفتتحه سنقر صبى القهوة فيهيىء المقـاعد ويشعل الوابور ، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجا وأفرادا ، ثم يلوح جعدة

حاملا خشبة العجين ، حتى عم كامل نفسه يشغل فى هـذه الساعة بفتح الدكان وتناول الافطار عن النعاس !. وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان افطارهما معا ، فتوضع بينهما صينية عليهـا طبق المدمس والبصـل الأخضر والخيار المخلل ، وكان مزاجاهما فى الأكل مختلفين ، فالحلو سريع يلتهم رغيفه فى دقائق معدودات ، اما عم كامل فبطىء يمضغ اللقمة فى أناة حتى يكاد يذيبها فى فمه ، وكثيرا ما يقول : ان الطعام المفيد يهضم فى الفم أولا ، ولذلك فالحلو ينتهى من طعامه ، ثم من احتساء الشاى وتدخين الجوزة ،والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل ، ولذلك فانه لكى يأمن تعدى الحلو على نصيبه يشق الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشاب بتجاوز حده !. وعم كامل ـ رغم جسامته وضخامته لا يعد اكولا وان كان يلتهم الحلوى بشراهة . وهو حلوانى ماهر ، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فن الا فى الطلبات الخاصة التى يوصى عليها امثال السيد علوان والسيد رضوان الحسينى والمعلم كرشة . وطار فى ذلك صيته حتى جاوز المدق الى الصنادقية والغورية والصاغة . ولكن رزقه كان على قد عيشته البسيطة دون زيادة ، فلم يكن كاذبا حين شكا الى عباس الحلو انهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به . وقد قال ـ ذلك الصباح ـ مخاطبا الحلو بعد ان فرغا من طعامهما :

ـ قلت انك ابتعت لى كفنا ، وهو صنيع تستحق عليه الشكر والدعاء ، ولكن ما قولك فى ان تنزل لى عنه الآن ؟.

فتعجب عباس الحلو الذى كاد ينسى الكفن كما تنسى عادة الأكاذيب ، وسأله :

ـ وماذا تريد أن تفعل به ؟؟ !.

فقال الرجل بصوته الرفيع الذى يحاكى اصوات الغلمان :

— انتفع بثمنه !.. ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع اثمان الاقمشة ؟.

فضحك الحلو وقال :

— انت رجل ماكر على رغم ما تتظاهر به من سذاجة . بالأمس شكوت أنك لا تجد ما تكفن به بعد موتك ، فلما اعددت لك الكفن تريد ان تنتفع بثمنه ؛ ولكن هيهات ان تنال ما تريد ، لقد ابتعت الكفن لأكرم به جثتك بعد عمر طويل ان شاء الله .

فابتسم عم كامل فى ارتباك وقال :

— هب ان العمر قد امتد بى حتى تعود الحالة الى ما كانت عليه قبل الحرب ، الا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالى ؟ !

— وهبك تموت غدا ؟!

فقطب عم كامل وقال :

— لا قدر الله !..

فقهقه الحلو ضاحكا وقال :

— عبثا تحاول أن تثنينى عما اعتزمت . سيبقى الكفن فى حرز حريز حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

وعاوده الضحك فضحك طويلا حتى شاطره الرجل ضحكه ، ثم قال الشاب معاتبا :

— يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة ! . هل استفدت منك مليما واحدا فى حياتى ؟! مطلقا ، ذقنك جرداء لا تنبت ، وكذلك شاربك .. ورأسك أصلع ، وليس بهذه الدنيا الواسعة التى تدعوها جسمك شعرة واحدة انتفع بحلقها — سامحك الله .

فابتسم عم كامل قائلا :

— جسم نظيف طاهر لن يشق على احد غسله .

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء ، فنظرا الى داخل الزقاق فرأيا المعلمة حسنية الفرانة تنهال على زوجها جعدة

بالتسبنسب . والرجل يتقهقر امامها لا يملك لها دفعا ، وصراخه يعلو حتى طبق الآفاق ، فضحك الرجلان وصاح عباس الحلو مخاطبا المراة :

— العفو والرحمة يا معلمة ..

ولكن المراة لم تمسك حتى ارتمى جعدة عند قدميها باكيا مستعطفا . ولبث عباس ضاحكا وهو يقول لعم كامل :

— ما أخلق جسمك بهذا الشبنسب حتى يذوب شحمه !

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادما من البيت فى سرواله وقميصه وقبعته . كان ينظر فى ساعة بمعصمه ، تياها فخورا ، وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تمتلئان زهوا . وقد جيا صديقه الحلاق .. ومضى الى الكرسى داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره فى يوم عطلته . وقد نشأ الصديقان معا فى زقاق المدق ، كما رأيا نور الدنيا فى بيت واحد . بيت السيد رضوان الحسينى ، بيد ان عباس الحلو رأى هذا النور الدنيوى قبل صاحبه بثلاثة اعوام . وكان الحلو فى ذلك الوقت يعيش فى حضانة والديه ، قبل أن يعرفه عم كامل ويشاطره شقته بخمسة عشر عاما . وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معا ، وآخى بينهما الحب والمودة ، وظلا على صداقتهما حتى بعد ان فرق بينهما العمل . فاشتغل عباس صبى حلاق بالسكة الجديدة ، وعمل حسين صبيا فى دكان دراجات بالجمالية . وقد تباينت اخلاقهما منذ البدء ، ولكن لعل تباينهما هذا كان من اهم الأسباب التى ابقت على صداقتهما ومودتهما . كان عباس الحلو — ولا يزال — شخصا وديعا ، دمث الاخلاق ، طيب القلب ، ميالا بطبعه الى للمهادنة والمسالمة والتسامح . اقصى ما يطمح اليه من فنون اللهو اللعب السلمى ، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومى ، مع نفور من اللجاج والشجار ، وذرابة فى اتقائهما بالابتسامة الحلوة و «الله يسامحك

يا عم» وكان يحافظ على صلاته وصومه ، ولا تفوته صلاة الجمعة فى سيدنا الحسين . أجل انه أهمل الآن بعض هذه الفرائض ، لا عن استهتار ، ولكن عن كسل ، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان . ولم يكن من النادر أن يتحرش به صاحبه حسين كرشة ، ولكنه كان اذا شد صاحبه أرخى ، فلم تصل اليه قبضته القاسية قط . وعرف الى ذلك بالقناعة والرضا ، حتى انه واصل عمله «صبيا» عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير الا منذ خمسة أعوام ، ومنذ ذلك التاريخ وهو يحسب انه نال أرفع ما يطمح اليه . وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية نفسه ، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان ، وجسمه البدين ، وطابع المرح الذى لا يفارقه . أما حسين كرشة فكان من شطار الزقاق ، مشتهرا بالنشاط والحذق والجراءة ، بل هو معتد اثيم اذا دعا الداعى . وقد اشتغل بادىء امره فى قهوة أبيه ؛ ولكنهما لم يتفقا ، فهجرها وعمل بدكان الدراجات ، ولبث بها حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسكرات البريطانية ، وبلغت يوميته بها ثلاثين قرشا — نظير ثلاثة قروش فى عمله الأول — غير ما يسميه هو «أكل العيش يحب خفة اليد» فارتقت حاله وامتلأ جيبه ، ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود . فتمتع بالثياب الجديدة ، وغشى المطاعم ، واكثر من اكل اللحوم التى هى فى حسبانه طعام المحظوظين ، وارتاد السينمات والملاهى ، وعاقر الخمر ورافق النساء ، وربما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه الى سطح البيت حيث يقدم لهم الطعام والنبيذ والحشيش ، وفى نشوة من نشواته — كما يحكى عنه — قال لبعض مدعويه : « فى بلاد الانجليز يسمون من كان مثلى فى بحبوحة العيش باللارج «Large» ولما كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة اللارج ، ثم حرفت فيما بعد الى حسين كرشة الجراج ! » .

امسك عباس الحلو بالماكينة واقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط يصلح من اطرافه ، دون مساس بالشعر المفلفل الذى يكاد يقف من فظاظته وخشونته ، ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلما التقى بهذا الصديق القديم . اجل ما زالا صديقين ، ولكن الحياة تغيرت بطبيعة الحال ، فلم يعد حسين كرشة يواظب على قضاء سهراته بقهوة ابيه كما كان يفعل فى الايام الخالية ، فدعا هذا الى ندرة اجتماع الصديقين . ولم يخل الأمر من عاطفة حسد تخامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التى تفصل بينهما . بيد أنه فى حسده — كما هو فى حياته — وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط فى خطأ ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء ، وكأنه يغبطه ولا يحسده ، وربما قال لنفسه متعزيا : « سوف تنتهى الحرب يوما ، ويعود حسين الى الزقاق معدما كما خرج منه » .

وجعل حسين كرشة — بثرثرته المعهودة — يحدث صاحبه عن حياة « الأرنس » والعمال والمرتبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الانجليز من نوادر ومداعبات ، وعما يكنه الجنود لشخصه من الحب والاعجاب ، قال :

قال لى الأونباشى جوليان مرة انى لا افترق عن الانجليز الا فى اللون !.. وكثيرا ما نصحنى بالاقتصاد ، ولكن الساعد (وهناك حرك ساعده فى زهو) الذى يربح النقود فى اثناء الحرب خليق بان يربح اضعافهما فى زمان السلم . ومتى تظن الحرب تنتهى ؟! لا تغرنك هزيمة الطليان ، فأولئك لا حساب لهم فى الحرب ، ولسوف يحارب هتلر عشرين عاما ! . والأنباشى جوليان من المعجبين بشجاعتى ، ويثق فى ثقة عمياء ، وبفضل هذه الثقة يسرحنى فى تجارته الواسعة من تبغ وسجاير ، وشوك وسكاكين ، وملاءات أسرة ، وجوارب واحذية !.. دنيا !

فتمتم عباس الحلو متفكرا :

ـ دنيا !.

فالقى حسين على صورته فى المرآة نظرة متفحصة وقال :

ـ اتدرى أين أذهب الآن ؟. الى حديقة الحيوان . أو تدرى مع من ؟ .. مع بنت كالقشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات وسوسة) وسانطلق بها هناك الى اقفاص القرود .

وقهقه عاليا ثم استدرك :

ـ اراهن على انك تتساءل : لماذا القرود ؟. وهذا طبيعى من انسان مثلك لم ير الا قرد القرداتى . فاعلم يا حمار أن القرود فى حديقة الحيوان تعيش جماعات فى اقفاص . وهى كبيرة الشبه بالانسان فى صورته وسوء أدبه، تراها تتغازل وتتحارب فى علانية مكشوفة ، فاذا سقت الفتاة الى هنالك تفتحت لى الأبواب !

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله :

ـ دنيا !.

ـ النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك المرجل .

فضحك الحلو ونظر الى شعره فى المرآة ، وقال بصوت منكسر :

ـ أنا رجل مسكين !

فحدج حسين صورته فى المرآة بنظرة حادة وتساءل متهكما :

ـ وحميدة ؟!.

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب ، وتمثلت لعينيه صورتها ، فتورد وجهه ، وغمغم وهو لا يدرى :

ـ حميدة ؟!.

ـ أجل حميدة بنت أم حميدة !

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح فى وجهه الارتباك ، وراح الآخر يقول بحدة :

ــ يالك من رجل خامل معدوم الحياة . عيناك نائمتان ، دكانك نائم ، حياتك نوم وخمول . أعيانى ايقاظك يا ميت . أتحسب أن هذه الحياة خليقة بتحقيق آمالك ؟ هيهات . ولن ترزقك ــ مهما سعيت ــ بأكثر من لقمتك .

فلاح التفكير فى العينين الهادئتين وقال متكدرا بعض الكدر :

ــ الخيرة فيما إختاره الله .

فقال الشاب ساخرا :

ــ عم كامل ، قهوة كرشة ، الجوزة ، الكومى ؟!.

فقال الحلو فى حيرة :

ــ لماذا تهزأ بهذه الحياة ؟

ــ أهى حياة حقا ؟.. هذا الزقاق لا يحوى الا موتا ، وما دمت فيه فلن تحتاج يوما للدفن ، عليك رحمة الله .

فسأله الحلو بعد تردد وان كان يدرى ما الآخر قائله :

ــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

فصاح به الفتى :

ــ طالما اخبرتك . طالما نصحتك . اخلع رداء هذه الحياة القذرة الحقيرة . اغلق هذا الدكان . اهجر هذا الزقاق . أرح عينيك من رؤية جثة عم كامل . وعليك بالجيش الانجليزى . الجيش الانجليزى كنز لا يفنى ، هو كنز الحسن البصرى . ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم . لقد بعثها ربنا لينشلنا من وهدة الشقاء والعوز ، على الرحب والسعة ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب . الم أنصحك بالالتحاق بالجيش ؟ وما زلت اقول لك ان الفرصة سانحة . حقا هزمت ايطاليا ولكن المانيا باقية ، ووراءها اليابان ، وسوف تطول الحرب عشرين عاما . اقول لك للمرة الاخيرة انه توجد أماكن شاغرة فى التل الكبير .. سافر !.

واستيقظ خيال الحلو ، واضطرمت عواطفه ، حتى وجد

صعوبة فى امتلاك عنانه واتقان عمله . ولم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ، ولكنه نتيجة لالحاحه المتواصل كلما قابله . كان بطبعه قنوعا ، عزوفا عن الحركة ، هيابا لكل جديد ، مبغضا للأسفار ، ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدق بديلا . ولو لبث فيه مدى الحياة لما مله ولا فتر حبه له . ولكن طموحه صحا بعد سبات ، وكان كلما دبت فيه الحياة امتزج فى نفسه بصورة حميدة ، او لعل حميدة هى التى ايقظته وبعثته بعثا جديدا ، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئا واحدا لا يتجزأ . وعلى رغم هذا كله خاف أن يبوح بذات نفسه ، وكأنما أراد ان يفسح لنفسه وقتا للتدبر والتفكير . فقال متظاهرا بالاحجام والاباء :

ــ السفر ابن كلب ! .

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به :

ــ انت ابن ستين كلبا . السفر خير من زقاق المدق ، وخير من عم كامل . سافر وتوكل على الله . انت لم تولد بعد . ماذا اكلت ؟ ماذا شربت ؟ ماذا لبست ؟ ماذا رأيت ؟ صدقنى انك لم تولد بعد .

فقال عباس متأسفا :

ــ من المحزن انى لم اولد غنيا .

ــ من المحزن انك لم تولد بنتا ! لو ولدت بنتا لكنت من بنات الدقة القديمة . حياتك فى البيت وللبيت ، لا سينما ولا حديقة الحيوان ، حتى ولا الموسكى الذى ترتاده حميدة فى العصارى .

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتباكه ، وآلمه أن ينطق به صاحبه مستهينا ساخرا كأنه لفظ تافه لا يثير مكامن القلوب ، وقال مدافعا عن فتاته :

ــ أختك حميدة فتاة كريمة الاخلاق ، ولا يعيبها أن تروح عن نفسها بالمشى فى الموسكى .

ــ أجل ولكنها فتاة طموح ما فى ذلك من شك ، ولن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك .

وعاود قلبه الخفقان العنيف ، والتهب وجهه احمرارا ، وذابت نفسه وجدا وقلقا وانفعالا . وكان انتهى من حلق رأس الشاب . فراح يمشطه دون أن ينبس بكلمة ، وفكره لا يستريح من اضطرابه . ثم نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده . وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنه نسى منديله فرجع مسرعا الى البيت . وجعل يتابعه بعينيه من موقفه ، فلاح لعينيه مرحا نشيطا سعيدا ، وكأنه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة . « لن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك » . صدق حسين بلا ريب ، انه يعيش عيشة الكفاف ، ولا يكاد يتمخض كدح يومه الا عن رزق ذلك اليوم ، فاذا اراد ان يبنى عشه فى هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد . الام يقنع بالاحلام والتمنى وهو قابع هامد مغلول اليد والارادة ؟ لماذا لا يجرب حظه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون ؟! « فتاة طموح » هكذا يقول حسين ، وان كان هو لا يدرى شيئا على وجه التحقيق ، وربما كان حسين ادرى بها ، لانه ــ عباس ــ اعتاد أن يراها بعين الحب الحالمة الخالقة . واذا كانت فتاته طموحا فلا معدى له عن ان يكون طموحا كذلك . ولعل حسين يحسب غدا ــ وقد ابتسم هذا الخاطر ــ انه ايقظه من سباته ، وخلقه خلقا جديدا ، ولكنه يعلم دون الناس جميعا انه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شىء أن ينتزعه من قناعته الوديعة المستسلمة وشعر عباس فى هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب . ولعله احس ــ احساسا غامضا لا يرتقى لمرتبة الوعى والفكر ــ بقدرة الحب على الخلق والتعمير ، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والابداع والتجديد . ولذلك خلق الله الانسان محبا ، وترك مهمة تعمير الوجود أمانة

فى رعاية الحب . ولقد تساءل الفتى فى وجده وانفعاله لماذا لا يسافر ؟ ألم يعش فى هذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان ؟! فماذا افاده ؟ إنه زقاق لا يعدل بين اهله ، ولا يجزيهم على قدر حبهم له . وربما ابتسم لمن يتجهمه وتجهم لمن يبتسم له ، فهو يقطر عليه الرزق تقطيرا ، ويغدقه على السيد سليم غدقا ؛ وعلى كثب منه تتكدس رزم الأوراق المالية حتى ليكاد يشم عرفها الساحر ، فى حين ان راحته لا تقبض الا على ثمن الرغيف . فليكن سفر ، وليتغيرن وجه الحياة .

جرى فكره هذا الشوط البعيد ، ولبث واقفا امام دكانه ينظر الى عم كامل وقد مضى يغط غطيطا والمذبة فى حجره . ثم سمع وقع اقدام خفيفة آتيا من اعلى الزقاق ، فتحول اليه فرأى حسين كرشة عائدا فى خطوات واسعة . واستمر به الانفعال والقلق ، ونظر اليه كما ينظر المقامر الى كرة الروليت الدائرة ، حتى حاذاه واوشك ان يفوته ، فوضع يده على كتفه وقال له بقوة وعزم :

— حسين ، اريد أن أحدثك فى أمر هام .

٥

العصر ..

عاد الزقاق رويدا رويدا الى عالم الظلال : والتفت حميدة فى ملاءتها ، ومضت تستمع الى دقات شبشبها على السلم فى طريقها الى الخارج . وقطعت الزقاق فى عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أن اعينا تتبعها متفحصة ثاقبة ، عينى السيد سليم علوان صاحب الوكالة ، وعينى عباس الحلو الحلاق . ولم تكن تفاهة

ثيابها لتغيب عنها ، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رق نعلاه ، بيد أنها تلف الملاءة لفة تشي بحسن قوامها الرشيق ، وتصور عجيزتها الملمومة أحسن تصوير ، وتبرز ثدييها الكاعبين ، وتكشف عن نصف ساقيها المدملجتين ، ثم تنحسر في أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزى الفاتن القسمات . وكانت تتعمد الا تلوى على شيء فتنحدر من الصنادقية الى الغورية ثم الى السكة الجديدة فالموسكى ، حتى اذا غابت عن الأعين الثاقبة علت شفتيها ابتسامة وراحت تنهب الطريق الزاخر الغامر بعينيها الجميلتين . هى فتاة مقطوعة النسب ، معدمة اليد ، ولكنها لم تفقد قط روح الثقة والاطمئنان ، ربما كان لحسنها الملحوظ الفضل في بث هذه الروح القوية في طواياها ، ولكن حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده ، كانت بطبعها قوية ، لا يخذلها الشعور بالقوة لحظة من حياتها ، وكانت عيناها الجميلتان تنطقان احيانا بهذا الشعور نطقا يذهب بجمالها في رأى البعض ويضاعفه في رأى البعض الآخر . فلم تفتأ اسيرة لاحساس عنيف يتلهف على الغلبة والقهر ، يتبدى في حرصها على فتنة الرجال ، كما يتبدى في محاولتها التحكم في أمها ، ويتعرى في أسوأ مظاهره فيما يشتجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك ، حتى ابغضنها جميعا ، ورمينها بكل سوء ، وربما كان من أغرب مارميت به انها تبغض الأطفال ، وانها بالتالى متوحشة محرومة من نعمة الأنوثة ، وهذا ما جعل امرأة المعلم كرشة القهوجى — امها بالرضاعة — تتمنى على الله ان تراها اما ترضع الأطفال في كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويصبحها بالضرب ! مضت في سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية ، مرددة الطرف في معارض المتاجر المتعاقبة ، كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية ، فتثير في نفسها الطموح المتلهفة على القوة والسيطرة

احلاما ساحرة . ولذلك تركزت عبادتها للقوة فى حب المال على اعتبار انه المفتاح السحرى للدنيا ، المسخر لجميع قواها المذخورة . فجل ما كانت تعرفه عن نفسها انها تحلم بالمال ، المال الذى ياتى بالثياب وبكل ما تشتهيه الانفس . وعسى أن تتساءل : ايمكن يا ترى ان تبلغ يوما ما تتمنى ؟ ! لم تكن الحقائق لتغيب عنها . ومع ذلك فهى لا تنسى قصة فتاة من بنات الصنادقية ، كانت فقيرة فى الأصل مثلها ، ثم اسعفها الحظ بزوج ثرى من المقاولين فانتشلها من وهدتها ، ونقلها من حال الى حال . فماذا يمنع القصة أن تتكرر ، والحظ ان يبتسم مرتين فى هذا الحى ؟ ! ليست دون صاحبتها جمالا ، والحظ الذى لعب دوره فى حياة الاخرى يستطيع أن يعيده مرات ومرات دون عناء او خسارة . بيد ان هذا الطموح كان يضطرب فى دنيا ضيقة تنتهى عند حدود ميدان الملكة فريدة . لا يدرى عما وراءها شيئا ، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ ، ولا كم منهم يلقى خيرا وسعدا ، وكم منهم يتردد مثلها حائرا لا يعلم لنفسه مرسى . فعلى كثب من هذه المنطقة رأت صويحباتها من عاملات المشغل قادمات ، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع افكارها وابتسمت اساريرها . وسرعان ما سلمن واخذن فى تافه الاحاديث ، وهى تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين نافذة ، ذاهبة نفسها حسرات على ما يتمتعن به من حرية وجاه . اولئك فتيات صغيرات من اهل الدراسة ؛ خرجن بحكم ظروفهن الخاصة البائسة وظروف الحرب عامة عن تقاليدهن الموروثة ، واشتغلن بالمحال العامة مقتديات باليهوديات ، ذهبن اليها مكدودات هزيلات فقيرات ، وسرعان ما ادركهن تبدل وتغير فى ردح قصير من الزمن ، شبعن بعد جوع ، وكسين بعد عرى ، وامتلأن بعد هزال ، ومضين على اثر اليهوديات فى العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة ، ومنهن من يرطن بكلمات ، ولا يتورعن عن تابط

الاذرع والتخبط فى الشوارع الغرامية . تعلمن شيئا واقتحمن الحياة . اما هى فقد فوت عليها عمرها وجهلها ما يمرحن فيه من فرص . وها هى تتمسح بهن والحسرة ملء حناياها ، غابطة حياتهن المرهفة وثيابهن المزركشة وجيوبهن العامرة . كانت تضاحكهن فى صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها ، ثم لا تتردد عن نهشهن — ولو على سبيل الدعابة الساخرة — لاقل هفوة ، فهذه فستانها قصير معدوم الحياء ، وهذه ذوقها سقيم ، وتلك عيناها تزوغان من التحديق فى الرجال ، والرابعة كأنها نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها كالنمل ! كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردها الدائم ، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها فى يومها الطويل المفعم تبرما وعراكا ، لذلك قالت يوما لأمها وهى تتنهد :

— حياة اليهود هى الحياة حقا !

فانزعجت أمها وقالت :

— انك من نبع ابالسة ودمى برىء منك . .

فقالت الفتاة امعانا فى اغاظتها :

— الا يجوز ان اكون من صلب باشوات ولو على سبيل الحرام!

فهزت المرأة راسها ، وقالت ساخرة :

— رحم الله اباك بائع الدوم بمرجوش . .

سارت وسط صويحباتها تياهة بجمالها ، مدرعة بلسانها الطويل ، يلذها أن الأعين تمر بهن مر الكرام وتستقر عليها دونهن . ولما انتصف الموسكى او كاد لاحت منها التفاتة الى الطريق فرات عباس الحلو يسير متاخرا عنهن قليلا وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المالوفة . وتساءلت عما دعاه الى ترك دكانه فى هذه الساعة على غير عادة . هل تبعها عمدا ؟ الم يعد يقنع برسائل النظر ؟ . كان على فقره متانقا كاكثرية اهل فنه ، فلم يضايقها ظهوره . وقالت لنفسها : ان اية واحدة من صاحباتها لا تطمع فى زوج خير منه ،

كانت تجد نحوه شعورا غريبا معقدا . فهو من ناحية الشاب الوحيد فى الزقاق الذى يصلح لها زوجا ، وهى من ناحية اخرى تحلم بزوج على مثال المقاول الغنى الذى حظيت به جارتها فى الصنادقية ، فهى لا تحبه ولا تتمناه ، وفى الوقت نفسه لاتقطعه . ولعلها تسرها نظراته المشوقة ! . وكان من عادتها ان توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها الى الزقاق . فسارت بينهن وهى تسترق اليه النظر ، فلم تعد تشك فى انه يتبعها عامدا ، وأنه ينوى ان يخرج عن صمته أخيرا . ولم تخطىء ظنونها ، فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتى انحدر نحوها من الطوار ، وفى خطوات مضطربة ووجه ينطق بالانفعال ، وقاربها حتى حاذاها ، ثم قال بصوت متهدج :

— مساء الخير يا حميدة .

فالتفتت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغتت بظهوره مباغتة . ثم قطبت واوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة ، فتورد وجهه . ولكنه عاد يقول بصوت ينم عن العتاب :

— مساء الخير يا حميدة .

وخافت ان هى لازمت الصمت مع هذا الخطو الحثيث أن ينتهيا الى الميدان المأهول قبل ان يقول ما يريد ، وكانت راغبة فى سماعه ، فقالت فى لهجة تنطق بالاستياء :

— يا للعار ! جار وتفعل كالغريب !

فقال عباس بلهفة :

— بل جار حقا ، ولا افعل كالغريب ، احرام على الجار أن يتكلم ؟

فقالت عابسة :

— نعم الجار يحمى جارته ، لا ان يهاجمها ..

فقال الشاب بصدق حار :

ــ انا جار واعلم واجبات الجار . ولم يخطر ببالي قط أن اهاجمك ــ لا سمح الله ــ بيد انى أريد ان أحدثك ، ولا عيب أن يحدث الجار جارته . .

ــ كيف تقول هذا ؟ ! أليس من العيب أن تتعرض لي في الطريق ، وتعرضني للفضيحة ؟ . .

فهاله قولها . وقال بأسف :

ــ الفضيحة ؟ . . معاذ الله يا حميدة . صدرى طاهر ، ولا يكن لك الا الطهر وحياة الحسين ، وستعلمين ان كل شيء سينتهي بما يأمر به الله لا بالفضيحة ، فاصغي الى قليلا ، أريد ان احدثك عن أمر هام . ميلى بنا الى شارع الأزهر بعيدا عن أعين الذين يعرفوننا . .

فقالت باستياء متصنع :

ــ بعيدا عن اعين الناس ؟ ! ما شاء الله ! . دمت من جار طيب حقا !

وكان قد تشجع بمنازعتها اياه الحديث ، فقال بحرارة :

ــ ما ذنب الجار ؟ ! . . اموت قبل ان ينوح بذات نفسه !

فقالت بسخرية :

ــ ما اطهر كلامك . .

فقال عباس بلهفة وشت باشفاقه من اقتراب الميدان المأهول :

ــ طاهر النية وسيدنا الحسين . لا تسرعى هكذا يا حميدة . ميلى بنا الى شارع الأزهر . اريد ان اقول لك كلمة هامة . ينبغى أن تصغى الى . انت تعلمين ولا شك بما اريد قوله . الا تعلمين ؟ الا تشعرين ؟ قلب المؤمن دليله . .

فقالت كالغاضبة :

ــ لقد جاوزت حدك . كلا . كلا . . دعنى . . .

ــ حميدة . . انا اريد أن . . انا اريدك . . .

ــ يا للعار . دعنى والا فضحتنى امام الخلق .

وكانا قد بلغا ميدان الحسين ، فمرقت من جانبه الى الطوار الأيسر وحثت خطاها على عجل ، ثم انعطفت الى الغورية وهى تبتسم ابتسامة خفيفة . كانت تعلم ما يريد قوله كما قال ، ولم تنس أنه الفتى الوحيد الصالح لها فى الزقاق ، وقد قرأت فى عينيه البارزتين آى الحب كما قرأتها مرارا من نافذتها فى الماضى القريب ، ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجامد الجحود ؟ أما حالته المالية التى تعلم عنها الشىء الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها ساكنا ، وأما شخصه فوديع تنم عيناه عن القناعة والخضوع ، مما يجعله خليقا بأن يرتاح اليه فؤادها المغرم بالسيطرة ، بيد أنها وجدت نحوه ــ رغم ذلك ــ نفورا لم تدر له سببا ، ماذا تريد ماذا ؟ ومن يرضيها اذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب؟! لم تهتد لجواب بطبيعة الحال ، وقد عزت نفورها منه الى فقره !. والظاهر ان حبها السيطرة كان تابعا لحبها العراك لا العكس ، فلم تهش للمسألة ، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال . وكان قلبها ما يزال فى غفوته لم يستبين بعد رغائبه ، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة وقلقا .

ونكص عباس الحلو عن ملاحقتها خيفة الأعين ، فتراجع مفعم الفؤاد خيبة وحسرة ، ولكنه كان ابعد ما يكون عن اليأس . قال لنفسه وهو يسير متمهلا غافلا عما حوله : انها بادلته الكلام طويلا ، ولو قصدت صده ونبذه ما منعها مانع ولا أعيتها الحيلة ، فهى لا تكرهه ، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعا ، ولعله الحياء الذى جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار . فكان ابعد الناس عن اليأس ، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل ويتوثب للكرة التالية . وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل . كان محبا صادقا ملتهب العاطفة ، وكان يشعر حيال

نظراتها النافذة الجميلة بخضوع كلى ، ولذة لا حد لها ، وحب لا يبيد . أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعا بالنساء عامة ؛ ولكنه كان كالحمام يحلق فى السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع فى النهاية على برجه ملبيا صفير صاحبه ؛ فهى دون النساء جميعا أمله المنشود . أجل لم تعد مخاطرته خائبة ؛ وتفتحت له اكمام الاجلام عن زهر الآمال ، فعاد منتشيا مسرورا فرحا بحبه وبشبابه . ولما عرج الى الصنادقية صادف الشيخ درويش قادما من ناحية الحسين ؛ فالتقيا عند مطلع الزقاق ، واقبل على الشيخ يريد أن يصافحه تبركا . ولكن الشيخ أشار نحوه بسبابته محذرا ، وحملق فى وجهه بعينيه الذابلتين وراء نظارته الذهبية وقال :

— لا تمش بلا طربوش ! احذر تعرى راسك فى مثل هذا الجو فى مثل هذه الدنيا . فمخ الفتى يتبخر ويطير ، وهذا أمر معروف فى المأساة ، ومعناه بالانجليزية Tragedy وتهجيتها T r a g e d y

٦

وكان المعلم كرشة قد شغل بامر هام ، ومن النادر ان ينصرم عام من حياته دون ان يشغل نفسه بمثل هذا الامر ، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص . بيد أنه كان رجلا مسلوب الارادة ، لم يترك له الحشيش من ارادته نفعا . ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف فى حكم الفقراء ، لا لأن تجارته غير نافقة ، ولكن لأنه كان مبذرا — فى غير بيته — يبعثر ما يربحه ، وينثر المال بلا حساب ، جاريا وراء شهواته ، خصوصا هذا الداء الوبيل .

وعندما آذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبىء شنقر عن طيته ، مرتديا عباءته السوداء ، متوكئا على عصاه الغجراء ، ينقل على مهل خطواته الثقيلة ! ولا تكاد تدل عيناه الظلمتان المختفيان تقريبا وراء جفنيه الغليظين على انه يحسن رؤية طريقه . وكان قلبه يخفق ! والقلب يخفق ولو شارف شاخيه الخمسين . ومن عجب انالمعلم كرشة قد عاش عمره فى احضان الحياة الشاذة ، حتى خال لطول تمرغه فى ترابها انها الحياة الطبيعية . هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام ، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ ، واستسلامه لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه . بل انه ليظلم الحكومة فى تعقبها لأمثاله ، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مثارا للازدراء والاحتقار ، فيقول عن الحكومة : « انها تحلل الخمر التى حرمها الله ، وتحرم الحشيش الذى اباحه ! وترعى الحانات الناشرة للسموم ، فى حين تكبس « الغرز » وهى طب النفوس والعقول . وربما هز راسه آسفا وقال : « ماله الحشيش » ! « راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدر للنسل ! » واما عن شهوته الاخرى فيقول بقحته المعهودة : « لكم دينكم ولى دين! » ولكن ايلافه شهواته لا يمنع من ان يخفق قلبه كل مطلع هوى جديد . وقد سار متمهلا فى الغورية ومستسلما لخواطره ، يتساءل والأمل ملء فؤاده : « ماذا يا ترى وراءك ايها المساء ؟ » وعلى رغم انهماكه فى خواطره كان يحس بالدكاكين على الصفين اختناسا غامضا ، ويرد بين الفينة والفينة تحيات بعض أصحابها من معارفه . وكان يسىء الظن بهذه التحيات وأمثالها ، ولا يدرى ان كانت لمحض السلام أم ان وراءها ما وراءها من الغمز واللمز .. فالناس لا يريحون ، ولا يستريحون ، ويتلقفون المثالب بافواه نهمة جشعة .. وطالما قالوا فيه واعادوا ،

فماذا افادهم التشهير ؟ لا شيء ! وكأنه ولع بتجريبهم، فراح يجهر بما كان يسره . وهكذا مضى فى سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلى الأزهر . فاشتد خفقان قلبه وتناسي تحيات الناس التى أثارت سوء ظنه . وانبعث من عينيه المنطفئتين نور خافت شرير . وراح يرنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلية . وجاز عتبته . دكان صغير يجلس فى صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير . ويستند الى احد رفوفه المكدسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع . ما ان رأى القادم حتى استقام ظهره . وتلقاه بابتسامة البائع اللبق . وارتفع الجفنان الثقيلان لأول مرة واستقرت العينان على الشاب . ثم حيا برقة . ورد الشاب التحية فى لطف ، وقد ادرك لأول وهلة أنه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة فى ثلاثة أيام متتابعات . وقد تساءل : لماذا لا يبتاع ما يريده مرة واحدة؟!

وقال المعلم :

— ارنى ما عندك من جوارب . .

فأحضر الشاب انواعا منها وبسطها على « طاولة » المحل ، واخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر الى وجه الشـــاب ، والشاب لا يخفى أمره عليه . وقد دارى ابتسامة كادت ترتسم على ثغره . وتعمد أن يطيل الفحص والتقصى ، ثم قال للشاب بصوت منخفض :

— لا تؤاخذنى يا بنى فبصرى ضعيف . هلا اخترت لى لونا مناسبا بذوقك الجميل . .

وسكت لحظات يتفرس فى وجهه ، ثم اردف وهو يرسم ابتسامة على شفتيه المتدلية :

— كوجهك الجميل . .

فأراه الشاب الجميل نوعا متجاهلا اطراءه ، فاستدرك الرجل قائلا :

— لف لى ستة ..

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب ، ثم قال :

— الأفضل أن تلف لى اثنى عشر .. انا رجل لا ينقصنى المال والحمد لله ! !

ولف الشاب له ما أراد صامتا ، ثم غمغم وهو يناوله اللفيفة :

— مبارك ..

فابتسم المُعلم كرشة ، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آلية قصيرة يرافقها اضطراب خفيف فى جفنه ، وقال بخبث :

— شكرا لك يا بنى (ثم بصوت منخفض) الحمد لله !

وغادر الدكان بعد أداء الثمن منفعلا كما دخله . واتجه نحو شارع الأزهر ، ثم عبره مهرولا الى الناحية الأخرى . ووقف لصق شجرة فى مقابل الدكان مستظلا بالظلمة الآخذة فى الانتشار . وقف يدا متوكئة على العصا ويدا قابضة على اللفيفة ، وعيناه لا تتحولان عن الدكان من بعيد . كان الشاب بموقفه حين دخل الدكان وقد شبك ذراعيه على صدره ، فجعل ينظر نحوه ، لا يكاد يرى منه الا صورة غامضة المعالم ، ولكن ذاكرته وخياله اسعفاه بما لم يسعفه به البصر الكليل : وراح يقول لنفسه : « أدرك المراد بلا ريب! » ثم ذكر كيف كان رقيقا لطيفا مؤدبا . ورجعت أذناه صوته وهو يغمغم : «مبارك» فاثلج صدره وتنهد من الاعماق . ولبث فى مكانه سويعة مضطرما بالقلق والتوتر ، حتى راى الدكان يغلق ابوابه ، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذى اتجه صوب الصاغة ، والشاب الذى سار نحو شارع الأزهر . ابتعد المعلم عن الشجرة رويدا ، وسار فى الاتجاه الذى يتسمته الشاب . فرآه هذا بعد أن عبر ثلثى الطريق ، ولكنه لم يبد اهتماما ، وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلم وقال برقة :

— مساء الخير يا بنى .

فنظر الشاب وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم :

ــ مساء الخير يا سيدى .

فساله لمحض الرغبة فى مجاذبته الحديث :

ــ اغلقت الدكان ؟

ولاحظ الشاب أن الرجل يتثاقل كأنما يدعوه الى التريث ، ولكنه ثابر على مشيته وهو يقول :

ــ أجل يا سيدى .

فاضطر الرجل الى مسايرته ، فسارا معا على الطوار والمعلم لا يحول عنه راسه ، ثم قال :

ــ ساعات عملك طويلة ، كان الله فى عونك .

فنفخ الشاب قائلا :

ــ ما الحيلة ؟ أكل العيش يحب التعب ..

فسر المعلم باقبال الفتى على محادثته ، واستبشر خيرا برفقنه وقال :

ــ رزقك الله بتعبك يا بنى ..

ــ اشكر لك يا سيدى .

فقال الرجل بحماسة :

ــ تعب كلها الحياة حقا . ولكن من النادر جدا أن ينال التعب الجزاء الذى يستحقه ، فما اكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا .

فشد هذا الكلام على وتر حساس فى قلب الفتى وقال بتبرم :

ــ صدقت يا سيدى ، ما اكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا ..

ــ الصبر مفتاح الفرج . أجل ما اكثر المظلومين ، ومعنى هذا بالحرف الواحد ما اكثر الظالمين . ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من رحماء كذلك ..

فتساءل الفتى :

— أين هؤلاء الزخماء ؟

وكاد يجيبه : « هأنذا واحدا منهم » ، ولكنه امسك عن ذلك ، وقال بلهجة العاتب :

— لا تكن متشائما يا بنى فامة محمد بخير ، (ثم غير لهجته قائلا) : علام تسرع ؟ امستعجل انت ؟؟

— ينبغى ان أذهب الى البيت لأغير ملابسى .

فسأله باهتمام :

— وبعد ذلك ؟

— انطلق للقهوة .

— أية قهوة ؟

— قهوة رمضان .

فابتسم المعلم ابتسامته الآلية حتى لمعت اسنانه الذهبية فى الظلمة ، وتساءل فى اغراء :

— لماذا لا تشرف قهوتنا ؟

— أية قهوة يا سيدى .. ؟ ..

فاخشوشن صوت المعلم وهو يقول :

— قهوة كرشة بالمدق ، محسوبك المعلم كرشة !

فقال الفتى بامتنان :

— تشرفنا يا معلم ، هذه قهوة ذائعة الصيت ..

فسر المعلم ، وسأله بلهجة تشى بالرجاء :

— اتأتى ؟

— ان شاء الله ..

فقال المعلم كمن نفد صبره :

— كل شىء بمشيئة الله . ولكن أتنوى الحضور حقا ام تقول ذلك تملصا منى ؟

فضحك الشاب ضحكة رقيقة وقال :

ـ بل انوى الحضور حقا . .

ـ الليلة اذا !

ولما لم ينبس الفتى بكلمة ، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طربا :

ـ لا بد . .

فغمغم الشاب :

ـ باذن الله . .

فتنهد الرجل بصوت مسموع ثم سأله :

ـ أين تقيم ؟

ـ عطفة الوكالة . .

ـ نحن جيران تقريبا . متزوج ؟

ـ كلا . . مع أهلى . .

فقال برقة :

ـ انت ابن ناس طيبين كما يبدو لى ، الاناء الطيب ينضح ماء طيبا . وينبغى أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام ، اذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملا بسيطا فى دكان . .

فلاح الاهتمام والطموح فى الوجه الجميل ، وتساءل الشاب فى خبث :

ـ وهل لمثلى ان يطمع فى أكثر من هذا ؟ !

فقال المعلم كرشة باستهانة :

ـ هل نسيت « بنا » الخيل ! ألم يكن جميع الكبار صغارا ؟

ـ بلى كانوا ، ولكن ليس من المحتم أن ينقلب الصغير كبيرا .

فأردف المعلم يتم كلام الفتى :

ـ الا اذا صادفه التوفيق ! فلنذكر هذا اليوم الذى تعارفنا فيه على انه يوم توفيق عظيم . أنتظرك الليلة ؟ !

فتردد الفتى قليلا ، ثم قال مبتسما :

ـ لا يأبى الكرامة الا لئيم !..

وتصافحا عند بوابة المتولى ، ثم رجع المعلم يخبط فى الظلماء. صحا الرجل الداهل وسرى فى صدره دفء السرور . ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التى يغط فيها الا اذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة . ومر فى طريقه بالدكان المغلق فالقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق . وعاد الى الزقاق وقد اغلقت دكاكينه ، وكادت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة . وكان جو القهوة على خلاف الجو البارد فى الخارج ـ دافئا يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج « النصبة » ، وقد تربع الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويحتسون الشاى والقهوة ، والراديو يذيع ما فى جوفه فلا يلقى الا الاعراض والاهمال كأنه خطيب ثقيل يخطب صما ، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصياح . مضى المعلم الى مجلسه وراء صندوق الماركات فى هدوء بالغ متحاميا الأنظار . واتفق عند حضوره أن كان عم كامل يسأل اصحابه ان يقنعوا عباس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به ، ولكنهم ابوا عليه ذلك وانكروا غرضه ، وقال له الدكتور البوشى :

ـ لا تفرط فى كسوة الآخرة . ان الانسان ليعيش كثيرا فى دنياه عاريا ، اما عتبة القبر فلا يمكن ان يجوزها عاريا مهما كان فقره ..

وتكرر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة بالرفض والسخرية ، حتى كف الرجل يائسا ، وراح الحلو بعد ذلك يعلن للاخوان ما اعتزم من العمل فى الجيش البريطانى . ويستمع الى آرائهم ونصائحهم ؛ وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه ، وتمنوا له النجاح والثراء . وكان السيد رضوان الحسينى منهمكا فى حديث طويل من أحاديثه المليئة بالوعظ والارشاد ، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول :

ـــ . . فلا تقل مللت ! الملل كفر . الملل مرض يعتور الايمان . وهل معناه الا الضيق بالحياة ؟! ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى ، فكيف لمؤمن ان يملها او يضيق بها ! ستقول ضقت بكيت وكيت ، فاسالك من اين جاءت كيت وكيت هذه ؟ أليس من الله ذى الجلال ؟ فعالج الأمور بالحسنى ، ولا تتمرد على صنع الخالق . لكل حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها ، بيد أن مرارة النفس الأمارة بالسوء تفسد الطعوم الشهية . صدقنى ان للألم غبطته ولليأس لذته وللموت عظته ، فكل شيء جميل وكل شيء لذيذ ! كيف نضجر ، وللسماء هذه الزرقة ، وللأرض هذه الخضرة ، وللورد هذا الشذا ، وللقلب هذه القدرة العجيبة على الحب ، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الايمان . كيف نضجر وفى الدنيا من نحبهم ، ومن نعجب بهم ، ومن يحبوننا ، ومن يعجبون بنا . استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت .

وحسا حسوة من قدح القرفة ، ثم أردف وكأنه يعبر عن خلجات ضميره :

ـــ أما المصائب فلنصمد لها بالحب ، وسنقهرها به . الحب اشفى علاج . وفى مطاوى المصاب تكمن السعادة كفصوص الماس فى بطون المناجم الصخرية ، فلنلقن انفسنا حكمة الحب .

كان وجهه الأبيض الوردى يفيض بشرا ونورا ، تحيط به لحيته الصهباء احاطة الهالة بالقمر . وكان كل شيء حوله يلوح بالقياس الى طمانينته الراسخة قلقا مضطربا . وكان نور عينيه صافيا نقيا ينطق بالايمان والخير والحب والترفع عن الأغراض . وربما قيل انه رجل خسر الجاه يوم اخفق فى دراسته الأزهرية وانه آيس من خلود الدنيا حين ثكل الأبناء ففزعت نفسه الى تعويض خسرانها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب والجود ! ولكن كم من المصابين مثله من سلك سبيله ، وكم منهم من

سقط فريسة الجنون ، وكم منهم من صب جام غضبه على الدنيا والدين ؟! ومهما يكن امر نفسه الخافية فما من شك فى اخلاصه ، كان مؤمنا صادقا ، ومحبا صادقا ، وجوادا صادقا . ومن عجيب ان يكون هذا الرجل ــ الذى طار صيته فى الخير والحب والجود كل مطار ــ حازما حاسما وعلى فظاظة وحرس فى بيته ! ربما قيل انه وقد آيس من كل سلطان حقيقى فى هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذى يذعن لارادته ، الا وهو زوجه ! وانه يشبع شهوته الجائعة للنفـوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها . ولكن ينبغى الا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان ، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها ، وما تراه اكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقا لسعادتها هى نفسها قبل كل شيء على ان زوجه نفسها لم يبدر لديها ما يشكوه نحوه ، ولولا الجروح التى تركها الابناء تذكارا خالدا فى قلبها ، لعدت نفسها امرأة سعيدة ، فخورا بزوجها وحياتها .

أما المعلم كرشة فكان حاضرا غائبا ، لم يطمئن به المجلس لحظة واحدة ، وعانى مرارة الانتظار فى صمت كيب . ولما مرت دقائق لوى عنقه واشرأب به نحو مطلع الزقاق ، ثم يعود الى صندوق الماركات متصبرا متجلدا قائلا لنفسه : « سيأتى حتما ، سيأتى كما اتى اخـوان له من قبل .. » ، وتمل له وجهه ، ثم نظر الى الكرسى القائم بينه وبين اريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئن اليه . لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد من امثال هذا الشاب الى قهوته تسترا وخياء ، ثم افتضح أمره ، وذاعت فضيحته ، فكشف وجهه وارتاد الاثم جهارا . وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسى ما يبقى حديثا فاضحا تتناقله الالسن ، ويتلقفه بشغف امثال الدكتور بوشى وام حميدة ، ولكنه لم يعبأ شيئا . وما تكاد النار تخمد الى

حين حتى يصب عليها نفطا بسوء سيرته فيضرمها ضراما ، وكأنه وجد اخيرا فى الجهر لذة فلهج بها . وهكذا جلس قلقا لا تعرف السكينة سبيلا الى نفسه الملوثة . كأنه يجلس على مشواة ، يكاد ينبرى عنقه من كثرة ليه ، حتى لاحظ الدكتور بوشى اضطرابه وقال للحلو فى خبث :

— هذه علامات الساعة !.

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة ، وانشد يقول :

حننت الى ريا ونفسك باعدت
مزارك من ريا وشعباكما معا
فما حسن ان تأتى الامر طائعا
وتجزع أن داعى الصبابة اسمعا

اه يا ست . الحب يساوى الملايين . انفقت فى حبك يا ست مائة الف جنيه ، وانه لقدر زهيد .

***

واخيرا راى الدكتور بوشى المعلم كرشة يحدق باهتمام شديد فى مطلع الزقاق ، وراه يستوى جالسا وقد ابتسمت أساريره ، فنظر الى مدخل القهوة مترقبا ، وما لبث ان طالعه وجه الشاب ، وقد القى على السمار نظرة التردد من عينيه الناجيتين .

٧

يقع الفرن فيما يلى قهوة كرشة ، لصق بيت الست سنية عفيفى ، بناء مربع على وجه التقريب ، غير منتظم الاضلاع ، تحتل الفرن جانبه الأيسر ، وتشغل الرفوف جدرانه ، وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبا الدار : المعلمة حسنية وزوجها جعدة . وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن . وفى الجدار المواجه للمدخل يرى باب خشبى قصير يفتح على خرابة ، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة ، اذ ليس بها الا كوة فى الجدار المواجه للمدخل تطل على فناء بيت قديم . وعلى بعد ذراع من الكوة ، وعلى رف ممتد ، مصباح يشتعل ، يلقى على المكان ضوءا خفيفا يفضح ارضه المتربة المغطاة بانواع لا يحصيها العد من القاذورات المتنوعة ؛ كأنها مزبلة . أما الرف الذى يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وادوات مختلفة واربطة كثيرة ، كانه رف صيدلى لولا قذارته النادرة . وعلى الأرض - تحت الكوة مباشرة - كان يوجد شىء مكوم لا يفترق عن ارض المكان قذارة ولونا ورائحة لولا اعضاء ولحم ودم تهبه الحق - على رغم كل شىء - فى لقب انسان ؟ ذلك هو زيطة مستأجر هذه الخرابة من المعلمة حسنية الفرانة وحسبه أن يرى مرة واحدة كيلا ينسى بعد ذلك أبدا ، لبساطته المتناهية ، فهو جسد نحيل أسود ، وجلباب أسود ، سواد فوقه سواد ، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان . ولم يكن زيطة - على ذلك - زنجيا ، بل انه مصرى أسمر اللون فى الأصل . ولكن القذارة الملبدة بعرق

العمر كونت على جثته طبقة سوداء ؛ كذلك جلبابه لم يكن فى البدء اسود ، ولكن السواد مصير كل شيء فى هذه الخرابة . وهو لا يكاد يمت بسبب للزقاق الذى يعيش فيه ، فلا يزور ولا يزار ، لا نفع فيه لأحد ولا نفع فى احد له ، اللهم الا الدكتور بوشى ، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف اطفالهم ، اما صناعته فمعروفة لدى الجميع ، وهى صناعة تخول له لقب دكتور وان لم يتخذه اكراما لبوشى . كان يصنع العاهات ، ليست هذه العاهات الطبيعية المعروفة ، ولكن عاهات صناعية من نوع جديد . يقصده الراغبون فى احتراف الشحاذة . فبفنه العجيب — الذى يحشد ادواته على الرف — يصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات . يجيئونه صحاحا ويغادرونه عميانا وكسحانا واحدابا وقصانا ومبتورى الأذرع او الأرجل ، وقد اكتسب البراعة فى فنه من تجارب الحياة التى صادفته ، وعلى راسها جميعا اشتغاله عهدا طويلا فى سرك متجول ، ولاتصاله بأوساط الشحاذين — اتصالا يرجع عهده الى صباه حين كان يعيش فى كنف والدين شحاذين — فكر فى تطبيق فن « المكياج » الذى تلقنه فى السرك على بعض الشحاذين ، فى بادىء الأمر على سبيل الهواية ، ثم على سبيل الاحتراف حين ضاقت به اوجه العيش . ومن مشاق عمله انه يبدا فى الليل ، او عند منتصف الليل على الأصح ، ولكنها مشقة غدت بالعادة مالوفة ميسرة . اما فى اثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال ، يجلس القرفصاء ياكل او يدخن ، او يتسلى بالتجسس على الفرن والفرانة ، ولكم كان يلذه ان يسترق السمع لما يدور بينهما من حديث ؛ او ان يشاهد من ثقب الباب انهيال المراة بالضرب على زوجها صباح مساء ، حتى اذا اتى الليل رآهما وقد شملهما الصفاء واقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتباسطه السمر . وكان زيطة يمقت جعدة ويحتقره ويستقبح

وجهه ! وفضلا عن ذلك كله كان يحسده على ما حباه الله به من زوج «كاملة الجسم» او على حد تعبيره «امراة بقرى !» . وكان كثيرا ما يقول عنها انها فى دنيا النساء تقابل عم كامل فى دنيا الرجال !. وكان من اهم الأسباب التى دعت أهل الزقاق الى تجنبه رائحته المنتنة ، فلم يكن الماء يعرف سبيلا الى وجهه أو جسده . وقد آثر وحشة العزلة على الاستحمام ! وبادل الناس مقتا بمقت عن طيب خاطر ، فكان يرقص طربا اذا قرع مسمعية صوات على ميت ، ويقول وكأنه يخاطب الميت : « جاء دورك لتذوق التراب الذى يؤذيك لونه ورائحته على جسدى ! » . وربما قطع وقته فراغه الطويل فى تخيل صنوف التعذيب التى يتمناها للناس واجدا فى ذلك لذة لا تعادلها لذة ، يتصور جعدة الفران هدفا لعشرات الفؤوس تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة كلها ثقوب !.. او يتخيل السيد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويجيء ودمه يجرى نحو الصنادقية .. أو يتمثل له السيد رضوان الحسينى تجره الايدى من لحيته الصهباء نحو الفرن الملتهبة ثم يستخرجونه منها زكيبة من الفحم .. أو يرى المعلم كرشة مطروحا تحت عجلات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه فى مقطف قذر يبيعونه لهواة الكلاب .. وغير هذا كثير مما يراه دون ما يستحق الناس . وكان اذا باشر عمله واخذ فى صنع العاهة لطالبها ، اشتد عليه فى قسوة مقصودة مستخفيا وراء سر المهنة ، حتى اذا ندت التأوهات عن فريسته لمعت عيناه المخيفتان بنور جنونى . ومع ذلك كان الشحاذون احب البشر الى نفسه ، وتمنى كثيرا لو كان الشحاذون اكثرية اهل الأرض .

***

هكذا جلس زيطة غارقا فى اخيلته يترقب وقت العمل ، وعندما انتصف الليل او كاد نهض قائما ، ونفخ المصباح فانطفأ وساد ظلام ثقيل . ثم تلمس طريقه الى الباب وفتحه فى هدوء بالغ ، ثم اخترق الفرن الى الزقاق . والتقى فى سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة ، وكثيرا ما يلتقيان فى منتصف الليل دون ان يتبادلا كلمة واحدة ، ولذلك كان للشيخ حظ موفور فى محكمة التفتيش التى ينصبها زيطة فى خياله للبشر . وانعطف صانع العاهات الى سيدنا الحسين فى خطوات قصيرة وئيدة ، وكان يقترب فى سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الحالكة — كانت بعض قيود الاضاءة ما تزال موجودة — فلا يراه المقبل نحوه فى الطريق حتى يصطدم بعينيه البراقتين تلمعان فى الظلام لمعان القطعة المعدنية فى حزام الشرطى . وفى الطريق ، يداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور ، فهو لا يشقه الا حين يكاد ينقطع الا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة . وشق ميدان الحسين منعطفا صوب الباب الأخضر فبلغ القبو القديم ، وجعل يردد عينيه المخيفتين بين اكوام الشحاذين على جانبيه ، فملأه الارتياح .. ارتياح السيد الى قوته ، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة . ودنا من أقرب الشحاذين اليه ، وكان جالسا القرفصاء معتمدا راسه على ركبتيه ويغط غطيطا ، فوقف حياله لحظة متفرسا كأنما ليسبر نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم ، ثم ركله فى راسه الأشعث ، فانتبه الرجل من نومه — غير مذعور — كأنما ايقظته انامل ناعمة ، ورفع رأسه متثاقلا وهو يحك جنبيه وظهره وراسه باظافره . فوقع بصره على الشبح المشرف عليه ، وحملق فيه لحظة ، فعرفه — على عماه — لأول وهلة . وتنهد الرجل فند عن صدره صوت كالوحوحة ، ثم دس يده فى صدره واستخرج مليما غمز به كف الرجل . وانتقل

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له ، فتظاهر بالاذعان مرغما ، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حيالهما متفرسا فى اناة وهدوء . ثم ثبتت عيناه على اطولهما . كان عملاقا قويا فدهش زيطة لمنظره وساله :

— انت بغل بلا زيادة ولا نقصان ، فلماذا تروم احتراف الشحاذة ؟ ! .

فقال الرجل بصوت منكسر :

— لم افلح فى عمل أبدا . حاولت اعمالا كثيرة ، حتى الشحاذة نفسها ولكن لم يقدر لى التوفيق ، حظى اسود ، وعقلى وسخ ، لا أفهم شيئا ولا اتقن شيئا .

فقال زيطة بحقد :

— كان ينبغى اذن ان تولد غنيا .

ولم يفطن الرجل لمرماه ، وراح يستعطفه بتصنع البكاء قائلا بصوت كالخوار :

— اخفقت فى كل شىء . حتى الشحاذة لم تجذب لى رحيما واحدا . كل الناس يقولون : انت قوى ويجب ان تشتغل ، هذا اذا لم يشتموني وينهروني . لا ادرى لماذا ؟.

فقال زيطة وهو يدلك راسه :

— يا سلام . حتى هذا لا تدركه .

— الله يخليك ويجبر بخاطرك .

وكان زيطة لا يكف عن فحصه متفكرا ، فقال بحزم وهو يغمز اعضاءه :

— انت قوى حقا . اعضاؤك سليمة . انى اعجب ماذا تاكل ؟

— الخبز اذا وجد ولا شىء غيره .

— هذا جسم شيطانى بلا ريب . ترى ماذا تكون لو اكلت كما تاكل حيوانات الله التى يؤثرها بخيره ونعمته ؟ !

فقال الرجل ببساطة :

ــ لا ادرى ؟..

ــ طبعا طبعا .. انت لا تدرى شيئا . فهمنا هذا . وخير ما فعلت ، فلو كنت تدرى لانقلبت واحدا منا . اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه اعضائك .

ولاح الانقباض فى الوجه الثور ، واوشك ان ينبأى ثورة اخرى لولا أن بادر زيطة قائلا :

ــ عسير جدا آن اكسر لك رجلا أو ذراعا ، ومهما صنعت بك فلن تستثير عطف احد . ان البغال أمثالك يثيرون الحنق اينما يحلون . ولكن لا تيأس (كان الدكتور بوشى ينتظر هذه العبارة بصبر نافد) فهنالك طرق شتى ، اعلمك فن العته مثلا : وأنت لا ينقصك منه شيء ذو بال ، اجل العته . واحفظك بعضا من مدائح الرسول .

فتهلل وجه الرجل ودعا له كثيرا ، حتى قاطعه زيطة متسائلا :

ــ لماذا لم تشتغل قطاع طرق ؟.

فقال الرجل بانكسار :

ــ أنا رجل طيب مسكين ، لا اقصد انسانا بسوء . واحب آل البيت .

فقال زيطة باحتقار :

ــ أتبدؤنى انا بهذه البوليتيكا ؟..

ثم التفت الى الرجل الآخر ، كان قصيرا هزيلا . فقال زيطة بارتياح :

ــ استعداد طيب .

فابتسمت أسارير الرجل ، وقال ممتنا شاكرا :

ــ الحمد لله كثيرا .

ــ خلقت لتكون أعمى مقعدا .

فقال الرجل بسرور :

ــ هذا من فضل ربى .

فهز زيطة راسه وقال ببطء :

ــ العمليــة دقيقــة وخطيرة . دعنى اســالك عن اســوأ الاحتمالات . هبك فقــدت بصرك حقيقة عن خطا او اهمــال ، فماذا تفعل ؟ .

فتردد الرجل لحظة ، ثم قال بغير مبالاة :

ــ نعمة من الله ! وهل افدت من بصرى شيئا حتى آسف على ضياعه ؟ .

فقال زيطة بارتياح :

ــ بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقا .

ــ باذن الله يا سيدى . ستكون روحى ملك يدك . سأنزل لك عن نصف ما يجود به المحسنون .

فحدجه زيطة بنظرة قاسية وقال بحدة :

ــ هذا كلام لا يجوز على ، حسبى مليمين غير اجر العملية ، وانى أعرف كيف استخلص حقى اذا سولت لك نفسك المماطلة .

وهنا قال البوشي محذرا :

ــ لم تذكر نصيبك من الخبز .

فاستدرك زيطة قائلا :

ــ طبعا .. طبعا .. والآن فلنشرع فى العمــل . العملية شاقة . ولسوف تمتحن قوة احتمالك . فاكتم الألم ما استطعت الى ذلك سبيلا .

وتصور ما سوف يكابده هذا الجسم النحيل الهزيل من هرس يديه القاســيتين ! فارتسمت على شفتيه الباهتتين ابتســامة شيطانية .

٨

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع فى الزقاق طول النهار ، وعمال كثيرون لا يكفون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصيرة ، وسيل من البضائع الواردة والصادرة يطرد فى تتابع متواصل ، وعدد من سيارات العمل الضخمة يجعجع ازيزها فيطبق على الصنادقية وما يتاخمها من الغورية والأزهر ، وتيار زاخر من الزبائن والعملاء . هى وكالة عطارة بالجملة والتجزئة ، وليس من شك فى ان انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد احدث فى سوقها أثرا ملحوظا ، ولكن الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها ، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها . وفضلا عن هذا وذاك فقد اغرت ظروف الحرب السيد سليم بالاتجار بمواد لم يكن يلقى اليها بالا كالشاى ، فغامر فى السوق السوداء ، وربح أرباحا طائلة . وكان السيد سليم علوان يجلس الى مكتبه الضخم فى نهاية الردهة الموصلة الى فناء الوكالة الداخلى الذى تحدق به المخازن ، وهو مركز وسط يستطيع ان يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها ، وييسر له مراقبة العمال والحمالين والزبالين جميعا . لذلك كله فضل هذا المركز على الانفراد فى حجرة كما يفعل اقرانه من كبار التجار ، ولأن التاجر الحق - على حد تعبيره - « ينبغى أن يكون مفتوح العينين دائما ». وكان الرجل فى الواقع من النماذج العملية الموفقة ، خبيرا فى مهنته ، قادرا على النهوض باعبائها . ولم يكن من حديثى النعمة الذين أنجبتهم الحرب ، لأنه على حد تعبيره أيضا : « تاجر ابن تاجر » ، بيد انه لم يكن فى البدء معدودا من الأغنياء ، ثم خاضت تجارته

غمار الحرب الاولى وخرجت ظافرة ، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتى اتخمتها بالثراء . على ان الرجل لم يخل من الهموم ، وبحسبه أن يناضل فى الميدان وحده بلا معين ولا نصير . اجل كان ما يتمتع به من صحة جيدة وحيوية فائضة خليقا بان يهون عليه همومه . ولكن لم يكن بد من التفكير فى الغد القريب او البعيد ، اذا انصرم العمر او كاد ، وافتقدت الوكالة من يديرها . فمن المؤسف حقا ان احد ابنائه الثلاثة لم يقع له فى خاطر ان يتقدم لمعاونة ابيه فى عمله ؛ وكانوا جميعا سواء فى الاعراض عن التجارة ، وضاعت محاولاته فى ثنيهم عن اعراضهم كلها سدى ، فلم يجد مناصا — على بلوغه الخمسين — من النهوض بالأمر كله . وليس من شك فى انه كان المسئول عن هذا الختام المرهق ، فقد كان على الرغم من عقليته التجارية — جوادا كريما ؛ أو كان كذلك على الاقل فى بيته وبين اهله ، فكان بيته كالقصور جمال بناء ونفاسة اثاث وكثرة خدم وحشم ، وفضلا عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية الى قصر منيف بالحلمية ، فترعرع الأبناء فى وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار واوساطهم ، وسط يضمر بلا ريب نوعا من الاحتقار للمهن الحرة جميعا ، فتعلقوا بمثل عليا جديدة بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته . وحين جد الجد تمردوا على نصحه وابوا حتى الالتحاق بمدرسة التجارة ان تكون فخا لهم ، وشقوا سبيلهم الى الحقوق والطب ، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العينى . ومع ذلك كانت الحياة سعيدة ، وقد بدت اثارها الطيبة فى جسمه البدين المتين ، ووجهه الممتلىء المورد ، وحيويته الشابة المتوثبة ، سعادة منشؤها أن كل شيء فى موضعه المأمول ، تجارة رابحة ، صحة جيدة ، أسرة سعيدة ، أبناء موفقون قد عرف كل منهم وجهته واطمأن اليها . وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع ، تزوجن

جميعا وبارك الله فى زيجاتهن . فبدا كل شيء باسما منبسطا لولا ما ينتابه بين الحين والحين من التفكير فى مصير الوكالة والتجارة . وبكرور الأيام تنبه الابناء الى متاعب الأب ، ولكنهم قدروها من ناحيــة أخرى ، فساورهم خوف أن يفلته الزمام يوما من يد والدهم ، أو ان يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون . وكان أن اقترح عليه أحدهم ـ محمد سليم علوان القاضى أن يصفى تجارته ليتفرغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذلك النضـــال الطويل . بيد أن السيد لم يغب عنه حقيقة مخاوفه ، واستـــاء استياء لم يحاول اخفاءه ، فقال له : « أتريد ان ترثنى حيا ! » ودهمه قوله هذا وهاله ؛ لأنه واخوته يحبون أباهم حبا صادقا ، فلم يعد أحد منهم الى طرق هذا الموضوع الخطير ، ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد فراحوا يقولون ـ واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرة ـ ان شراء أرض أو تشييد عمـــارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال فى المصارف . وفطن الى بواعث هـــذا القول الحقيقية بعقله الذى يحسن ادراك مسائل المال وما يتفرع عنها ، فهو يعلم حق العلم ان التجارة التى تدر المال بلا حساب قد تبتلعه أيضا فى ساعة نحس واحدة ، وان التاجر الذى يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلا حقيق اذا وقعت هـــذه الساعة ـ وخاصة اذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلا أو زوجه ـ أن يخرج من شدته ببعض المال ، وعسى أن يكون مالا كثيرا ، لا صفر اليدين . وهو الى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة ، وانتهوا الى الافلاس والفقر المدقع ، أو الى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمدا . اجل انه يعلم ذلك كله ، ويعلم أن أبناءه على حق فيما يريدون ، ولعل التفكير فى هذا الذى يريدون لم يكن جديدا عليه ، ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع فى مثل هذا العمل ؟ ! كلا ، هذا بين بلا ريب . واذاً فليؤجل الى حين ، وليطو فى نفسه حتى يتيسر تحقيقه .

ولم يكد يحسب انه فرغ من هذا الهم حتى اقترح عليه ابنه القاضي ايضا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية . قال له : كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك مالا وجاها ومقاما .

وسره هذا الاطراء . وكان في الحق — وعلى خلاف التجار الحسفاء — مغرما بالجاه والجلال ، ولكنه تساءل في سذاجة عن السبيل الى التماس هذه الرتبة . وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل ، وتحمسوا له جميعا وان اختلفوا في الوسيلة . فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلى فيها بدلوه ! حقا كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئا — فيما عدا التجارة — من امور الدنيا ، ولا تكاد تسمو اراؤه او معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلا ، فكان مثله يضرع خاشعا الى ضريح الحسين ، وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به ، كان بايجاز معدة قوية وجبة زاهية . بيد ان السياسة لا تحتاج في كثير من الأحايين الى اكثر من هذا . وقد مضى يفكر في الأمر تفكيرا قويا ، لولا ان اعترضه ابنه المحامى — عارف سليم علوان — فقال له محذرا :

— السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا . ستجد نفسك ملزما بالانفاق على الحزب اضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك . وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافا من اموالك دون جدوى ثمنا لكرسى غير مضمون ، وهل البرلمان في بلادنا الا كمريض بالقلب تهدده السكتة في اية لحظة ! ثم اى حزب تختار ؟ اذا اخترت حزبا غير الوفد اضعفت مكانتك في الوسط الذى تعمل فيه . واذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصدقى باشا يجعل تجارتك هشيما تذروه الرياح .

وتأثر السيد بقول ابنه ، وكان يثق في ابنائه « المتعلمين » ثقة

كبيرة ، وزاده انحيازا الى طرح السياسة جانبا جهله التام بشئونها ، وبروده حيالها ، فلم يكن يعلم من امورها الا اسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول .

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة . ولم يرقه الاقتراح من بادىء الأمر ، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه ننفر نفورا طبيعيا من البذل والعطاء ، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف ، لأنه فى الواقع كان كرما لنفسه وبيته . على انه لم يقطع بالرفض . فما زالت الرتبة مغرية محبوبة ، وما زال يطمع فيها ويريدها . وقد ادرك انها تقتضيه قدرا من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه ، فماعسى أن يصنع ؟ لم يبت براى قاطع ، وان قال لأبنائه : « كلا » . بيد أنه اضاف الرتبة الى همومه القائمة بلا فض كادارة الوكالة وشراء العقار ، تاركا أمر الجميع للمستقبل وللظروف .

***

ومهما يكن من امر هذه الهموم فهى ليست بالخطر الذى ينغص صفو الحياة وخصوصا حياة رجل يستغرقه العمل نهارا ، والغريزة ليلا . والحق أنه اذا شغله العمل لم يعد يفكر فى شىء سواه ، وقد جلس الى مكتبه مركزا انتباهه كله فى كلام سمسار يهودى ، مستجمعا يقظته ، مستحضرا حذره ، يعجب لرقة محدثه ولطفه ، حتى ليحسبه الجاهل صديقا ودودا ، وهو فى الحقيقة نمر يتواثب ، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن ، والويل لمن يتمكن منه ، وقد علمته التجارب ان هذا الخواجا وامثاله أعداء ما من صداقتهم بد ، او انه — على حد تعبيره — شيطان مفيد . وكان يساومه بصفقة شاى مضمونة الربح فزيرته ، فجعل السيد يفتل شاربه الضخم ويتجشا شأنه اذا استغرقه التفكير الخطير ! وحاول الخواجا بعد ان فرغ من الشاى ان يعرض عليه شراء عقار

صالح ـ وكان على علم برغبته فى الشراء ـ ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع فى ذلك الى ما بعد الحرب ، وأبى أن يصغى اليه ، فغادر الرجل الوكالة قانعا بصفقة واحدة . وجاء غير هذا الخواجا آخرون . وواصل السيد العمل بما عرف عنه من مقدرة وهمة وعند منتصف النهار نهض للغداء . وكان يتناول غداءه فى حجرة انيقة اعد بها فراشا للمقيل . وكان غداؤه يتكون عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك . ولما انتهى من طعامه مضى الى الفراش يستجم ساعة او ساعتين . وفى أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة ، فيسود السكون الزقاق جميعا ، وكان لصينية الفريك قصة يعرفها اهل الزقاق جميعا . هى طعام ووصفة فى آن واحد . وقد برع فى تهيئتها أحد عماله المقربين ، فظلت حقيقتها سرا بينهما لولا أنه لا يؤمن على سر فى زقاق المدق . هى صينية فريك محشو بالحمام . ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب ، يلتهمها فى الغداء ، ويحتسى بعدها شايا مرتين او ثلاث مرات ، قدحا كل ساعتين . فتحدث مفعولها ليلا ، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين فى بهجة خالصة ! وقد ظلت الصينية سرا لا يدريه الا الرجلان والمعلمة حسنية الفرانة . وكان اهل الزقاق يرونها فيحسبون انها غداء خالص ، فيقول البعض : « بالهناء والشفاء » . ويغمغم البعض : « يطفحها سما باذن الله » ثم لب الطمع يوما بقلب المعلمة حسنية ، فسولت لها نفسها ان تجرب هذه الوصفة فى زوجها جعدة الفران ، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص . ودابت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة الى غفلة السيد ، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلا ، ولاحظ بسهولة ما طرا من تغير على لياليه ، وعاد باللائمة بادىء الأمر على العامل الذى يهيىء

الوصفة ، فلما أن ابرأ الرجل ذمته داخله الشك فى الفرانة ، واكتشف السرقة بغير صعوبة ، فدعا الفرانة ووبخها ، وعدل عن ارسال الصينية الى فرنها ، مستبدلا بها الفرن الافرنجى بالسكة الجديدة . وبدا السر ينكشف ويذيع فعلمت به أم حميدة ، وكان فى ذلك الكفاية كل الكفاية ، فسرعان ما احاط به أهل الزقاق جميعا ، وراحوا يتلقون الصينية بالغمز واللمز . وادرك السيد غاضبا أن سره قد افتضح ، ولكنه لم يعبأ بذلك طويلا ! أجل . قطع اكثر عمره فى الزقاق ، ولكنه لم يكن يوما من اهله ، ولم يعمل لواحد منهم حسابا ، ولولا السيد رضوان الحسينى والشيخ درويش لما عنى برفع يده تحية . وكادت الصينية تصبح فى وقت من الأوقات موضة الزقاق جميعـا ، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد . فجربها المعلم كرشة والدكتور بوشى ، حتى السيد رضوان الحسينى ذاقها بعد أن تأكد من انها لا تحوى مادة يحرمها الشرع الحنيف ! اما السيد سليم فكان يواظب عليها الا فيما ندر والواقع انه كان يضطرب من الحياة فى مضطرب ضيق : نهاره نهب الوكالة ، وليله خال مما يتسلى به أمثاله من الناس ، فلا قهوة ولا ناد ولا ملهى ، ولا شىء مطلقا الا زوجـه ، ولذلك نفنن فى مسراته الزوجية تفننا شذ بها عن جادة الاعتدال .

***

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى ، وارتدى قفطانه وجبته ، وعاد الى مكتبه فوجد قدح الشاى الثانى مهيأ ، فاحتساه بتلذذ وهو يتجشـا جشاآت مجعجعة يدوى صـداها فى الفناء الداخلى . واقبل على عمله بنفس الهمة التى استقبله بهـا فى الصباح ، ولكنه كان يبدو فى فترات وكأن قلقا ينتابه . كان يتلفت نحو الزقاق ، وكان ينظر فى سـاعته الذهبية الضخمة ، وكان

يعبث بأنفه على غير شعور منه . وعندما ارتفع ضوء الشمس الى اعلى الجدار الأيسر للزقاق ، ادار مقعده اللولبى وجعل وجهه للطريق . ومرت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق . ثم أرهف السمع ولمعت عيناه لوقع شبشب على أحجار الطريق المنحدر ، ثم مرت حميدة امام باب الوكالة فى ثوان معدودات . وفتل شاربه بعناية ، ودار بكرسيه الى المكتب وقد لاح فى عينيه السرور ، وان وجد شعورا بعدم الارتياح !. من العسير ان يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ســـاعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق . ولم يكن يتاح له رؤيتها فى غير هذا الوقت الا من قبيل استراق النظر الى نافذتها فى اوبقات نادرة كلما جازف بالظهور امام الوكالة كأنما يريح اعصابه بالمشى . كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونا لمنزله وكرامته ، فهو السيد سليم ، وهى فتـــاة مسكينة ، والزقاق زخار بالألسن الحداد والأعين المتطفلة . وتوقف عن العمل ، وجعل ينقر المكتب بسبابته متفكرا . اجل ، هى مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم واأسفاه ، والنفس امارة بالسوء ! . مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزى ونظرة عينيها وقدها المشوق ، كل اولئك مزايا تستهين بفوارق الطبقات ! . وما جدوى المكابرة ؟ انه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح والجسم الذى يقطر اغراء ، وهذه العجيزة الانيقة التى تزرى بورع الشيوخ . انها انفس من وارد الهند جميعا . ولقد عرفها منذ كانت صبية صغيرة تتردد على الوكالة لابتياع ماتحتاج اليه امها من الحناء ومواد المفتقة والمغات . رأى ثدييها وهما نبقتان ثم وهما دومتان ، حتى استوتا رمانتين . وعاين عجيزتها وهى اساس املس لم ينهض عليه بناء ، ثم وهى تكور رقيق يتمطى به النضج ، واخيرا وهى كرة تنضح اناقة وأنوثة ، وراح الرجل يحضن اعجابه المترعرع حتى افرخ فى النهاية رغبة عارمة . انه يعلم ذلك ، ولم

بعد يحاول انكاره . ولطالما قال لنفسه : « ليتها كانت ارملة كالست سنية عفيفى ! » لو كانت ارملة لوجد لنفسه مخرجا . اما وهى عذراء فينبغى أن يطيل التفكير فى امره . وتساءل كما اعتاد ان يتساءل : ماذا يروم ؟ وذكر وهو لا يدرى زوجه واسرته . كانت زوجه امراة فاضلة ، تتحلى بكل ما يحب الرجل من انوثة وامومة واخلاص ومهارة فائقة فى شئون البيت ، وكانت على شبابها مليحة ولودا . فهو لا ياخذ عليها نقيصة واحدة . وفضلا عن ذلك كله كانت من اسرة كريمة تتفوق عليه كثيرا فى الأصل والمحتد . وهو يقر لها بفضائلها جميعها . ويضمر لها ودا صادقا . ولا يضايقه الا انها استوفت شبابها وحيويتها . فقصرت عن مجاراته ، وعجزت عن احتماله . فبدا بالقياس اليها — وبسبب حيويته الخارقة — شابا نهما لا يجد فيها ما يشتهيه من متاع ! . والحق انه لا يدرى ان ذلك ما علقه بحميدة ، ام أن هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم ! . ومهما يكن الأمر فقد احس رغبة لا تقاوم الى دم جديد ! . وقال لنفسه صراحة : « مالى أحرم على نفسى ما احل الله لها ! » . على انه كان رجلا محترما ، حريصا جدا على ان يقر له كل انسان بالاحترام ، ويكربه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه . كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كل حساب . وكان يقول مع القائلين : « كل ما يعجبك والبس ما يعجب النــاس » . وانه ليأكل صينية الفريك ، اما حميدة .. رباه ! لو كانت من اسرة كريمة ما تردد لحظة فى طلب يدها . ولكن كيف تصير حميدة ضرة للست عفت ! ؟ وكيف تصبح أم حميدة الخاطبة حماته كما كانت يوما المرحومة الفت هانم ؟ ! وعلى اى وجه تكون حميدة امراة أب لمحمد سليم القاضى وعارف سليم المحامى والدكتور حسان سليم ؟ ! . وهنالك أمور أخرى — لا تقل عن هذه خطورة — ينبغى تقديرها حق قدرها . هنالك بيت جديد لا بد — فى هذه

الحالة — ان يتهيأ ، ونفقات جـديدة ربما ضاعفت من نفقـاته القديمة ، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة اسرته المتماسكة ، وان يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء . وفى سبيل اى شيء كل هذه المتاعب ؟ .. ميل رجل — بل زوج وأب — فى الخمسين لفتاة فى العشرين ! لم يغب عنه شيء من هذا ، لأنه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التى تتصل بالمال وأحوال المعيشة . ومضى يراجع نفسه حائرا مترددا لا يقر له قرار . وباتت هذه العاطفة احدى الهموم المعلقة فى حياته ، وانتظمتها سلسلة مشاكله التى لم تفض كادارة الوكالة ومستقبلها ، وشراء العقار وتشييد العمارات ، ورتبة البيكوية ، بيـد انها كانت اشد الحاحا وابعث شجنا .

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر اذا خلا الى نفسه ومد له حبـل التفكير ، اما اذا خطرت حميـدة امام عينيه ، أو لاحت لهما فى النافذة ، فلم يكن يفكر الا فى امر واحد . .

٩

اصبحت ام حسين — امراة المعلم كرشة — فى هم مقيم . فانقطاع عادة مالوفة لا يمكن ان يمر دون تساؤل ، خصوصا اذا كان انقطاعها فى الماضى يقترن دائما بشر مستطير . وقد قطع المعلم كرشة عادة محبوبة لا يصح ان تقطع لغير سبب خطير ، فراح يمضى سهرته الليلية بعيدا عن البيت ، بعد ان كان يدعو رفاقه المدمنين الى حجرة السطح كل منتصف ليل فيمتد بهم السهر حتى مطلع الفجر . وطافت بالمراة الذكريات المحزنة فعاودها الألم الذى ينغص عليها صفو الحياة . ما الذى يدعوه الى قضاء الليل

خارج داره ؟ ايكون ذاك السبب القديم ؟ ذاك الداء الوبيل ؟ سيقول الفاجر انه مجرد تغيير يراد به دفع الملل ، او الانتقال لمكان اوفق لفصل الشتاء ، ولكن هيهات ان تهضم نفسها امثال هذه المعاذير الكاذبة ، وانها لتعلم من امر نفسه ما يعلمه الناس جميعا . لذلك اصبحت المراة فى هم مقيم ، وباتت تتحرق على فعل شيء حاسم مهما كانت عواقبه . وكانت امراة قوية — على دنوها من الخمسين — لا تنقصها أسباب الجراة التى تجاوز الحد فى كثير من الاحايين . وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالباس — كحسنية الفرانة وام حميدة — واشتهرت بوجه خاص لما يقع بينها وبين زوجها من دواعى الملاحاة بسبب شذوذ سلوك الرجل !، كما اشتهرت بأنفها الكبير الغليظ الأفطس . وكانت زوجا ولودا ، أنجبت بناتا ستا وذكرا واحدا هو حسين كرشة . وجميع بناتها متزوجات ، وجميعهن يحيين حياة زوجية مقلقلة ، لا تخلو من نكد وان كانت تسير ولا تنقطع . وقد حدثت لصغراهن مأساة كانت حديث الزقاق يوما ، اذ اختفت بغتة فى عامها الأول من الزواج ثم ضبطت فى بيت عامل ببولاق ، وانتهى بها وبه المطاف الى السجن . كانت مأساة الفتاة كربا شديدا للأسرة ولكنها لم تكن المأساة الوحيدة التى ابتليت بها ، فللمعلم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء . وكانت ام حسين تعرف السبيل الى معرفة ما خفى عليها من الأمر ، فراحت تستخبر عم كامل وتستنطق الغلام سنقر صبى القهوة حتى علمت بالشاب الذى اخذ يتردد فى عهده الاخير على القهوة فيحتفى به المعلم كل احتفاء ويقدم له الشاى بنفسه !. واخذت تراقب رواد القهوة خفية حتى رات الشاب بنفسها وشاهدت مجلسه الى يمين المعلم ، ولمست احتفاءه به . وجن جنونها ونكا الجديد القديم من جروحها ، فباتت ليلة جهنمية ، واصبحت على شر حال

واسوا نفس . ولم يكن رأيها قد استقر على حال ، كانت تغلى غليانا ولكنها لا تدرى اى سبيل تسلك . ولطالما جربته العراك فيما سلف دون جدوى ، ولم تكن تتردد عن اعادة الكرة ، بيد أنها تريثت قليلا — لا تأففا منه — ولكن دفعا لشماتة الشامتين . وكان حسين كرشة يتهيأ للخروج الى عمله فقصدته هائجة النفس ثائرتها ، وقالت له بانفعال شديد :

— يا بنى ، اما علمت ان أباك يعد لنا فضيحة جديدة ؟

وادرك حسين لتوه ما تعنيه ! فلا يمكن أن يعنى قولها الا معنى واحدا معروفا مشهورا ، وامتلأ حنقا ، واتقدت عيناه الصغيرتان فتطاير منهما الشرر . ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يوما من المتاعب والفضائح . ولم تكن دواعى السخط لتنقصه حتى بدون هذه الفضائح . كان برما بكل شيء مما حوله . ولعل برمه هذا الذى دفعه الى الارتماء بين احضان الجيش البريطانى . ثم ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكنه وتطامنه . فضاق بآله وببيته وبالزقاق جميعا . وجاء أخيرا قول أمه نفطا على لهيب ، فقال غاضبا :

— ماذا تريدين ؟ وما حيلتى فى هذا كله ! لقد تدخلت فيما سلف وحاولت الاصلاح ، فكاد يبلغ بنا الحال ان نتعارك وان نتضارب . فهل تريديننى على أن امسك بتلابيب ابى ؟ !

لم يكن يعنيه الاثم فى ذاته ، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من فضيحة وجرسة . وما يشعله فى البيت من نيران السباب والشتائم والعراك . اما الاثم ذاته فلم يكن يهمه على الاطلاق ، بل انه حين تناهى اليه خبره أول مرة هز منكبيه استهانة وقال دون مبالاة : « انه رجل والرجل لا يعيبه شيء ! » ثم سخط مع الساخطين ونقم على والده ، حين وجد أسرته مضغة الأفواه ونادرة المتندرين . وكانت علاقته بابيه فى الأصل متوترة ، ذلك

التوتر الذى ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين . فكلاهما فظ شرس غضـوب ، ثم جاء هذا الألم فضاعف من اسباب شقاقهما حتى اصبحا كعدوين ، يتحاربان حينا ، ويتهادنان حينا ، ولا يسكت عنهما السخط ابدا .

ولم تدر ام حسين ماذا تقول ، ولكنها لم تراجعه أن تكون السبب فى القاء عداوة جديدة بين الابن وابيه . وتركته يغادر الشقة وهو يهدر غاضبا شاتما ، وقطعت نهارها على اسوأ حال. ولم تكن تذعن للهزيمة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة والمهانة ، فصدقت عزيمتها على تأديب الرجل الآثم ولو عرضها ذلك لشماتة الشامتين . بيد انها رأت أن تقدم انذارها بين يدي بأسها ، فانتظرت حتى انتصف الليل ، وتفرق السمار ، وتأهب زوجها لاغلاق القهوة ، ثم نادته من النافذة ! فصعد الرجل راسه منزعجا وعلا صوته متسائلا :

— ماذا تريدين يا أم حسين ؟

فجاء صوتها يقول :

— اصعد يا معلم لأمر هام . .

وأومأ المعلم لفتاه أن ينتظره حيث هو ، وراح يرتقى السلالم متثاقلا ، ووقف على عتبة باب شقته لاهثا ، ثم سألها بصوته الغليظ :

— ماذا تريدين ؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتى الصباح ؟

رأته المرأة وقد تسمر قدماه بالعتبة لا يريد أن يزايلها كأنه يتحاشى أن يخرق حرمة بيته غريب ، فتميزت غيظا ، وحدجته بعينين محمرتين من السهر والغضب ، ولكنها لم ترد أن تبادره بالغضب ، فقالت وهى تغالب انفعالها :

— تفضل بالدخول يا معلم .

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم اذا كان لديها حقا ما تريد أن تقوله ، ثم سألها بخشونة :

ــ ماذا تريدين ؟ .. انطقى !

يا له من رجل نافد الصبر ! يقطع الليالى الطوال خارج البيت دون ملل ، ولكنه يضيق ذرعا بحديث دقيقتين . ومع ذلك فهو رجلها امام الله والناس ، وابو ابنائها جميعا ، ومن عجب انها لم تستطع ــ على اساءته اليها ــ ان تبغضه أو تهمل شأنه . فهو رجلها وسيدها الذى لا تنى عن الاستئثار به ، واسترداده كلما مد الاثم يدا لاختطافه . بل انها لفخور به حقا ، فخور بفحولته ومكانته فى الزقاق وسيطرته على المعلمين من اقرانه ، ولولا هذه النقيصة المنكرة لما وجدت له ضريعا فى الدنيا . ها هو يستجيب لداعى الشيطان ، ويود لو اعفته من حديثها لينطلق اليه من توه ! واشتد بها الغيظ فقالت بحدة :

ــ ادخل أولا .. لماذا تقف على العتبة كالأغراب ؟ !

فنفخ المعلم مغيظا محنقا ، وجاز العتبة الى الدهليز برما ساخطا وهو يتساءل بصوته الأجش :

ــ ماذا وراءك ؟

فقالت وهى ترد الباب :

ــ استرح قليلا .. لدى كلمة قصيرة ..

ونظر اليها مستريبا ؟ ماذا تريد المراة ؟ هل تعترض سبيله مرة اخرى ؟ ! وصاح بها :

ــ تكلمى ، لماذا تضيعين الوقت سدى ؟

فسالته بحنق ؟

ــ أمتعجل انت يا معلم ؟

ــ أتجهلين هذا ؟

ــ ما الذى يدعو لهذه العجلة ؟

فازدادت ريبته ، وامتلأ صدره حنقا ، وتساءل الام يحتمل هذه المراة ؟ كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة . كان يكرهها

حينا ويحبها حينا آخر . ولكن كانت الكراهية تغلب عليه اذا جره الاثم الى هاويتـه ، ويزيد الامر وبالا اذا تونبت المـراة للانقضاض عليه . وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو كانت امراته « عاقلة » فتركته وشانه . ومن عجب انه كان يرى نفسه على حق دائما ، ويعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرر ! اليس من حقه أن يفعل ما يشاء ؟ واليس من واجبها ان تطيع . وأن نرضى ما دامت حاجتها مقضـية ورزقها موفورا ؟! وقد امسـت من ضرورات حياته ، كالنوم والحشيش والبيت ؛ بخيرها وبشرها ، فلم يفكر جادا في التخلص منها ؛ ولو أراد ما منعه مانع . ولكنها كانت تملأ فراغا ، وتقوم على العناية بأمره ، ويريدها — على اية حال — زوجا له !. ولكنه تساءل على رغم هذا كله — فى حنقه — الام يحتمل هذه المراة ؟ وصاح بها :

— لا تكونى حمقاء وتكلمى او دعينى اذهب لحال سبيلى .

فسالته باستياء وحنق :

— الا تجد قولا افضل من هذا تخاطبنى به ؟

فزمجر المعلم قائلا :

— الآن علمت انه ليس لديك ما تقولينه : والأفضل أن تنامى شأن النساء العاقلات .

— ليتك تنام أيضا شأن الرجال العقلاء !

فضرب المعلم كفا بكف وصاح :

— كيف لى بالنوم فى هذه الساعة ؟

— فلماذا خلق الله الليل ؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ :

— ومتى كنت أنام الليل ؟ هل انا مريض يا مرة ؟ !

فقالت بلهجة ذات معنى خاص علمت انه سيدركه من فوره :

— تب الى الله يا معلم ، وادع الله يقبل التوبة ولو جاءت متأخرة !.

وادرك ما تريد . وقطع الشك باليقين ، ولكنه قال متجاهلا وهو يتميز غيظا :

ــ ما فى السهر من ذنب يتوب الانسان عنه .

فزادها تجاهله لها حنقا وقالت :

ــ تب عن الليل وعما فى الليل !.

فقال المعلم بخبث :

ــ اتريديننى ان اهجر حياتى !

فصاحت بـ وقد غلبها الغضب :

ــ حياتك !.

فقال بخبث :

ــ اجل .. الحشيش حياتى .

فتطاير الشرر من عينيها وهى تقول وقد حدثتها نفسها بأن تعسك خديه السوداوين :

ــ والحشيش الآخر ؟!

فقال متهكما :

ــ انا لا احرق الا سنفا واحدا .

ــ انت لا تحرق الاى . لماذا لا تسهر فى مكانك المعتاد من السطح !.

ــ ولماذ لا اسهر حيث يروقنى السهر ؟ على السطح ، فى المحافظة ، فى قسم الجمالية ؟ ما شأنك انت ؟

ــ لماذا غيرت مكان سهرتك ؟

فصعد الرجل راسه وصاح :

ــ اللهم فاشهد . اعفيتنى حتى الآن من محاكم الحكومة ونصبت لى محكمة دائمة فى بيتى (ثم طامن راسه كرة اخرى واستدرك) الا فاعلمى أن بيتنا قد أصبح مشبوها . والمخبرون يجوسون حوله .

فسألته بسخرية مرة :

ـ ترى هل هذا الشاب المتهتك من بين هؤلاء المخبرين الذين أطاروك عن عشك ؟

آه ، صار التلميح تصريحا ؟ واربد وجهه الضارب للسواد ، وسألها بصوت ينم عن الضجر :

ـ أى شاب هذا ؟

ـ الفاجر الذى تقدم له الشاى بنفسك كأنك رددت صبيا كسنقر !.

ـ ما فى ذلك من عيب ، فالمعلم يخدم زبائنه كالصبى سواء بسواء .

فسألته متهكمة بصوت متهدج من الغضب :

ـ لماذا لا تخدم عم كامل مثلا ؟ لماذا لا تخدم الا الفاجر ؟

ـ الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد !

ـ الكلام سهل على من يريده ، ولكن فعلك فاضح فاجر .

فأومأ اليها بيده منذرا وهو يقول :

ـ امسكى لسانك يا مجنونة .

ـ الناس جميعا يكبرون فيعقلون .

فقرض أسنانه وسب ولعن ، ولكنها لم تباله واستطردت تقول :

ـ الناس يكبرون فيعقلون ، اما انت فكلما كبرت قل عقلك .

ـ خرفت يا مرة ! خرفت وحياة الحسين ! عليه العوض !

فصاحت به بصوت غليظ مرتعش النبرات :

ـ الرجال أمثالك يستاهلون العذاب . هلا كفيتنا شر الفضائح ! هلا كفيتنا ذل الشماتة !

ـ عليه العوض ! عليه العوض !.

وغلبها اليأس والغضب فصاحت به منذرة :

ــ اليوم تسمعنى أربعة جدران ، غدا تسمعنى الدنيا كلها .

فرفع جفنيه الثقيلتين وسألها بقوة :

ــ تهددينني ؟ !

ــ اهددك ، واهدد اهلك ! أنت تعرف من أنا !

ــ يبدو لى أنى سأهشم هذا الراس الخرف !

ــ هىء .. هىء ، والله ما ترك الحشيش والفجر قوة فى ساعديك ، والله ما تستطيع ان ترفع يدا !.. انتهيت ، انتهيت يا معلم .

ــ انتهيت بفضلك . وهل ينهى الرجال الا النساء !.

ــ أسفى على من دون النساء جميعا !

ــ له ؟.. خلفت بنات ستا ورجلا .. غير حالات الاجهاض والسقط .

فصاحت فى غضب جنونى :

ــ الا تستحى من ذكر الأبناء ؟ الا يزجرك ذلك عما تتردى فيه من الفجور !.

فضرب الجدار بقبضته ، وتحول عن موقفه متجها نحو الباب ، وهو يقول :

ــ امراة مجنونة مخرفة .

فصرخت وراءه :

ــ هل نفد صبرك حقا ؟.. اتشفق عليه من طول الانتظار ؟. سترى عاقبة فجرك يا داعر ؟.

واغلق المعلم الباب بعنف ، فرنت صفقته رنينا مدويا مزق سكون الليل ، وجعلت ام حسين تكور يدها فى غضب وحنق ، وقد امتلأت نفسها رغبة فى الانتقام .

١٠

القى عباس الحلو على صورته فى المرآة نظرة فاحصة نافذة حتى لاحت فى عينيه البارزتين نظرة ارتياح : وكان قد رجل شعره بأناة ، ونفض الغبار عن بدلته بعناية ، ثم دلف من باب دكانه ووقف ينتظر ، هى ساعة الأصيل المحبوبة . والسماء صافية عميقة الزرقة ، والجو ملطف بدفء طارىء جادت به الطبيعة غب رذاذ اتصل يوما كاملا ، وقد اغتسلت ارض الزقاق التى لاتستحم الا مرتين او ثلاثا فى العام ، وظلت بعض منخفضات الصنادقية مغمورة بالماء ملبدة بالطين . وكان عم كامل داخل دكانه الصغير يهوم على كرسيه ، فاشرق وجه الحلو بابتسامة لطيفة . وما لبث ان دب الوجد فى أعماقه فراح يدندن بصوت منخفض :

هلبت يا قلبى على طول الزمن ترتاح
وتنول وصال اللى تهوى ، وفيه ترتاح
مصير جروحك على طول الزمن تبرى
ويجيلك الطب . لا تعلم ولا تدرى
مثل سمعناه منقول عن ذوى الخبرة
الصبر يا مبتلى ، جعلوه للفرج مفتاح

وفتح عم كامل عينيه وتثاءب ، ثم نظر الى الشاب الواقف على باب دكانه ، فضحك هذا وعبر الطريق اليه وقرصه فى ثديه الهش ، وقال بسرور :

ــ عشقنا وستضحك لنا الدنيا .

فتنهد عم كامل وقال بصوته الرفيع :

ــ مبارك يا عم ، ولكن هلا سلمتنى الكفن قبل ان تبيعه لتحصل على المهر ؟.

وضحك عباس الحلو ضحكة عالية ، وغادر الزقاق متمهلا .
كان يرتدي بدلته الرمادية ، وهى الوحيدة أيضا ، وكان قد قلبها منذ عام ، ثم رفا الرفاء بعض أطرافها ، ولكنه كان يعنى بتنظيفها وكيها — فبدا — على نحو ما — أنيقا — وكان يضطرم حماسة ونشوة وشجاعة . ويضطرب بهذا الضيق الشديد الذى يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد . كان فى تلك الفترة يحيا الحب ، للحب ، ويدوم بجناحيه الملائكيين فى سماء السرور ، وكان حبه عاطفة رفيقة ورغبة صادقة وشهوة جائعة ، يهوى الثديين كما يهوى العينين . ويلتمس وراء الثديين حرارة الجسد ، كما يلتمس فى العينين نشوة غامضة ساحرة . وقد سر سرور الظفر يوم تعرض للفتاة فى الدراسة . وصور له خياله اعراضها كما لو كان ذلك الاعراض السلبى الذى تلبى به النساء نداء الهوى . واستأثرت به النشوة اياما ، ثم مضت حماسته تفتر ونشوته تخبو ، لا لجديد جد ، ولكن لتيقظ الشك وفعله . وراح يتساءل لماذا يظن الاعراض دلالا ؟! ولم لا يكوناعراضا حقا ! ؟ الانها صدته فى غير قسوة ولا فظاظة ؟ ولكن هل يتوقع الانسان من جارة العمر اقل من هذه المجاملة ؟ . . حقا لقد غالى فى سروره ، وانها لنشوة كاذبة . بيد أنه لم ينكص على عقبيه ، وكان كلما لسعه الشك اندفع فى سبيله ذائدا عن سعادته . كان عند الضحى يبرز أمام دكانه فيراها اذ تفتح النوافذ لتشمس الشقة ، وفى المساء يجلس بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافذتها ، يدخن الجوزة ، ويخطف النظرة تلو النظرة من الشباك المغلق يجثم وراء خصاصه الشبح المحبوب . ولم يقنع بهذا فتعرض لها مرة ثانية فى الدراسة ، ولكنها صدته كما صدته اول مرة ، واعاد الكرة فافلتت منه ايضا . ولكنه رجع وقد عاوده الأمل واظله الفرح والسرور . وقال لنفسه ان السعادة مهياة له ولا تقتضيه الا مزيدا من

الشجاعة والصبر . وهكذا انطلق هذه المرة ممتلئا شجاعة وثقة وهياما . ورأى حميدة وصويحباتها قادمات فانتحى جانبا حتى مررن به ، ثم تبعهن متمهلا . وقد لاحظ أن اعين البنات يثقبنه بخبث مريب فداخله سرور وزهو ، وتابع سيره حتى انفرط عقدهن عند نهاية الدراسة ، فحث خطاه حتى سار منها على مرمى ذراع ، وابتسم اليها ابتسامة رقيقة متعثرة بالارتباك ، وغمغم بتحيته المحفوظة :

ــ مساء الخير يا حميدة .

كانت تنتظره بلا ريب ، ولكنها كانت فى حيرة من امر نفسها . لم تكن تحبه ولم تكن تكرهه . ولعل كونه الفتى الوحيد الذى يصلح لها فى الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صده بحزم وفظاظة . تاغضت عن تعرضه لسبيلها مرة أخرى ، مكتفية بزجر لين ، وافلات لطيف ، ولو شاءت أن تصعقه لصعقته . وكانت على رغم تجربتها المحدودة فى الحياة تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذى يضرمه نزوعها الغريزى الى القوة والجموح والسيطرة والعراك !. حقا كانت تهيج جنونا اذا قرات فى نظرة عين معنى للتحدى او الثقة ، ولكن لم تبعها الى الرضا هذه النظرة الوديعة الطيبة التى تلوح دواما فى عينى الحلو ، وتولاها شعور بالحيرة والقلق لترددها بين الحرص عليه بوصفه الفتى الصالح لها فى الزقاق ، والنفور منه نفورا لا ينهض على أسباب واضحة يطمأن اليها . فلا ميل صريح ولا نفور صريح . ولولا ايمانها بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما ترددت فى نبذه والقسوة عليه . لذلك احبت مجاراته ، وسبر غوره ، واستخراج مكنون لسانه ، لعلها تجد فى ذلك كله أو فى بعضه مخرجا لها من حيرتها المؤسية . وخاف الفتى أن يمتد صمتها حتى ينطوى الطريق ، فغمغم كالضارع :

ـ مساء الخير .

وانبسط وجهها البرونزى الجميل ، وتمهلت فى مشيتها وهى تنفخ فى ضجر مصطنع قائلة :

ـ ماذا تريد !

ولمح انبساط وجهها فلم يعبأ بضجرها ، وقال بأمل ورجاء :

ـ ميلى بنا الى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام وشيك .

وعدلت صامتة عن طريق الدراسة الى الازهر . فتبعها وهو يكاد يخرج من جلده فرحا . ورجع راسها صدى هذه الكلمات « طريق مأمون .. الظلام وشيك » ، فادركت أنها تفارف فعلا تحاذر عليه اعين الرقباء ، وابتسمت بجانب ثغرها فى تحد !. كانت « الاخلاق » اهون شىء على نفسها المتمردة ، وقد نشأت فى جو لا يكاد يتفيأ ظلها ، أو يتقيد باغلالها . وزادها استهانة طبع جموح وام مهملة قليلا ما تستكن فى بيتها ، فانطلقت على سجيتها تخاصم هذا وتعارك ذلك فلا تعمل لشىء حسابا ، ولا تقيم لفضيلة وزنا . واما عباس الحلو فقد لحق بها ، وسار لصقها وهو يقول بصوت ينم عن الفرح والسرور :

ـ دمت من فتاة كريمة !.

ولكنها قالت فى شبه ضجر :

ـ ماذا تريد منى !؟

فقال الفتى وهو يتمالك انفاسه المضطربة :

ـ الصبر طيب يا حميدة . تلطفى معى ولا تكونى قاسية على ..

فعطفت نحوه راسها وهى تغطيه بطرف ملاءتها وقالت بحدة :

ـ هلا قلت لى ماذا تريد !.

ــ الصبر طيب .. اريد .. اريد كل شيء طيب .

فقالت بتأفف :

ــ لا تريد ان تقول شيئا ، ونحن نجد في السير فنبعد عن طريقنا ، والوقت يمضي ، وانا لا أستطيع ان اتأخر عن موعد عودتي .

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة :

ــ سنعود في وقت قريب فلا تخافي ولا تجزعي . وسنجد عذرا تنتحلينه لأمك . انك تفكرين كثيرا في الدقائق . اما انا فأفكر في العمر كله ، في حياتنا جميعا . هذا هو شغلي الشاغل . ألا تصدقينني ؟ انه جل تفكيري وهمي وحياة الحسين الذي يبارك هذا الحي الطاهر ؟.

كان يتكلم في بساطة وصدق فشعرت بحرارة حديثه . ووجدت لذة في الاصغاء اليه ، وان لم يتحرك قلبها الجامد ، فتناست حيرتها المعذبة ، والقت اليه بانتباهها . ولكنها لم تدر ماذا تقول فلاذت بالصمت ، وتشجع الفتى فاستدرك قائلا في انفعال :

ــ لا تعدي على الدقائق ولا تلقي على هذا السؤال الغريب . تسألينني يا حميدة عما أريد ، اتجهلين حقا ما اريد قوله ؟ ! لماذا اتعرض لك في الطريق ؟ لماذا اتبع عيني ظلك حيث تكونين ؟ لك ما تشائين يا حميدة . الم تقرئي شيئا في عيني ؟ يقولون ان قلب المؤمن دليله ؟ فماذا علمت ؟.

اسألي نفسك . اسألي أهل الزقاق جميعا ، كلهم يعرفون .

وقطبت الفتاة وتمتمت وهي لا تدري :

ــ فضحتني !.

فهاله قولها . وهتف متأثرا :

ــ لا فضيحة في حياتنا وما اكن لك الا الخير ، وهذا الحسين

يشهد قولى ويعلم بسريرتى . أنا احبك ، ولطالما احببتك ، احبك اكثر مما تحبك امك . وأحلف لك على صدقى بالحسين ، وجد الحسين ، ورب الحسين .

وشعرت بسرور ولذة ، ودخلها زهو تملق نزوعها الجامح الى القوة والسيطرة ، والحق ان كلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب الآذان ولو لم ترجع القلوب انغامها ، فهى كالأفاويه للنفس المسدودة ! بيد أن خيالها وثب وثبة قوية عبر بها قنطرة الحاضر الى المستقبل ؛ فتساءلت : ترى كيف تكون حياتها فى كنفه لو صدقت الأيام أمله ؟ انه فقير ، رزقه كفاف يومه ، ولسوف يأخذها من الطابق الثانى لبيت السته سنية عفيفى الى الطابق الأرضى فى بيت السيد رضوان الحسينى . وأحسن ما يمكن أن تجهزها أمها فراش نصف عمر وكنبة وعدد من الأوانى النحاسية ، ولا يدخر لها بعد ذلك الا الكنس والطبخ والغسل والارضاع ، وربما قطعت طريقها حافية فى جلباب مرقع . وريعت كأنما اطلعت على مشهد مخيف . وتحرك فى أعماقها هيامها المفرط بالثياب ؛ وتيقظ ذلك النفور الوحشى من الأطفال الذى تعيرها به نسوة الزقاق . وعاودتها حيرتها المعذبة ، فلم تدر أأصابت أم اخطأت فى مطاوعتها له وسيرها معه ؟ وكان عباس ينعم اليها النظر فى افتتان وهيام وامل ، فاول صمتها وتفكيرها على هواه ، وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده :

— لماذا تصمتين يا حميدة !.. كلمة واحدة تشفى الفؤاد وتغير الدنيا . كلمة واحدة تكفينى . تكلمى يا حميدة . اخرجى عن هذا الصمت .

ولكنها لم تنبس بكلمة ، وظلت فريسة للحيرة ، فاستطرد عباس قائلا :

— كلمة واحدة تملأ روحى املا وسعادة . لعلك لا تدرين

ما فعله حبك بي ! انه يبعث في روحا جديدة لا عهد لى بها ! انه يخلقني خلقا جديدا ، ويدفعني لاقتحام الدنيا غير هياب . أما علمت هذا ؟.. لقد استيقظت من سباتى ، وغدا تريننى شخصا جديدا .

ماذا يعني ؟ وانعطف راسها كالمتسائل . فانشرح صدره لاهتمامها وقال بحماسة وفخار :

— اجل .. توكلت على الله وسأجرب حظى كالاخرين . سألتحق بخدمة الجيش البريطاني ، وعسى ان يصادفنى من التوفيق ما صادف أخاك حسين .

فلاح الاهتمام فى عينيها وسالته على غير وعى منها :

— حقا ، .. متى يكون ذلك ؟

كان يؤثر بلا شك ان تحدثه حديثا اخر ، وان يلمس انفعالها قبل أن يستثير اهتمامها . ان يسمع هذه الكلمة العذبة التى تذوب نفسه شوقا لسماعها ؛ ولكنه ظن هذا الاهتمام قناعا نسجه الحياء ليستتر به عاطفة متسوبة كعاطفته تهاب البوح بسرها . واهتز صدره فرحا ، وقال مفتر الثغر :

— عما قريب اسافر الى التل الكبير ، وساشتغل بادىء الامر بيومية مقدارها خمسة وعشرون قرشا ، وقد اكد لى جميع الذين استشرتهم فى الأمر ان هذا المقدار قليل من كثير مما يصيب جميع المشتغلين فى الجيش . وساجعل همى فى أن اوفر من يوميتى اقصى ما أستطيع توفيره ، حتى اذا عدت الى هنا عقب انتهاء الحرب — وهى بعيدة كما يقولون — فتحت صالونا جديدا فى السكة الجديدة او شارع الازهر ، واستقبلت حياة رغيدة ننعم بها .. معا .. ان شاء الله . ادعى لى يا حميدة .

هذا شيء جديد لم يخطر لها ببال . واذا كان الفتى جادا فقد حقق لها كثيرا مما تصبو اليه نفسها . وان نفسا كنفسها

مهما تناهى بها التمرد والجموح حرية بأن يروضها المال ويستانسها . وغمغم عباس معاتبا :

ـ الا تريدين أن تدعى لى ؟

فقالت بصوت خافت وقع فى أذنيه موقعا جميلا وان كان صونها نقطة ضعف فى جمالها :

ـ الله يوفق خطاك .

فتنهد مسرورا وقال :

ـ أمين . استجب لها يا رب . ستبتسم لنا الدنيا باذن الله . ارضى أنت على ترضى الدنيا جميعا .. انا لا أسالك شيئا الا الرضا .

واخذت تخرج من حيرتها رويدا رويدا ، فقد وجدت فى الظلمة التى كانت تتخبط فيها بصيص نور . نور الذهب اللامع. واذا كان شخصه لا يرضيها ، ولا يحرك انوثتها ، فعسى أن يبرز منه هذا الضوء اللامع الذى يستهويها ، ويلبى نزوعها الصارخ الى القوة والجاه . وهو بعد هذا كله ـ وقبل هذا أيضا ـ الفتى الوحيد الصالح فى الزقاق ! اجل ! هذا حق لا ريب فيه . وقد خامرها شعور بالارتياح ، وانصتت اليه وهو يقول :

ـ الا تسمعينني يا حميدة ؟ انا لا أسالك الا الرضا !.

فارتسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة ، وغمغمت :

ـ وفقك الله .

فعاد يقول فى ابتهاج :

ـ ليس من الضرورى أن ننتظر حتى نهاية الحرب !.. سنكون أسعد مخلوقين فى الزقاق .

وقطبت فى تقزز ، وندت عنها هذه الكلمة بلا وعى ، وفى ازدراء شديد :

ـ زقاق المدق !

فنظر اليها فى ارتباك ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق الذى يحبه ويؤثره على الدنيا جميعا ، وتساءل منزعجا : ترى هل تزدرى هذا الزقاق الطيب كأخيها حسين ؟ حقا لقد رضعا من ثدى واحد ! . وأراد أن يمحو ما تركه فيها من اثر سيىء فقال :

— نختار المكان الذى تحبين . هناك الدراسة والجمالية وبيت القاضى ، اختارى بيتك حيثما تشائين !

وتنبهت لقوله فى حيرة ، وأدركت انها تكلمت أكثر مما ينبغى ، وأن لسانها خانها بلا وعى منها ، فعضته على شفتيها ، ثم قالت باتكار :

— بيتى ؟ ! اى بيت تعنى ؟ ! ما شأنى انا فى هذا الامر !

فهتف بها فى عتاب :

— كيف تقولين هذا القول ؟ ألم يكفك ما عانيت من عذاب ؟ ألا تدرين أى بيت أعنى ؟ سامحك الله يا حميدة . اعنى البيت الذى سنختاره معا ، بل الذى تختارينه انت وحدك ، لانه بيتك أنت دون الناس جميعا . وانى أهاجر فى سبيل هذا البيت كما علمته . ولقد دعوت لى بالتوفيق ، فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة . اتفقنا يا حميدة وانتهى الأمر .

هل اتفقا حقا ؟ أجل اتفقا ! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنازعته الحديث والخوض فى أحلام المستقبل . وماذا يضيرها من ذلك ؟ أليس هو فتاها على أى حال ؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردد . أحقا أصبحت فتاة اخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئا ؟ واحست عند ذاك يده تتلمس راحتها وتقبض عليها وتضفى على اناملها الباردة حرارة ودفئا . أتنتزعها منه وتقول له : « كلا .. لا شأن لى فى هذا الأمر ! » ؟ ولكنها لم تفعل شيئا ، ولم تنبس بكلمة ؛ ومضيا معا وراحتها فى كفه الساخنة . وشعرت بأصبعه تشد عليها بحنان وسمعته يقول :

— سنتقابل دوما . اليس كذلك ؟

وابت ان تنبس بكلمة ، فقنع بلغة الصمت وقال مرة أخرى :

— ستقابل كثيرا ، ونزن امورنا جميعا . ثم اقابل أمك .. لا بد من الاتفاق قبل السفر .

وانتزعت راحتها من يده وهى تصيح فى جزع :

— سرقنا الوقت ، وابتعدنا كثيرا .. هلم الى العودة ..

ودارا على عقبيهما معا وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت بعض اصداء السعادة التى يجيش بها قلبه . واستحثا الخطى حتى بلغا الغورية فى دقائق ، وافترقا عندها ، فمالت هى اليها ، واتجه هو نحو الأزهر ليعود الى الزقاق من طريق الحسين .

١١

« اللهم عفوك ورحمتك » .

نطقت الست ام حسين بهذه العبارة وهى ماضية الى مسكن السيد رضوان الحسينى . كانت تسأل الله العفو والرحمة فى ياس وغيظ وحنق مما تعانيه . أعياها اصلاح زوجها وعجزت عن ردعه . فلم تر بدا فى النهاية من مقابلة السيد رضوان ، لعله أن يفلح هو — بصلاحه وهيبته — فيما اخفقت هى فيه . ولم يكن سبق أن فاتحت السيد فى مثل هذا الأمر الفظيع ، ولكن يأسها من ناحية ، واشفاقها من شماتة الأعداء اذا جاهرت بالخصومة والطحان من ناحية أخرى ، دفعاها الى طرق هذا الباب الصالح الآمن لعل وعسى ! . وفى البيت استقبلتها حرم السيد رضوان فجلستا معا بعض الوقت . وحرم السيد فى منتصف الحلقة الخامسة من عمرها ، وهى حلقة يعتز بها نساء كثيرات ، ويعتبرنها

الغاية من النضج الانثوى ؛ ولكن المراة كانت مهزولة مهدمة . تلوح في جسمها وروحها آثار السهام التى سددها اليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها اطفالها طفلا بعد طفل . وكانت لذلك تضفى على بينها الساكن روحا من الحزن والكآبة لم يجد ايمان السيد العميق فى تبديد غشاوته . وكانت تبدو ، فى هزالها وحزنها ، صورة مناقضة لصورة زوجها القوى المشرق المطمئن البسام . كانت امراة ضعيفة فلم يقلها ايمانها — على رسوخه — من عثرتها المضنية . وكانت ام حسين تعلم بامرها ، فاقبلت تشكو بثها وهمها بقلب مطمئن الى انه سيجد اذنا مصغية تستميلها التشكوى والاحزان . ثم استاذنت فى مقابلة السيد رضوان فغابت المراة لحظات ثم رجعت تدعوها الى لقائه ، وقادتها الى حجرته .

وكان السيد يجلس على فروة مسبحا ، المجمرة امامه ، وابريق الشاى على يمينه . كانت حجرته الخاصة صغيرة انيقة ، تحدق بأركانها الكنبات ، ويغطى ارضها سجاد شيرازى . تقوم فى وسطها مائدة مستديرة رصت عليها الكتب الصفر ، ويتدلى فوقها من السقف مصباح غازى كبير . وكان السيد يرتدى جلبابا رماديا فضفاضا ، وطاقية صوفية سوداء يضىء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدر المنير . فى هذه الحجرة كان يخلو الى نفسه كثيرا ، قارئا أو مسبحا أو متاملا . وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وائمة الأذكار يتذاكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء . ولم يكن السيد رضوان معدودا من العلماء المتفقهين فى الدين ، ولا من الأذكياء الأفذاذ ، ولا من أولئك الذين يجهلون اقدارهم فيضعونها من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقتها ، ولكنه كان مؤمنا صادقا ، ورعا تقيا ، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدره السمح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته ، فكان بحق من أولياء الله الصالحين .

وقد استقبل ام حسين واقفا ، غاضا بصره ، فاقبلت عليه في ملاءتها مبرقعة ، وسلمت عليه بيد ملتفة بطرف الملاءة كيلا تنقض وضوءه . رحب بها الرجل قائلا :

— اهلا وسهلا بجارتنا الفاضلة ..

ودعاها الى الجلوس فجلست على الكنبة قبالته . وتربع الرجل على الفروة وراحت ام حسين تدعو له :

— الله يكرمك يا حضرة السيد ويطيل عمرك بحق جاه المصطفى ..

وكان يحدس ما حملها على مقابلته . فلم يسالها عن صحة المعلم زوجها كما تقضى بذلك آداب الضيافة ! وكان يعلم كالآخرين بسيرة المعلم كرشة ، وتناهى اليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار فى ظروف سابقة مماثلة .. فايقن انه اقحم فى هذا النزاع المتجدد على غير ارادة . وسلم للأمر الواقع ، وتلقاه بصدره الرحب كما يتلقى غيره مما يكره ، وابتسم ابتسامة لطيفة وقال يشجعها على الكلام :

— خير ان شاء الله .

لم تكن المراة تعرف التردد ، ولا كان الحياء من اسباب ضعفها فى يوم من الايام ، بل هى امراة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة ، ولم تكن امراة تفوقها مراسا فى الزقاق كله اللهم الا حسنية الفرانة ؛ لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ :

— يا سيد رضوان ، انت الخير والبركة ، وانت رجل زقاقنا الفاضل ؛ لذلك قصدتك اسالك المعونة فى شدتى ، واشكو اليك الرجل الفاجر زوجى ..

وعلا صوتها فى آخر كلامها واخشوشن ، فابتسم السيد مرة اخرى ، وقال بصوت لا يخلو من رنة الأسف :

— هاتى ما عندك يا ست ام حسين . انى مصغ اليك ..

فتنهدت المرأة وقالت :

ـ الله يرفع قدرك يا زين الرجال . الرجل يا سى السيد لا يحتشم ولا يرعوى . وكلما حسبت انه قد تاب عن غيه طلع علي بفضيحة جديدة . انه رجل فاجر لا يرده عن شهوة لا سن ولا زوجه ولا ابناء . ولعلك علمت بامر هذا الشاب الرقيع الذى يوافيه كل ليلة الى القهوة ؟!. هذه هى فضيحتنا الجديدة . .

ولاحت فى العينين الصافيتين سيماء الكدر ، واطرق متفكرا مغتما . اغتم الرجل الذى عجز الم الشكل المبرح عن ان ينال من صفاء نفسه ، ولبث صامتا ساكنا ، يتعوذ قلبه من الشيطان وعبثه . واتخذت المرأة من حزنه مبررا قويا لغضبها الفظيع . وهدرت قائلة بنبرات فظيعة :

ـ فضحنا الرجل المتهتك . والله لولا عشرة العمر والابناء لهجرت بيته لغير رجعة ابدا . أيرضيك هذا العار يا سى السيد؟! أيرضيك هذا السلوك الشائن؟! لقد نصحته فلم ينتصح . وانذرته فلم يرعو . فلم اجد سبيلا الاك . وما كنت احب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الانباء المخجلة ، ولكن لا حيلة لى . وانت سيد الحى جميعا ورجله الفاضل . وامرك مطاع . فلعلك بالغ منه مالم يبلغه كلامى ولا كلام الناس جميعا ، حتى اذا تبين لى أن نصحك نفسه لا يجدى كان لى معه شأن آخر . اجل انى ادارى اليوم غضبى . ولكنى اذا يئست من صلاحه فسأضرم النار فى الزقاق جميعا واجعل من جسده النجس حطاما لها . .!

فحدجها السيد بنظرة عتاب وقال لها بهدوئه المألوف :

ـ افرخى روعك يا ست أم حسين . ووحدى الله ، ولا تغلبى الغضب على نفسك . انت ست طيبة ! والكل يشهد لك بالفضل! فلا تجعلى من نفسك وزوجك نادرة تلوكها الالسن . الزوجة الطيبة غطاء محكم يستر ما امر الله به أن يستر . عودى الى دارك آمنة مطمئنة ، ودعى لى هذا الامر ، والله المستعان . .

فقالت المرأة وهى تتمالك انفعالها :

— الله يكرمك ، الله يسعدك ، الله يشرف قدرك . أنت يا سيدى الملاذ والماوى ، وسأدع هذا الأمر بين يديك وانتظر ، وربنا بينى وبين هذا الرجل الفاجر . .

وسكن الرجل خاطرها بما وسعه من كلم طيب ، وكان كلما ذكر كلمة طيبة دعت له المرأة وانهالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفا من فضائحه ، حتى أوشك صبر الرجل أن ينفد! ثم ودعها مكرمة وهو يتنهد من الأعماق !. وعاود جلسته متفكرا . كان يتمنى بلا شك لو لم يقحم فى هذا الأمر ، أما وقد وقع المحذور فلا معدى عن انجاز وعده . ونادى خادمه ، وامره أن يدعو اليه المعلم كرشة ، فمضى الغلام على عجل . وانتظر ساكنا ، وذكر أنه يدعو لحجرته — لأول مرة — فاسقا ، فلم يدخلها قبل ذلك الا الفقهاء والصوفيون . وتنهد من الأعماق ثم قال لنفسه : « أن من يهدى فاسقا خير ممن يجالس مؤمنا » . ولكن هل يبلغ هداية الرجل حقا ؟. وهز راسه الكبير واستشهد بقوله تعالى : « انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » . ومضى يتعجب من غواية الشيطان للانسان ، وكيف يشذ به عن فطرة الله السوية ، ثم قطع عليه حبل تاملاته دخول خادمه معلنا حضور المعلم ، فأذن له . ونهض لاستقباله . وجاء المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل ، والقى على السيد من تحت جفنيه الثقيلين نظرة تجلة واحترام ، وانحنى على يده مسلما . ورحب به السيد رضوان ودعاه للجلوس ، فجلس الرجل فى المكان الذى كانت تجلس فيه زوجه قبل هنيهة ، وملأ له قدحا من الشاى . كان المعلم آمنا مطمئنا لا يتوجس خيفة ، ولا يدرى شيئا عما دعا السيد الى استدعائه . والحق أن من بلغ مبلغه من الذهول والشرود خليق بأن يفقد كل

قدرة على التوجس والحيطة والحدس . وقد قرأ السيد فى عينيه نصف المغمضتين الطمانينة ، فقال له بهدوء مبتسما :

— شرفت دارنا يا معلم .

فرفع المعلم يديه الى عمامته وقال :

— شرف الله قدرك يا سى السيد .

فقال السيد :

— لا تؤاخذنى على دعوتك فى اثناء عملك ، فقد رايت ان احادثك فى امر هام كما يتحادث الاخوان ، ولم اجد لذلك مكانا انسب من البيت .

فاحنى المعلم راسه وقال بادب جم :

— انى طوع امرك يا سى السيد ..

وخاف السيد الاسترسال فى المجاملات فيضيع الوقت سدى ، وتطول مدة غياب المعلم عن عمله ، فاراد ان يخوض الموضوع بلا تردد ، ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا تعوزه الصراحة ، فقال بلهجة جدية :

— أحب أن احدثك كما يتحدث الاخوان ، أو كما ينبغى ان يتحادث الاخوان اذا كان رائدهم المودة والاخلاص . والاخ المخلص من اذا راى أخا له يهوى تلقاه بذراعيه ، أو وجده يتعثر اقاله من عثرته ، أو حسبه فى حاجة الى النصح محضه النصيحة ..

وفترت حماسة المعلم ، وادرك فى تلك اللحظة فحسب انه وقع فى فخ ، فلاحت فى عينيه المظلمتين نظرة ارتياب ، وتمتم فى ارتباك وهو لا يدرى ماذا يقول :

— نطقت بالحق يا سى السيد ..

ولم يخف على السيد شىء من ارتباكه وارتيابه ، فقال بلهجة جدية أيضا لطفتها نظرته الوديعة الصافية :

— أخى ، ساصارحك بما فى نفسى فلا تؤاخذنى على صراحة ،

فما أستحق الموجدة من كان هدفه الاصلاح وباعثه المودة والاخلاص . والحق يا أخي انى رأيت فى بعض سلوكك ما ساءنى، وما لا أعده خليقا بك ..

وقطب المعلم كرشة منزعجا ، وجعل يخاطب السيد فى سره قائلا :

« مالك انت ولهذا ! » . ثم قال متصنعا الدهشة :

— أساءك سلوكى حقا يا سى السيد ؟!.. معاذ الله ..

ولم يعبأ السيد دهشته المتصنعة واستدرك قائلا :

— ان الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة فيلجها خفية وعلانية ويعيث فسادا ، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب مفتح الابواب ونلزمه ان يغلق أبوابه فى وجه الشيطان ، فماذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة ؟ ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون الشيطان بأنفسهم ؟!.. هذا ما ساءنى يا معلم كرشة ..

شباب شيوخ ! أبواب مفاتيح ! شيطان شياطين ، لماذا لا يريح نفسه ويدع الناس يستريحون ؟!. وهز رأسه حيرة ، ثم قال بصوت منخفض :

— لا أفهم شيئا يا سيد رضوان ..

وحدجه السيد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخلو من عتاب :

— حقا ؟!

فغمغم المعلم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف :

— حقا ..

فقال السيد رضوان بحزم :

— حسبتك تعلم ما أعنى . والحق انى أعنى هذا الشاب الرقيع ..

وسدت المنافذ فى وجهه . فاحتدم الغيظ فى نفسه . ولكنه كالفار الواقع فى المصيدة جعل يتخبط وراء المنافذ المسدودة . فتساءل بصوت ينم عن الهزيمة :

— اى شاب يا سى السيد ؟

فقال السيد بلهجة وديعة متحاميا اثارته :

— انت تعرفه يا معلم . وانى لم افاتحك بامره لاسىء اليك او اخجلك ، معاذ الله ، ولكن لارشدك لما فيه الخير . ما فائدة النكران ؟ الجميع يعرفون والجميع يتكلمون . وهذا لعمرى ما آلمنى اشد الألم . آلمنى أن اجدك مضغة الافواه ..

فغلب المعلم الغضب ، وضرب فخذه بقبضة قاسية . وقال بصوت أجش تطايرت فظاظته مع نثار ريقه :

— ما بال الناس لا يريحون ولا يستريحون ! احقا تراهم يتكلمون يا سى السيد ؟ هكذا هم أبدا منذ خلق الله الأرض ومن عليها . انهم يخوضون فى الأعراض لا لقبح يستقبحون . ولكن ليتنقصوا اخوانهم . ولو لم يجدوا نقيصة لخلقوها خلقا ثم خاضوا فيها ، اتحسبهم يتهامسون تأففا وازدراء ؟ كلا والله . انه الحسد يأكل قلوبهم اكلا ... ؟

وهال السيد هذا الرأى ، فقال له دهشا :

— يا له من رأى خاسر ! أتحسب أن هذا الفعل الشائن مما تحسد عليه ؟

فتهاتف ضاحكا وقال بحقد :

— لا تشك فى قولى يا سيد رضوان ! انهم طغمة هالكة . وليس للخير من رجع فى نفوسهم (وأدرك عند ذاك انه سلم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) : الا تدرى من هذا الشاب ؟ انه شاب مسكين اداوى بؤسه بالاحسان !!

فضجر السيد من مراوغته ، وحدجه بنظرة كأنما يقول له : « أيجوز هذا القول على ! » ثم قال :

ـ يا معلم كرشة ، الغالب أنك لا تفهمنى . انا لا احاكمك ولا أعيرك ، فكلانا فقير الى رحمة الله وعفوه ، ولكن لا تحاول النكران . اذا كان هذا الشاب مسكينا فدعه لخالقه والدنيا ملأى بالمحتاجين ان احببت احسانا .

ـ ولماذا لا يكون احسانى لهذا الشاب ؟ يؤسفنى انك لا تصدقنى وانا رجل برىء .

ونظر السيد الى الوجه المشرب بالسواد فى استياء مكتوم ، وقال بتؤدة :

ـ هذا شاب رقيع سيىء السمعة ، ولقد أخطأت فى محاولة خداعى ، وكان الاخلق بك ان تقدر نصحى ، وتواجهنى صادقا صريحا .

وادرك المعلم أن السيد قد استاء وان لم يلح الاستياء فى وجهه ، فلاذ بالصمت كاظما غيظه ، واخذ يفكر فى الانصراف . ولكن السيد استدرك قائلا :

ـ انى ادعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك ، ولست يائسا من جذبك للخير . اهجر هذا الشاب انه رجس من عمل الشيطان . وتب الى ربك انه غفور رحيم . لو كنت من الصالحين كنت الآن من الموسرين ؛ ولكنك تربح كثيرا وتخسر فى بالوعة الرجس كثيرا ؛ وتبقى على الايام فقيرا معدما . فماذا قلت ؟

وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية ، وخاطب نفسه قائلا انه حر يفعل ما يشاء ، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسينى نفسه ! ولكنه لم يفكر لحظة واحدة فى اغضاب السيد ولا تحديه . فاطبق جفنيه على عينيه المظلمتين ، وقال بصوت منكر :

ـ هذا امر الله !

فلاح الانزعاج فى الوجه الصبيح وقال بحدة :

— بل أمر الشيطان ! حرام عليك يا شيخ .
فغمغم المعلم قائلا :
— لما يأمر الله بالهدى !
— لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك . اهجر هذا الشاب او دعنى اصرفه بسلام ..
فانزعج المعلم وغلبه الجزع ، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بحزم :
— كلا يا سى السيد ، لا تفعل ..
فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء ، وقال بصوت ينم عن الأسى :
— ارايت كيف تؤثر الغواية على الهداية ؟ !
— ربنا الهادى .
وتولاه اليأس من هدايته ، فقال متضجرا :
— اقول لك للمرة الأخيرة ، اهجره او دعنى اصرفه بسلام..
فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح الى طرف الكنبة كانما يهم بالنهوض :
— كلا يا سى السيد . اضرع اليك ان تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية .
فتعجب السيد من عناده الوقح ، وتساءل متقززا :
— الا يخجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن ؟ !
ونهض المعلم قائما وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه ، وهو يقول :
— ان الانسان ليقارف أفعالا كثيرة شائنة ، وهذا واحد منها، فادع لى بالهداية ، ولا تغضب على ، وتقبل عذرى واسفى . ماذا يملك الانسان من امر نفسه ؟
فابتسم السيد ابتسامة حزينة ، وقال وهو ينهض قائما كذلك :

ــ يملك كل شيء لو أراد ، ولكنك لن تفقه معنى لقولى ، فالأمر لله

ومد له يده قائلا :

ــ مع السلامة .

وغادر المعلم كرشـــة البيت مقطبا مدمدما ، يسب الناس والزقاق والسيد رضوان .

- ١٢ -

وانتظرت أم حسين متصبرة متجلدة يوما ويومين . كانت تقف وراء خصاص النافذة المطلة على القهوة تترقب مقدم الشاب ، فتراه قادما يخطر ثم تراه مرة أخرى ــ عند انتصاف الليل ــ وزوجها منصرفين صوب الغورية !! ابيضت عينـــاها من المقت والغضب ؛ وتساءلت يا ترى هل ذهبت نصيحة السيد رضوان هباء ؟ وزارت السيد مرة أخرى ؛ فهز رأسه آسفا وقال لها : « دعيه لحاله حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » ، فرجعت الى شقتها تغلى غليانا ، وتتوعد شرا . لم تعد تقيم وزنا لشماتة الشامتين ، وانتظرت بالنافذة حتى أتى الليل وقدم الشاب ؛ فتلفعت بملاءتها وغادرت الشقة كالمجنونة ؛ ونزلت السلالم وثبا فكانت أمام القهوة فى دقيقة واحدة . كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى أهل الزقاق الى القهوة كعادتهم كل ليلة ، وكان المعلم كرشة مكبا على صندوق الماركات فى شبه نعاس فلم ينتبه لحضورها . واستقر بصرها الزائغ على الشاب وهو يرشف الشاى من قدح فى يده ، فاقتربت منه مارة أمام المعلم الذى لم يرفع بصره اليها ، وضربت القدح بكفها فاندلق على حجر الشاب الذى قام فزعا صارخا ! وصاحت به بصوت كالرعد :

— تشرب شايا يا بن العاهرة !

واحدقت الأعين بالمراة سواء من يعرفها من اهل الزقاق او من لا يعرفها من بقية الجلوس . والتفت نحوها المعلم كرشة كانه يستيقظ بصب دلو ماء على وجهه ، وهم بالوقوف ، ولكن المراة دفعته فى صدره ، وهى تصرخ فى وجهه وقد اخرجها الغضب عن وعيها :

— اياك وان تتحرك يا فاجر (والتفتت نحو الشاب واستدركت) ماذا أفزعك يا شاطر . يا مرة فى ثياب رجل ، هلا أخبرتنى عما يدعوك الى المجىء هنا ؟!

ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد الجم الغضب لسانه، واربد وجهه ، ولكنها صاحت فى وجهه :

— أن حدثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هشمت عظمك امام الناس .

واندفعت نحو الشاب الذى تقهقر حتى التصق بالشيخ درويش وهى تصيح :

— أتريد أن تخرب بيتى يا رقيع يا ابن الرقعاء !

فقل لها الشاب مرتعدا :

— من انت ياستى ، ماذا فعلت حتى ..

— من أنا ؟ ألم تعرفنى ؟!.. انا ضرتك ..

وانهالت عليه ضربا ، فسقط طربوشه ، وسال الدم من أنفه، ثم قبضت على ربطة رقبته وشدت عليها بعنف حتى اختنق صوته . وقد ذهل الجلوس ، وحملقوا فيما يقع امامهم بأعين دهشة . ولكن قلوبهم رقصت جذلا ، ومنوا انفسهم برؤية منظر بهيج مسل . فى حين دعا صراخ أم حسين المعلمة حسنية الفرانة فجاءت مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغرا فاه . ثم ظهر بعد قليل زيطة صانع العاهات ، ولكنه وقف بعيدا كأنه شيطان انشقت

عنه الأرض . ولم تلبث نوافذ البيتين ان فتحت واطلت منها الرءوس تستطلع ما هنالك . واهاج الغضب المعلم كرشة . ورأى فتاه يتضور متلويا . محاولا عبثا أن يخلص عنقه من قبضة المرأة القوية ، فاندفع نحوهما ثائرا وهو يرغى زبدا كالفحول ، وشد على ساعدى امرأته صائحا فى وجهها :

— اتركيه يا مرة وكفى فضيحة !

واجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها وقد سقطت ملاءتها عند قدميها ، فجن جنونها ، وتعالى صراخها ، وامسكت بتلابيب المعلم وهى تصيح :

— أتضربنى يا فاجر دفاعا عن رفيقك ! اشهدوا يا ناس على الرجل الفاجر !

وانتهز الشاب فرصة افلاته فتطاير خارج القهوة ، وعدا لا يلوى على شيء . واستمرت المعركة بين المعلم وزوجه ، هى تشد على تلابيبه ، وهو يحاول دفعها والتخلص منها ، حتى نهض اليهما السيد رضوان الحسينى وخلص بينهما . وتلفعت المرأة بملاءتها وهى تلهث ، وصرخت بصوت كادت تتصدع له اركان القهوة :

— يا حشاش ، يا مذهول ، يا وسخ . يا ابن الستين ، يا ابا الخمسة ، وجد العشرين ، يا عرة ، يا رطل ؛ سفخص على وجهك الأسود ..

فحدجها المعلم بنظرة قاسية وهو منتفض من الانفعال . وصاح بها :

— لمى لسانك يا مرة ، وسدى هذا المرحاض الذى يقذفنا بوسخه !

— قطع لسانك . ما مرحاض الا انت ، يا خرع ، يا مفضوح، يا خلل العيال ..

فلوح لها بقبضته وهو يقول :

— تخرفين كعادتك . كيف سولت لك نفسك الاعتداء على زبائن القهوة ؟

فضحكت المراة ضحكة مروعة وقالت بسخرية مريرة :

— زبائن القهوة ؟! العفو ! ما قصدت زبائن القهوة بسوء ، ولكني اعتديت على زبون المعلم الخصوصي !

وتدخل السيد رضوان مرة اخرى ، وطلب من المراة ان تمسك ، وأن تعود الى بيتها ؛ ولكنها قالت وقد غيرت نبرات صوتها بجهد شديد :

— لن أعود الى بيت الفاسق ما حييت ..

فألح عليها ، وتطوع عم كامل لمعاونته ، فقال لها بصوته الرفيع الملائكي :

— عودى الى بيتك يا ست أم حسين . عودى ووحدى الله واسمعى كلام السيد رضوان ..

وحال السيد بينها وبين مغادرة الزقاق ، ولم يتركها حتى رجعت الى البيت مظهرة السخط والتذمر . واختفى عند ذاك زيطة ، وانسحبت حسنية الفرانة يسبقها زوجها ، وقد لكمته فى ظهره وهى تقول له :

— لا تفتأ تندب حظك وتقول مالى اضرب من دون الرجال جميعا ! أرأيت كيف يضرب أسيادك وأسياد من خلفوك .. !

وخلفت جعجعة المعركة صمتا ثقيلا ، وتبادلت الحاظ نظرات ساخرة تشى بالخبث والسرور ، وكان اشد الحاضرين سرورا وارتياحا الدكتور بوشى ، وهو الذى هز راسه آسفا وقال فى نبرات حزينة :

— لا حول ولا قوة الا بالله ، اللهم اصلح الحال ..

وكان المعلم « كرشة » لا يزال ملازما مكانه — الذى باشر فيه المعركة — فتنبه الى فرار فتاه ، وقطب فى عناد ، وبدا منه

أنه يريد اللحاق به ، ولكن السيد رضوان ـ وكان غير بعيد عنه ـ وضع يده على كتفه وقال بهدوء :

ـ اقعد يا معلم واسترح ..

فنفخ مغيظا محنقا ، وتراجع متثاقلا وهو يخاطب نفسه فى حقد شديد :

ـ لبؤة ، فاجرة ، ولكن الحق على ، أنا أستاهل أكثر من هذا ، مغفل من لا يبيت امرأته بالعصا ..

وعلا صوت عم كامل وهو يقول :

ـ وحدوا الله يا هوه ..

وارتمى المعلم كرشة على مقعده . ثم أخذه الغضب كرة أخرى ، فثارت ثائرته ، وراح يضرب جبهته بكف غليظة قاسية صائحا :

ـ أنا فى الأصل مجرم قاتل . وجميع هذا الحى عرفنى مجرما يرتوى بالدماء . أنا مجرم ؛ أنا ابن كلب ، أنا وحش ؛ ولكنى أستاهل كل اهانة لأنى تبت بمحض ارادتى عن الشر (ورفع راسه) انتظرينى يا مرة يا وسخة ، ستلقين الليلة كرشة الزمان الأول ..

وصفق السيد رضوان بيديه وهو يتربع على الأريكة ، وخاطب المعلم قائلا :

ـ وحد الله يا معلم كرشة . نريد أن نشرب الشاى فى هدوء !

ومال البوشى على أذن عباس الحلو وهمس قائلا :

ـ لا بد أن نصلح بينهما ..

فسأله الحلو بخبث :

ـ بين من ومن ؟

فكتم الدكتور ضحكة فخرجت من أنفه ريحا كالفحيح ، وقال :

— أتظنه يعود الى القهوة وقد حصل ما حصل ؟

فمط الحلو بوزه وقال :

— ان لم يعد هو جاء غيره !

ثم شمل القهوة جوها المألوف ، وعاد القوم الى ما كانوا فيه من لعب وسمر ، وكادت تنسى المعركة وتذهب آثارها ، لولا أن هاج المعلم كرشة مرة اخرى ، وصاح مرعدا كالوحوش الضارية .

— لا لا . . لا يمكن أن اذعن لارادة امرأة . انا رجل ، حر ، أفعل ما أشاء ، لتترك البيت اذا شاءت ، ولتتسكع مع الشحاذين ، انا مجرم . . انا من آكلي لحوم البشر . .

ورفع الشيخ درويش راسه بغتة وقال دون ان يلتفت نحو المعلم :

— يا معلم ، امرأتك قوية ، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال ، هى ذكر وليست بانثى ، فلماذا لا تحبها ؟

وصوب المعلم نحوه عينين ناريتين وصاح فى وجهه :

— اقطع لسانك !

وصاح أكثر من واحد من الجالسين :

— حتى الشيخ درويش !.

وولاه المعلم ظهره صامتا ، وراح الشيخ درويش يقول :

— هذا شر قديم ، يسمونه فى الانجليزية Homosexuality وتهجيتها H o m o s e x u a l i t y ولكنه ليس بالحب . الحب الحقيقى لآل البيت . تعالى يا حبيبتى . . تعالى يا ست . . انا عاجز يا ام العواجز . .

— ١٣ —

كانت مقابلة الأزهر فتحا جديدا فى حياة عباس الحلو . عهد الحب . شعلة وهاجة تضطرم فى الفؤاد ، نشوة سحر تسكر العقل . شهوة تصهر الأعصاب . كان مرحا مختالا مزهوا ، كأنه فارس لا يشق له غبار او ثمل قد امن عوادى الخمار . وتقابلا بعد ذلك مرات ، فلم يملا الحديث عن مستقبلهما . اجل بات مستقبلهما واحدا ، ولم تنكر حميدة ذلك ، لا فى حضوره ، ولا فى غيابه ! ولكم تساءلت : ترى هل تظفر واحدة من صويحباتها بنات المشغل بخير منه ؟.. وتعمدت أن تسير معه وقت ظهورهن، وجعلت تسترق النظر الى أعينهن الفاحصة وكانها ارتاحت الى ما تركه فيهن من اثر . وقد سالنها يوما عن الشـاب « الذى رأينه معها » فقالت :

— خطيبى .. صاحب صالون حلاقة !

وقالت لنفسها : ان اية واحدة منهن لتعد نفسها سعيدة اذا خطبها صبى قهوة او صبى حداد . وهذا صاحب دكان : أوسطى . وأفندى أيضا ! كانت مشغولة أبدا بالموازنة والاختيار والتفكير ، فلم تنجذب الى الدنيا السحرية التى يهيم فى سماواتها . بيد أنه كان يبلغ بها التـاثر فى لحظات منتهاه ؛ فكأنها كانت — فى تلك اللحظات — محبة حقا . وفى احدى هذه اللحظات استوهبها قبلة ، فلم تقل لا ولم تقل نعم . ارادت ان تذوق هذه القبلة التى سمعت عنها كثيرا وتغنت بها كثيرا . ونظر هو محاذرا يراقب المارة ، وتحسس ثغرها فى ظلمة المساء . ثم وضع شفتيه على شفتيها وهو يرتعد ، وغمرتها أنفاسه الملتهبة ، فسالت الى نحرها وطرفت عيناها .

ثم دنا موعد سفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة . واختار الدكتور بوشي — الذى تيسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق — سفيرا له لدى أم حميدة ، وسرت المراة بالشاب الذى تراه الصالح الوحيد لابنتها فى الزقاق ، وكانت تعده دائما « صاحب صالون وقد الدنيا » ولكنها خافت شماس ابنتها المتمردة ، وظنت انها مقبلة على معركة طاحنة ، فما أدهشها بعد ذلك الا أن تتلقى الفتاة الخبر برضا وتسليم مما جعلها تهز رأسها وتقول :

— هذا فعل النافذة وراء ظهرى !

وكلف الحلو عم كامل بصنع صينية بسبوسة فاخرة وارسالها لأم حميدة ، واستأذن فى مقابلتها ، ومضى اليها مصحوبا بعم كامل شريكه فى بيته وحياته . وقد وجد عم كامل صعوبة شديدة فى ارتقاء السلم ، وجعل يتوقف كل درجتين لاهثا متوكئا على الدرابزين ، حتى قال للحلو مداعبا عند أول « بسطة » :

— هلا أجلت الخطبة لحين عودتك من الجبش ؟ !

ورحبت بهما أم حميدة ، وجلس ثلاثتهم يتبادلون طيب المجاملات ، حتى قال عم كامل :

— هذا عباس الحلو ابن زقاقنا ، وابنك ، وابنى ، يطلب اليك يد حميدة ..

فابتسمت المراة وقالت :

— أهلا بالحلو الذى هو حلو ، ستكون ابنتى عنده وكأنها لم تفارقنى ..

وتحدث عم كامل عن الحلو وأخلاقه ، وعن الست أم حميدة وأخلاقها ، ثم قال :

— سيغادرنا الفتى فتح الله عليه ، وقريبا تتحسن حاله فيتم له ولنا المراد باذنه تعالى ..

ودعت أم حميدة له ، ثم داعبت عم كامل قائلة :

— وانت يا عم كامل متى تنوى وتتوكل على الله ؟

فضحك عم كامل حتى صار وجهه كالطماطم فى ابانها ، ومسح على كرشه المحيط وقال :

— دون ذلك هذا الحصن المنيع ..!

وقراوا الفاتحة وشربوا الشربات ..

ثم كان بعد ذلك بيومين اللقاء الأخير بالأزهر . سارا واجمين ، والحلو يشعر بدموعه تدق أبواب صدره لتجد سبيلا الى مجارى عينيه . وقد سالته :

— هل تغيب طويلا ؟

فقال الشاب بصوت رقيق حزين :

— ربما امتدت خدمتى عاما او عامين ، ولكن لن تفوتنى فرصة مناسبة للحضور ..

فغمغمت قائلة ، وكانت تجد نحوه فى تلك اللحظة ودا عميقا :

— يا له من زمن ؟

فابتهج قلبه — على اساه — لهذه العبارة التى تنم عن الجزع ، وقال منفعلا :

— هذا آخر لقاء قبل السفر ، والله وحده يدرى متى يكون اللقاء التالى . وانى لفى حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور . اجدنى محزونا لانى مبتعد عنك ، ثم اجدنى مسرورا لأن هذا الطريق الطويل الذى اخترت هو الطريق الوحيد المفضى اليك . ولكنى سأترك قلبى ورائى فى الزقاق ، فتصورى رجلا مهاجرا بلا قلب ، رمى به السفر الى بلد ناء ، وابى قلبه أن يسافر معه . وغدا فى التل الكبير ، وعند مطلع كل صباح ، سأفتقد النافذة المحبوبة التى كنت اراك تكنسين حافتها ، أو تمشطين شعرك وراء فرجة مصراعيها ، وهيهات أن أجد لها أثرا . ولقاؤنا فى الموسكى والأزهر ماذا يبقى لى منه ؟ أواه يا حميدة ، هذا ما يتقطع له

قلبى ، دعينى آخذ منك كل ما استطيع أخذه ، ضعى راحتك فى يدى ، وشدى على يدى كما أشد على يدك . لله ما أطيب مسك . انه يرعش قلبى ، انى قلب كبير بين يديك ، يا عزيزة ، يا حبيبة ، يا روح قلبى يا حميدة . ما أجمل اسمك . كأنى اذا نطقت به استحلب سكرا ..

واستنامت الفتاة الى كلامه المتدفق الحار ، فلانت نظرة عينيها ، وغمغمت قائلة :

— أنت الذى اخترت السفر ..

فقال بصوت كالنواح :

— أنت السبب يا حميدة . انت انت السبب . انا والله احب زقاقنا ، وأحمد الله على ما يرزقنى به من كفاف . وما احب ان انأى عن الحسين الذى أقوم واقعد باسمه . ولكنى وا أسفاه لا أستطيع أن اهيىء لك الحياة التى ترضينها ، فلم أجد عن السفر مذهبا ، وربنا ياخذ بيدى ، ويجمعنا على اهنأ حال .

فقالت حميدة بتاثر شديد :

— سأدعو لك بالتوفيق ، وسازور سيدنا الحسين واساله أن يرعاك ويكتب لك النجاح . والصبر طيب ، والحركة بركة .

فتنهد من الأعماق وقال :

— أجل الحركة بركة ، ولكن يا ويلى من بلد لا أجد لك فيه ظلا ..

فغمغمت برقة :

— لن تكون هكذا وحدك ..

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها ، ورفع يدها حتى مست قلبه ، وهمس :

— حقا ؟!

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الهائمتين على الضوء

المنبعث من بعض الدكاكين . وغاب فى تلك اللحظة عن كل شىء ما عدا وجهها المحبوب ، وسالت هذه الكلمات من بين شفتيه :

— ما اجملك ، ما ارقك ، ما اعذبك . هذا هو الحب . انه عذب جميل يا حميدة ، الدنيا من غيره لا تساوى مليما واحدا .

ولم تدر ماذا تقول فتعوذت بالصمت ، وجرت كلماته متناغمة فى اذنيها ، فاخذتهما نشوة الطرب ، وودت الا يسكت ابدا ، وكانت حرارة العاطفة قد اذهلته عن وعيه فراح يقول :

— هــذا هو الحب ، هو كل ما لنا . فيــه الكفاية وفوق الكفاية . هو فى القرب السرور ، وفى البعد العزاء ، وفى الحياة حياة فوق الحياة ..

وسكت لحظة متنهدا ، ثم استطرد :

— اسافر باسمه ، وبفضله اعود وقد ربحت كثيرا .

فتمتمت وهى لا تدرى .

— كثيرا ان شاء الله ..

— باذن الله ، وببركة الحسين . وسوف يحسدك جميع اولئك الفتيات .

فابتسمت فى سرور قائلة :

— آه .. ما امتع هذا !

وانطوى الطريق وهما لا يشعران ، فضحكا معا فى فرح ، ثم دارا على عقبيهما ، واحس فى العودة ان اللقاء يقترب من نهايته ، فعاودته افكار الوداع والفراق ، وخبت نشوته كثيرا ، واعتوره الشجن ، وعند انتصاف الطريق سالها بلهفة :

— اين اودعك ؟

وادركت ما يعنيه ، وقلقت شفتاها ، فقالت متسائلة :

— هنا ؟!

ولكنه اعترض قائلا :

ـ لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفا ..
ـ أين تريد اذا ؟
ـ اسبقيني على البيت وانتظريني على السلم ..

وحثت خطاها ، وسار هو متمهلا فبلغ الزقاق وقد اغلقت دكاكينه ، واتجه نحو بيت الست سنية عفيفي لا يلوى على شيء . وارتقى السلم محاذرا فى ظلمة دامسة ، كاتما انفاسه ، يدا على الدرابزين . ويدا تتحسس الظلام . وعند « البسطة » الثانية لمست انامله طرف الملاءة . فخفق قلبه باعثا الشوق الحبيس فى اطرافه ، وقبض على ذراعها ، واقترب منها فى رفق ، وأحاطها بذراعيه ، ثم ضمها الى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر حنون مشوق ، وهوى اليها بفمه ، فوقع على انفها ، ثم هبط على شفتيها ، وكانتا منفرجتين لاستقباله ، وأخذته سنة من ذهول الحب لم يستيقظ منها حتى تخلصت من ذراعيه بلطف ، ومضت مصعدة وهي تهمس وراءها «مع السلامة» . لم يبلغ بها الانفعال يوما ما بلغه هذا المساء على السلم ، حيث في دقيقة قصيرة حياة طويلة مفعمة بالاحساس والعاطفة والحرارة ، وحسبت أن حياتها قد ارتبطت به الى الأبد .

***

وزار عباس الحلو أم حميدة تلك الليلة ، مودعا . ثم مضى الى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة ليمضي آخر سهرة فيها قبل سفره . وكان حسين يبدو مسرورا ظافرا لانتصار رأيه ، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذى ينم عن التحدى لسبب ولغير ما سبب :

ـ ودع هذه الحياة القذرة واستمتع بالحياة الحقيقية ..

فابتسم الحلو صامتا ، وقد أخفى عن صاحبه الكآبة القابضة

على قلبه لفراق الزقاق الذى يحبه ، والفتاة التى يهيم بها ، وجلس بين رفاقه يعانى أشواقه المكتومة ، ويتلقى كلمات التوديع وما تحمل من جميـل الدعاء . وقد باركه السـيد رضوان الحسينى ، ودعا له طويلا ، وقال ناصحا :

ـ اقتصد ما يفيض عن حاجتك فى غربتك ، واحذر الاسراف والخمر ولحم الخنزير ، ولا تنس أنك من المدق ، وانك الى المدق راجع ..

وقال له الدكتور بوشى ضاحكا :

ـ ستعود الينا ان شاء الله من الموسرين ، ولا بد عند ذاك من خلع أسنانك المسوسة هذه وتركيب طقم ذهبى يليق بالمقام.

فابتسم الحلو ، وكان يشـعر نحو الدكتور بامتنان ، لانه هو الذى أسفر بينه وبين أم حميدة ، ولانه هو ايضا الذى باع له أدوات صالونه بثمن لا بأس به كى ينتفع به فى سفره . وكان عم كامل واجما ساهما ، يحز الفراق الوشـيك فى فؤاده ، ولا يدرى كيف يلقى غدا الوحشـة والوحدة ، بعد أن يذهب الشاب الذى شاطره العيش أعواما طويلة ، والذى أحبه كأنه فلذة كبده . وكان كلما أثنى أحـد على الحلو أو توجع لفراقه اغرورقت عيناه حتى ضحكوا منه جميعا .

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسى وقال له :

ـ أصبحت الآن من المتطوعين فى الجيوش البريطانية ، واذا اظهرت بسالة فليس بعيدا ان يقطعك ملك الانجليز مملكة صغيرة ينصبـك عليهـا نائب ملك ، ومعنـاها بالانجليزية Viceroy وتهجيتها V i c e r o y ..

وفى الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملا بقجة ثيابه . كان الجو باردا شـديد الرطوبة ، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ الا الفرانة وسنقر صبى القهوة ، ورفع الشاب

رأسه الى النافذة المحبوبة فوجدها مغلقة ، فودعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطل على خصاصها . وسار متمهلا مطرقا حتى بلغ باب دكانه فألقى عليه نظرة اخرى متنهدا . وعلق بصره بلافتة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخط كبير « للايجار » ، فانقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا ..

وحث خطاه كأنما ليفر من عواطفه ، فما ان ترك الزقاق وراء ظهره حتى شعر بأن قلبه يفارقه اليه ..

١٤

كان حسين كرشة الذى اغرى عباس الحلو بالخدمة فى الجيش البريطانى ، ولما ان سافر الشاب الى التل الكبير ، وخلا منه الزقاق – حتى دكانه اكتراه حلاق عجوز – جن حسين جنونا واجتاحته ثورة عنيفة تفور مقتا للزقاق واهله . اجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق واهله ، ويتطلع لحياة جديدة ، ولكنه لم يستبن سبيله ، ولم يعزم عزمة صادقة على تحقيق أحلامه ، حتى ذهب الحلو ، فجن جنونه ، وكأنما كبر عليه أن يجدد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القذر ، وهو باق فيه لا يدرى كيف يتخلص منه ، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلفه الأمر ، وبغظاظته المعهودة قال لأمه يوما وقد امتلأ بعزمه حتى فاض عنه :

– أصغى الى ، لقد عزمت عزما لا رجعة فيه : فهذه الحياة لا تطاق ولا داعى مطلقا لتحملها قسرا !

وكانت المرأة آلفة سخطه ، معتادة سماع سبابه للزقاق وأهله ، وكانت تراه – كأبيه – سفيها لا يصح أن تحفل بهذيانه ، فسكتت عنه وهى تغمغم :

— اللهم تب على من هذه الحياة !

ولكن حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه الصغيرتين واربد وجهه الضارب للسواد :

— هذه الحياة لا تطاق . ولن احتملها بعد اليوم ..

ولم يكن فى وسعها ان تلزم الصمت طويلا حيال هياج أحد ، فنفد صبرها الرقيق ، وصاحت به بصوت دل على أن صوته متوارث عنها :

— مالك ؟! مالك يا ابن اللئيم ؟

فقال الشاب بازدراء :

— لا بد من هجر هذا الزقاق .

فحدجته بحنق ، وانتهرته قائلة :

— أجننت يا ابن المجنون !

فشبك ذراعيه على صدره وقال :

— بل ثبت الى رشدى بعد جنون طويل . افهمينى جيدا ، فلست القى القول على عواهنه . ولكنى أعنى ما اقول ، ولقد جمعت ثيابى فى البقجة ولم يبق الا ان أستودعك الله . بيت قذر ، زقاق نتن ، اناس بهائم !

وحدجته بنظرة متفحصة لتقرا عينيه ، فخبلها عزمه المتوثب وصاحت به :

— ماذا تقول ؟

فعاد يقول وكانه يخاطب نفسه :

— بيت قذر ، زقاق نتن ، اناس بهائم .

فهزت راسها ساخرة وقالت :

— مرحبا بك يا ابن الأماثل ، يا ابن كرشة باشا !

— كرشة قطران . كرشة المشبوه . اف اف ، الم تعلمى بأن فضيحتنا زكمت الأنوف جميعا ؟!. يغمزوننى فى كل مكان . يقولون هربت أخته مع واحد ، وسيهرب أبوه مع واحد آخر !

وضرب الأرض بقدمه حتى طقطق زجاج النافذة وصرخ غاضباً :

ـ ماذا يضطرني الى البقاء فى هذه الحياة ؟ سأحمل ثيابى وأذهب الى غير رجعة .

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

ـ جننت والله . أورثك الحشاش جنونه . ولكنى سأدعوه ليردك الى عقلك .

فصاح حسين باستهانة :

ـ ادعيه . نادى أبى ، نادى الحسين نفسه . انا ذاهب .. ذاهب .. ذاهب ..

ولما وجدته المرأة جاداً معانداً ، ذهبت الى حجرته فرأت البقجة منتفخة بالثياب كما قال ، فتولاها القنوط ، وصممت على احضار ابيه مهما تكن العواقب . كان حسين عزاءها الوحيد فى حياتها ، ولم تكن تتصور أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة ـ وكانت الى ذلك ترجو أن تستبقيه حتى بعد زواجه حين يتزوج . فلم تستطع مغالبة قنوطها ، وارسلت فى طلب أبيه وهى تصيح نادبة حظها : « علام يحسدوننا ؟. على خيبتنا القوية !. على فضائحنا !. على شقائنا » وجاء المعلم كرشة بعد قليل مكشراً عن أنيابه ، وانتهرها قائلاً :

ـ ماذا تريدين ؟ فضيحة جديدة ؟ زبون جديد رايتنى أقدم له الشاى !

فقالت المرأة ملوحة بيدها كالنادبة :

ـ فضيحة ابنك ! أدركه قبل أن يهجرنا ، فقد ضاق بنا ذرعاً !

فضرب المعلم كفاً بكف وقال وهو يهز رأسه مغيظاً محنقاً :

ـ أمن أجل هذا أترك عملى يا هوه !. أمن أجل هذا أصعد مائة درجة ؟ آه يا اولاد الكلب ، لماذا تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم ؟!

وجعل يردد بصره بين الأم وابنها واستطرد قائلا :

— ربنا ابتلانى بكما ليقتص منى . ما هذا الذى تقوله أمك؟

ولزم حسين الصمت .. وراحت لمه تقول بهدوء ما وسعها الصبر :

— هـدىء روعك يا معلم ، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك لا لغضبك . لقد جمع ثيابه فى بقجته ، ونوى مغادرتنا ..

فسدد نحوه نظرة حقد وغضب ، وهو بين مصدق ومكذب ، وقال كالمتسائل :

— جننت يا ابن القديمة ؟!

وكانت اعصاب المرأة متوترة فلم تملك أن صاحت به :

— دعوتك لتعقله لا لتشتمنى ..

فالتفت نحوها غاضبا وهو يقول :

— اولا جنونك الموروث لما شب ابنك مجنونا ..

— الله يسامحك . انا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا ، واساله عما خالط عقله ؟!

وحدج ابنه بنظرة قاسية وساله بصوت كالزئير وقد تناثر ريقه :

— مالك لا تتكلم يا ابن القديمة !.. هل تروم حقا مغادرتنا ؟

وكان الفتى يتحامى اباه عادة ، ولا يصطدم به الا اذا ضاقت به السبل . ولكنه كان قد عزم عزما صادقا على نبذ ماضيه مهما كلفه الأمر ، فلم يتردد ولم يتراجع ، خصوصا وانه كان يرى ان مسالة اقامته فى البيت أو مغادرته من صميم حقه الذى لا ينازعه فيه منازع ، فقال بهدوء وعزم معا :

— نعم يا أبى ..!

فساله الرجل وهو يعانى خناق غيظه :

— ولماذا ؟

فتفكر الشاب ثم قال :
ـ أريد ان احيا حياة أخرى . .

فقبض الرجل على ذقنه ، وهز راسه ساخرا وقال :
ـ فهمت . . فهمت . تريد حياة أخرى تناسب المقام ! لان كلبا مثلك نشأ محروما جائعا ، يجن اذا امتلأ جيبه ؛ وانت الآن صاحب قرش انجليزى ، فمن الطبيعى ان نرتاد حياة اخرى ، تليق بمقامك العالى يا قنصل الأوز !
فكظم حسين غيظه وقال :
ـ لم أكن جائعا قط ، لانى نشأت فى بيتك . وبيتك لم يعرف الجوع أبدا والحمد لله . وكل ما فى الأمر انى أريد أن اغير حياتى ؛ وهذا حق لا مراء فيه . ولا داعى مطلقا لغضبك وسخطك .

ولم يفهم المعلم مراده . كان الشاب يتمتع بحرية مطلقة ، فلا يسأل عما يفعل ، فلماذا يريد أن ينشىء لنفسه بيتا خاصا ؟ وكان المعلم ، على رغم ما يقوم بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام ، يحبه ولكنه حب لم يظفر قط بالجو الذى يستطيع أن يتنفس فيه ، وغشيته دائما غواشى الغيظ والحنق والسباب ، ولطالما نسى كثيرا أنه يحب ابنه الوحيد . وحتى فى هذه الساعة والفتى ينذره بهجره غاب حبه واشفاقه تحت ستار الغضب والحنق ، وتمثل له الأمر تحديا وعراكا . ولذلك سأله فى تهكم مر :
ـ نقودك فى جيبك . تنفقها كما تشاء وينعم بها الخمارون والحشاشون والقوادون ، هل سألناك مليما ؟.
ـ أبدا . . أبدا . أنا لا أشكو هذا مطلقا . .
فتساءل المعلم بنفس اللهجة المرة :
ـ أمك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما الا التراب ، هل اخذت منك مليما ؟.
فقطب حسين ضجرا وقال :

— قلت انى لا أشكو هذا . كل ما فى الأمر أنى أريد حياة غير هذه الحياة ، انكثيرين من زملائى يقطنونفى بيوت فيها الكهرباء !.

— الكهرباء !! أمن أجل الكهرباء تترك بيتك ؟!. الحمد لله على ان أمك بفضائحها قد جعلت بيتنا أحمى من الكهرباء ..

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة :

— مظلومة والله يا ربى ظلم الحسن والحسين ..

واستدرك حسين قائلا :

— أن زملائى جميعا يحيون حياة جديدة ، وقد انقلبوا جميعا جنتلمان كما يقول الانجليز .

ففغر المعلم فاه ، فانفرجت شفتاه الغليظتان عن أسنانه الذهبية وقال :

— ملذا تقول :

فلزم الفتى الصمت مقطبا ، واستدرك المعلم :

— جلمان ؟!.. ما هذا ؟.. صنف حشيش جديد ؟!.

فقال حسين متذمرا :

— اعنى رجلا نظيفا ..!

— ولكنك وسخ ، فكيف تريد ان تكوننظيفا .. يا جلمان !.

وضاق حسين بتهكم ابيه فقال منفعلا :

— أبى . أريد ان احيا حياة جديدة ، هذا كل ما هنالك ، وسأتزوج من بنت ناس !.

— بنت جلمان !.

— بنت ناس طيبين .

— ولمادا لا تتزوج بنت كلب كما فعل ابوك ؟!

فتاوهت أم حسين قائلة :

— الله يرحمك يا أبى كنت فتيها وقورا .

فالتفت نحوها بوجهه المربد وقال :

— فقيه ! .. كان قارىء قبور ، يتلو السورة بمليمين !ـ

فقالت المراة متوجعة :

— كان يحفظ كلام الله وكفى ...

وتحول عنها المعلم واقترب خطوات فصار من ابنه على بعد ذراع ، وساله بصوت مخيف :

— حسبنا كلاما ، فليس لدى من وقت انسيمه بين مجانين ـ أتريد حقا أن تترك هذا البيت ؟ ! .

فلم حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب :

— نعم .

فأدام المعلم النظر اليه مليا ، ثم ثارت ثائرته بغتة ، فضربه براحته على وجهه ، ولم يستطع الفتى ان يتفادى الضربة العنيفة فتلقاها بحنق جنونى ، وابتعد عن الرجل وهو يصيح :

— لا تضربنى ، لا تمسسنى ، لن ترانى بعد اليوم .

وهجم الرجل عليه فحالت دونه المراة القانطة ، وتلقته لكماته على صدرها ووجهها ، حتى كف الرجل وهو يصرخ :

— اغرب عنى بوجهك الأسود ! ولا تعد ابدا ، سافرض انك مت واندلقت فى الجحيم .

وجرى الفتى الى حجرته ، وتناول البقجة ، ونزل السلم وثبا ، وقطع الزقاق لا يلوى على شيء ، وقبل أن يعدل الى الصنادقية بصق عليه ، وهتف بصوت مرتعش من الحنق :

— غر .. انجر ، لعنة الله عليك وعلى اهلك .

— ١٥ —

سمعت الست سنية عفيفى طرقا على الباب ، ففتحته ، فرأت — فى فرح لا يوصف — وجه أم حميدة يطالعها بصفحته المجدورة ، وهتفت من الأعماق :

— اهلا وسهلا بالحبيبة .

وتعانقتا عناقا حارا — أو هكذا بدا على الأقل — وقادتها الى حجرة الاستقبال وهى تأمر الخادم بصنع القهوة ، وجلستا على كنبة متلاصقتين ، واستخرجت من علبة سيجارتين ، وجعلتا تدخنان فى انبساط وسرور . وكانت الست سنية تكابد آلام الترقب والانتظار مذ وعدت أم حميدة بالبحث لها عن زوج . ومن عجب أنها صبرت على العزوبة أعواما طوالا ولكنها لم تستطع مع فترة الانتظار — على قصرها — صبرا ، واعتادت فى هذه الفترة ان تتردد على زيارة أم حميدة دون انقطاع طويل ، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شىء ، وما انفكت تعدها وتمنيها ، حتى أيقنت الست سنية ان المرأة تسوف وتماطل حتى تظفر منها بأكبر نفع مرجو ، ومع ذلك كانت معها جوادة كريمة ، فأعفتها من دفع ايجار الشقة ، وتنازلت لها عن عدد من كوبونات الكيروسين ، ونصيبها من الأقمشة الشعبية ، غير صينية بسبوسة كلفت عم كامل بصنعها لها . ثم آذنتها المرأة بخطبة عباس الحلو لابنتها حميدة ! وتظاهرت الست سنية بالسرور ، ولكن الخبر وقع من نفسها موقعا مقلقا ، وتساءلت ترى هل تضطر الى المساهمة فى تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهز نفسها ؟ ! هكذا تنازعها الخوف عن أم حميدة والتودد

اليها طوال فترة الانتظار . وقد جلست لصقها تسترق اليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عما عسى ان تتمخض عنه زيارتها هذه : وعود واماني كالعادة ام البشرى التي يتلهف قلبها عليها ؟! وراحت تدارى اضطرابها بتسجون الحديث ، فكانت — على غير المالوف — المحدثة وأم حميدة المنصتة . تكلمت عن فضيحة المعلم كرشة ، ومغادرة ابنه حسين لبيته . وانتقدت ام حسين فى تصرفاتها الفاضحة التى تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذ ، ثم تدرج الحديث الى عباس الحلو ، فأثنت عليه قائلة :

— أنعم به من شاب طيب . سيفتح الله عليه ويرزقه ، ويمكنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التى تستاهل كل خير .

وابتسمت ام حميدة عند ذاك وقالت :

— الشىء بالشىء يذكر . اعلمى أنى حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس !

وخفق فؤادها بعنف ، وذكرت كيف حدثها قلبها بأن زيارة اليوم خطيرة ، وبأن المرأة تطوى صدرها على سر تضن به الى حين . وتورد وجهها ، وجرى فى عوده الذابل ماء شباب ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت فى حياء مصطنع :

— واخجلتاه ! ماذا تقولين يا ست ام حميدة !

فقالت المرأة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة ظفر وارتياح :

— أقول انى حاضرة لأخطبك يا ست الناس !

— حقا يا له من أمر خطير ! اجل اذكر ما تم الاتفاق عليه ، ولكن لا يسعنى الا آن أضطرب ، وأن أخجل أيضا ، واخجلتاه !

فجارتها أم حميدة فى تمثيلها وقالت محتجة :

— حاشا لله أن تخجلى لغير ما عيب أو نقيصة ، ولكنك تتزوجين على شرع الله وسنة الرسول ..

فتنهدت الست سنية ، تنهد من يدفع الى التسليم على غير

ارادته ، وقد رن قول الأخرى لها : « ستتزوجين » رنينا حلوا محبوبا فى اذنيها . اما ام حميدة فقد اخذت نفسا طويلا عن سيجارتها ، وهزت راسها هزة الثقة والاطمئنان وقالت :

ــ موظف ..

ودهشت الست سنية ، ونظرت الى محدثتها بعينين لا تكادان تصدقان . موظف !! ان الموظف فاكهة محرمة على زقاق المدق ، وتساءلت قائلة :

ــ موظف ؟

ــ اى نعم موظف !

ــ فى الحكومة ؟ !

وسكتت أم حميدة هنيهة لتستمتع بظفرها ، ثم استطردت :

ــ فى الحكومة ، وفى قسم بوليس بالذات .. !

فازداد عجب الست وقالت متسائلة :

ــ وماذا يوجد فى القسم غير الضباط والعساكر ؟!

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت :

ــ يوجد موظفون أيضا . اسالينى انا . انا أعرف الحكومة والوظائف والدرجات والعلاوات . هذه مهنتى يا ست !.

فقالت الست سنية بدهشة يخالطها سرور لا يصدق :

ــ هو افندى اذا !!

ــ افندى بسترة وبنطلون وطربوش وحذاء !

ــ الله يشرف قدرك يا ست أم حميدة .

ــ انى أختار الطيب للطيب ، واعرف لكل انسان قدره . ولو كان فى اقل من الدرجة التاسعة ما وقع اختيارى عليه ..

فتمتمت الست سنية متسائلة :

ــ الدرجة التاسعة ؟

— الحكومة درجات . ولكل موظف درجة . والتاسعة احدى هـذه الدرجات . ولكنها درجة ولا كل الدرجات يا حبيبتى !

فقالت الست وعيناها تتألقان سرورا :

— دمت من صديقة محبة عزيزة !

فاستدركت أم حميدة تقول بصوتها الواشي بالظفر والثقة :

— يجلس الى مكتب كبير ، تتكدس عليه الملفات والأوراق للسقف ، والقهوة داخلة خارجة ، هذا يرجوه وهذا يسأله ، وهو ينهر هذا ويشتم ذاك ، العساكر تحييه ، والضباط تحترمه . .

فابتسمت الست سنية ، ولاحت فى عينيها نظرة أحلام ، وواصلت أم حميدة الحديث قائلة :

— مرتبه عشرة جنيهات لا تنقص مليما . .

وصدقتها الست سنية فهتفت قائلة :

— عشرة جنيهات !

فقالت المراة ببساطة :

— هذا قليل من كثير ، وما مرتب الموظف الا بعض رزقه ، وبالحذق والشطارة يستطيع أن يربح اضعافه ؛ ولا تنسى علاوة الغلاء ، وعلاوة الزواج ، ثم علاوة الأطفال . .

فضحكت الست ضحكة عصبية وصاحت :

— سامحك الله يا ست أم حميدة ، مالى أنا والاطفال !

— ربك قادر على كل شيء . .

— نحمده ونشكر فضله على اى حال .

— أما عمره فثلاثون عاما . .

فصاحت الست فى انكار :

— رباه ! اكبره بعشرة أعوام !

ولم يخف على المراة انها تناست عشرة اعوام من عمرها ، ولكنها قالت فى لهجة تنم عن العتاب :

– لا زلت شابة يا ست سنية ! ومع ذلك فقد صارحته بانك فى الاربعين ووافق مسرورا ..

– أرضى حقا ؟!. ما اسمه ؟!

– أحمد افندى طلبة من أهل الخرنفش ، وابن الحاج طلبة عيسى صاحب المقلة بأم الغلام ، أسرة طيبة شريفة تنحدر من صلب سيدنا الحسين .

– اسرة طيبة حقا ، وأنا شريفة ايضا كما تعلمين يا ست أم حميدة ..

– اعلم هذا يا حبيبتى . وهو لا يتحرى الا الأخلاق الطيبة ، ولولا هـذا لتزوج من عهد طويل ، ولكنه يزدرى بنات اليوم وينقم عليهن قلة الحياء . ولما أن حدثته عن اخلاقك واحتشامك ، وقلت له انك سيدة شريفة وصاحبة قرش ، سر سرورا لا مزيد عليه وقال لى هذه طلبتى ، بيد أنه سألنى شيئا واحدا لا يخرج عن حدود الأدب ، وهو أن يرى صورتك !

فتورد الوجه النحيل ، وقالت باشفاق :

– والله ما صورت منذ أمد بعيد ..

– أليس لديك صورة قديمة ؟

فأومأت الست الى صورة على المنضدة وسط الحجرات دون أن تنبس بكلمة . فانحنت المراة قليلا وتناولتها بيدها ونظرت فيها متفحصة . كانت صورة يرجع تاريخها الى ما قبل ستة أعوام ، وكانت صاحبتها وقتذاك على شيء من الامتلاء والحياة ، فرددت المراة بصرها بين الصورة والأصل ، ثم قالت جازمة :

– طبق الأصل ، كأنها صورت بالأمس القريب .

فتهدج صوت المراة وهى تقول :

– الله يحلى دنياك ..

واودعت جيبها الصورة باطارها . واشعلت سيجارة اخرى قدمت لها ، ثم بلهجة رزينة :

ــ ولقد تحدثنا طويلا فعرفت امورا عما فى مرجوه ..

ولحظتها الست بنظرة حذر لأول مرة ، وانتظرت ان تواصل حديثها فلما ان طال الصمت ، سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة :

ــ ترى ماذا فى مرجوه ؟

اتجهل حقا ام تظنه يريد الزواج منها حبا فى سواد عينيها ؟ واغتاظت المرأة قليلا ، بيد انها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلا :

ــ اظن ليس لديك مانع من اعداد جهازك بنفسك ..؟

وفهمت الست سنية المقصود لأول وهلة ، فالرجل لا يريد ان يدفع صداقا ، ويرغب ولا شك أن يترك لها وحدها عبء الجهاز . ولم يكن ذلك ليغيب عنها من اول الأمر ، منذ تملكتها الرغبة فى الزواج . وسبق أن لمحت ام حميدة الى هذا فى ثنايا احاديثها فلم تفكر قط فى الاعتراض عليها . فقالت بلهجة تنم عن التسليم :

ــ ربنا المعين .

فابتسمت أم حميدة وقالت :

ــ نسأل الله التوفيق والسعادة ..

ونهضت المرأة تريد الانصراف . فتعانقتا عناقا حارا . وسارت الست فى توديعها حتى الباب الخارجي ، ووقفت مرتفقة الدرابزين وأم حميدة تنزل السلم الى شقتها ، وقبل أن تغيب عن ناظريها هتفت بها :

ــ مع الف سلامة . قبلى عنى حميدة ..

ثم عادت الى حجرتها بقلب فتى ، ابتعث حرارته الأمل الجديد . وجلست تستعيد ما قالت أم حميدة جملة جملة وكلمة كلمة .

كانت الست سنية على شيء من الحرص ولكنه ليس الحرص الذى يقف عثرة فى سبيل سعادتها . أجل فطالما آنس المال وحدتها ، سواء ذاك الذى تحفظه فى صندوق التوفير أو هذا الذى تتملاه رزما جديدة بديعة فى صندوقها العاجى ، ولكن لا هذا ولا ذاك بمغن عن الرجل الخطير الذى سيصبح باذن الله بعلا لها . ولكن هل تعجبه الصورة ؟ وتورد وجهها حتى احست بحرارة دمها تلفح جبينها . ونهضت الى المرآة تعاين صورتها ، وجعلت تحرك وجهها يمنة ويسرة حتى تراءى لعينيها أحسن الأوضاع فثبتته عليه ، وانعمت فى الصورة النظر ، ولاح فى وجهها شيء من الرضا ، وغمغمت برجاء «ربنا يستر» . ثم عادت الى جلستها وهى تقول: « المال يغطى العيوب » الم تقل له المراة انها صاحبة قرش ؟! وانها لكذلك . وليست الخمسون بسن اليأس ؛ فلا يزال أمامها عشرة أعوام ، وكم من امرأة فى الستين تستطيع ان تتمتع بالسعادة اذا كفاها الله شر الأمراض . والزواج كفيل برى العود الذابل ، وبعث الجسد الخامد ؛ هكذا سرحت مع أفكارها الوردية حتى اعترض تيارها الصافى زبد متلبد ، فقطبت فجأة ، وتساءلت مغيظة : ترى ماذا يقول الناس غدا ؟ آه . انها تعرفهم حق المعرفة ، وستكون أم حميدة نفسها فى طليعة المتقولين . سيقولون لقد جنت الست سنية ، ويقولون امرأة فى الخمسين تتزوج من ابن لها فى الثلاثين ، وسوف يتحدثون طويلا عن المال الذى يصلح ما أفسد الدهر ، وربما قالوا غير هذا وذاك كثيرا مما لا يخطر لها ببال . فليقولوا ما شاء لهم القول . وهل كانوا أعتقوها من شر ألسنتهم وهى أرملة ؟! وهزت الست كتفيها استهانة . ثم دعت ربها من الأعماق قائلة :

- اللهم احفظنى من شر العين ..

ثم خطر لها خاطر سرعان ما رحبت به ، وصدقت نيتها

على تنفيذه ، وهو أن تذهب الى الشيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع ، وتستوهبها بعض الرقى ، فما أحوجها فى حالتها هذه الى حجاب مفيد أو بخور نافع .

— ١٦ —

— ماذا أرى ؟! انك لرجل وقور ! .

قال زيطة ذلك وهو يتفرس وجه رجـل عجوز منتصب القامة ، يمثل بين يديه فى خضوع واستكانة . كان رث الجلباب ، نحيل الجسـد ، ولكنه ذو مظهر وقور كما قال صانع العاهات . كبير الراس أبيض الشـعر ، مستطيل الوجه ، له عينـان هادئتان خاشعتان ، كأنه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش المتقاعدين . وراح زيطة يتفحصه بدهشة واناة على ضوء المصباح الخافت ، ثم عاد يقول :

— انك لرجل وقور ، أترغب فى امتهان الشحاذة حقا ؟!

فقال الرجل بصوت هادىء النبرات :

— انا شحاذ بالفعل ولكنى غير موفق ..

فتنحنح زيطة ، وبصق على الأرض ، ومسح شفتيه بكم جلبابه الأسود ، وقال :

— انك أرق من أن تحتمل اى ضغط شديد على اعضائك . والحق انه لا يصـح التقدم لاتخاذ عاهة كاذبة بعد العشرين ، فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء فيما تقتضيه من عناء ؟ وكلما كان العظم طريا ضمن الشحاذ عاهة فى حكم المستديمة حقا . وانت شيخ كبير على عتبة الفناء ، فما عسى ان اصنع بك !

ومضى يفكر . وكان اذا اعتراه الفكر فغر فاه وأرعش لسانه

فلاح فى فمه كراس أفعى . ثم ومضت عيناه البراقتان بغتة وصاح :

ــ الوقار أنفس عاهة !

فسأله الرجل متحيرا :

ــ ماذا تعنى يا أستاذ ؟!

فانكفأ وجه زيطة غضبا وصاح به محتدا :

ــ أستاذ ؟! .. اسمعتنى أقرأ على القبور ؟

فدهم غضبه الرجل ، وبسط راحته مستعطفا وقال بصوت منكسر :

ــ معاذ الله .. ما قصدت الا تبجيلك ..

فبصق زيطة مرتين وقال منفعلا فى زهو وعجب :

ــ ان عملى ليعجز أعظم اطباء البلد لو حاولوه . الا تعلم أن احداث عاهة كاذبة اشق من احداث عاهة حقيقية الف مرة ؟.. ان عاهة حقيقية لا تستقضينى أكثر من أن أبصق على وجهك .

فقال الرجل بأدب جم :

ــ لا تؤاخذنى يا سيدى ، ان الله غفور رحيم ..

وسكت الغضب عن زيطة ، وحدج الرجل بنظرة حادة ، ثم قال بصوت لم تمح منه بعض آثار الحدة :

ــ قلت ان الوقار انفس عاهة ..

ــ كيف يا سيدى ؟ !

ــ الوقار كفيل بأن يكتب لك النجاح كشحاذ نادر المثال .

ــ الوقار يا سيدى ؟ !

فمد زيطة يده الى كوز على الرف ، واستخرج منه نصف سيجارة ، ثم أعاده الى موضعه ، واشعلها من فوهة زجاجة المصباح ، واخذ نفسا طويلا وهو يضيق عينيه البراقتين ، وقال بهدوء :

— ليست العاهة بمطلبك . بل انت فى حاجة الى مزيد من التحسين والتجميل . اغسل جلبابك جيدا ، واحصل باية طريقة على طربوش نصف عمر ، وامش بقامتك المعتدلة هذه فى خشوع وادب ، واقترب فى اشفاق من رواد المقاهى ، ثم قف فى حياء ، ومد يدك فى تألم دون أن تنبس بكلمة . وتكلم بعينيك ، الا تعرف لغة الأعين ؟ .. ستحدق فيك العيون بدهشة ، سيقولون عزيز قوم ذل ، ويقولون محال أن يكون هذا من أولئك الشحاذين المحترفين . أفهمت الآن ما أريد ؟ ستربح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون بعاهاتهم ..

وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد ، ووقف يراقبه مدخنا سيجارته وتفكر قليلا ثم قال مقطبا :

— وربما سولت لك نفسك أن تأكل أجرى بحجة انى لم اصنع لك عاهة تستحق الأجر ، وانت حر تفعل ما تشاء ، على شرط أن تولى وجهك وجهة غير حى الحسين العامر .

فتعوذ الرجل فى انكار وقال متألما :

— حاشاى أن أخون صاحب الفضل على ..

وانتهت المقابلة عند ذلك ، فسار زيطة بين يدى الرجل ليدله على الطريق ، ووصله حتى الباب الخارجى للفرن ، وفى أثناء عودته لاحظ أن المعلمة حسنية متربعة على حصيرة بمفردها ، وليس لجعدة من أثر ، وكان من عادته اذا التقى بها أن يخلق سببا لمبادلتها كلمة أو كلمتين ، توددا اليها ، وافصاحا عن أعجابه الكمين ، فقال لها :

— أرأيت هذا الرجل ؟

فقالت المعلمة حسنية بغير مبالاة :

— طالب عاهة ، أليس كذلك ؟

فضحك زيطة وراح يقص عليها قصته ، والمرأة تضحك

وتلعنه على شيطنته ، ثم اتجه نحو الباب الخشبى القصير الذى يؤدى الى مأواه ، وتردد على عتبته لحظة ثم سألها :

— اين جعدة ؟

فأجابته المرأة :

— فى الحمام . .

وظن الرجل لأول وهلة انها تسخر منه لقذارته المعروفة . فرمقها بحذر ولكنه وجدها جادة . فأدرك ان جعدة قد ذهب حقا الى حمام الجمالية ، وهو ما يفعله مرتين فى العام ، وانه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب ، فحدثته نفسه بأن يجالس المعلمة قليلا ، متشجعا بما أثارته قصته فيها من سرور ، وجلس على عتبة بابه مستندا الى مصراع الباب مادا ساقيه كعمودين دقيقين من الفحم غير عابىء بما أحدثه جلوسه من دهشة وانكار لاحت آياتهما فى عينيها . وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقية اهل الزقاق ، غير كلمات يتبادلانها فى ذهابه أو ايابه . بوصفها مالكة مأواه . ولم تكن تشك فى ان علاقته بها تنقطع عند هذا الحد ، ولم يدر لها بخلد انه يطلع على الكثير من دخائل حياتها ودقائقها ، ولكن مخلوقا كزيطة لا يعدم أن يجد منفذا فى الجدار بينه وبين الفرن يطلع منه على ما يروى غلته المتطفلة ، وأحلامه البهيمية ، فصار وكأنه واحد من هذه الأسرة ، يشهد عملها وراحتها ، ويلذه بوجه خاص أن يرى المعلمة وهى تكيل الضرب لبعلها لأقل هفوة . وما أكثر هفوات جعدة التى يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم ، حتى بات الضرب من غذائه اليومى ، يتلقاه تارة فى تصبر وتجلد ، وتارة فى بكاء وصراخ وعواء . وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرغفة فى اثناء خبزها ، أو يسرق البعض الآخر ليلتهمه خفية فيما بين الوجبات أو يبتاع بسبوسة بنصف قرش من اجر الخبز الذى

يحصله من البيوت ، ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوما بعد يوم ، دون توفيق فى طمس معالمها ، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة ، وكان زيطة يعجب لخنوع الرجل وجبنه وعتهه . وأعجب من هذا أنه — زيطة — كان يستقبحه ويهزأ بصورته ! كان جعدة طويل القامة لحد مفرط ، طويل الذراعين ، ممطوط الفك الأسفل ، غائر العينين ، غليظ الشفتين . ولطالما حقد عليه زيطة تمتعه بهذه الزوجة الهائلة التى يرمقها بعين الاعجاب والرغبة ، ولذلك مقته واحتقره ، وتمنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصوانى . ولذلك أيضا سره أن يجد فى غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلا ، فجلس ومد ساقيه ، غير عابىء بما يحدثه جلوسه من دهشة وانكار . ولم تتردد المعلمة حسنية بجرأتها المعهودة أن سألته بجفاء بصوت غليظ :

— مالك جلست هكذا ؟

فقال زيطة لنفسه : « اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا »

ثم قال لها بلطف وتودد :

— أنا ضيف يا معلمة ، والضيف لا يهان ..

فقالت بتقزز :

— ولماذا لا تنجحر وتريحنى من وجهك ؟

فقال زيطة برقة مبتسما عن انيابه الوحشية :

— لا يمكن أن يقضى الانسان حياته كلها بين الشحاذين والقاذورات والديدان ، ولا مفر من أن يتطلع لمنظر ابهج واناس أفضل .

فانتهرته بعنف قائلة :

— يعنى لا مفر من أن يؤذى الناس بمنظره الكريه ورائحته الخبيثة !.. أف .. أف .. انجحر واغلق الباب وراءك !.

فقال زيطة بخبث :

— هذا رجل ولا كل الرجال يا وجه العفريت ..

— هذا المخلوق الذى تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالة ؟

وأدركت المرأة فى كلامه حنقا وغيرة ، فراقها ذلك على انفعالها ، وعدلت عن ضربه بعد أن حدثتها نفسها به ، وراحت تقول كأنما لتضاعف حنقه وغيرته :

— هذا شىء لا تفهمه ، وما أجدر أن تموت حسرة على الكمة مما يصيبه ..

فقال زيطة حانقا :

— لعل الضرب شرف لا أدركه ..

— شرف لا تطمح اليه يا عشير الديدان .

وتفكر زيطة مليا ، ترى هل تطيب لها معاشرة هذا الحيوان حقا ؟! وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، ولكنه كان يأبى أن يصدق هذا ، ان المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت ، ولكنها تبطن شيئا آخر بلا جدل . ورمق بنيانها الضخم المكتنز بعين نارية فازداد اباء وعنادا . ونشط خياله بارعا مجنونا فصور له المستقبل فى ألوان زاهية . وأوحى له خلو المكان بتخيلات محمومة ، فلمعت عيناه المخيفتان . أما حسنية الفرانة فقد استلذت غيرته ، ولم يقلقها انفراده بها لعظيم ثقتها بقوتها ، فقالت فى تهكم :

— حتى أنت يا تراب الأرض .. استخرج جسمك من التراب الذى يغطيه أولا ، ثم كلم الناس بعد ذلك .

ليست المرأة غاضبة . ولو كانت غاضبة حقا لما دارت غضبها ولصفعته بوحشيتها ، انها تمازحه ولا شك ، فلا يجوز أن تفلت الفرصة من بين يديه . قال :

— انت لا تفرقين يا معلمة بين التراب والتبر .

فقالت المرأة بتحد :

— هل تستطيع أن تنكر انك طين ؟

فهز منكبيه استهانة وقال ببساطة :

ــ كلنا طين ..

فقالت المرأة ساخرة :

ــ خسئت ! انك طين على طين وقذارة على قذارة ، ولذلك لا عمل لك الا تشويه البشر ، كأنك تنبعث الى ذلك برغبة شيطانية فى النزول بالبشر الى مستواك القذر .

فتضاحك زيطة وما يزداد الا أملا ، وقال :

ــ ولكنى أحسن الناس ولا أقبحهم ، الا ترين أن الشحاذ بغير العاهة لا يساوى مليما ، حتى اذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهبا ؟!. والرجل يقوم بثمنه لا بصورته . أما أخونا جعدة فلا ثمن ولا صورة ..

فزمجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد :

ــ أتعود الى هذا الحديث مرة أخرى ؟

فتعامى عن وعيدها ، وتجاهل الموضوع الذى طرقه متعمدا ، وتخطاه قائلا :

ــ ومع ذلك فجميع زبائنى من الشحاذين المحترفين ؛ فماذا تريديننى على أن أفعل بهم ؟.. أكنت تريدين أن أحليهم وأزينهم وأسرحهم فى الطرقات لغواية المحسنين ؟!

ــ يا لك من شيطان ! لسان شيطان ، وصورة شيطان .

فتنهد بصوت مسموع ، وقال باستكانة المستعطف :

ــ كنت مع ذلك ملكا فى يوم ما ..

فهزت رأسها متسائلة فى سخرية :

ــ ملكها من الأسياد والعفاريت ؟

فقال بلهجة الاستكانة والاستعطاف نفسها :

ــ بل من البشر أنفسهم . وأى واحد منا تستقبله الدنيا كملك من الملوك ، ثم يصير بعد ذلك ما يشاء له نحسه . وهذا

خداع حكيم من الحياة ، والا فلو أنها افصحت لنا عما فى ضميرها منذ اللحظة الأولى لأبينا ان نفارق الأرحام ..!

— ما شاء الله يا ابن الدائخة !

فاستدرك زبطة فى حماسة وسرور :

— وهكذا كنت يوما ما مولودا سعيدا تلقفته الأيدى بالسرور ، وحاطته بالعناية والرحمة ، فهل تشكين بعد ذلك انى كنت ملكا ؟

— ابدا يا مولانا ..

واسكرته حرارة الحديث ولذة الأمل ، فمضى قائلا :

— وكان مولدى يمنا وبركة أيضا . ذلك ان والدىّ كانا شحاذين محترفين ، وكانا يكتريان طفلا تحمله أمى فى اثناء تجوالهما ، فلما أن رزقهما الله بى اغناهما عن اطفال الناس ، وفرحا بى فرحا عظيما .

فلم تملك حسنية ان ضحكت ضحكة مجلجلة . فازداد حماسة وحرارة ، وقال مواصلا حديثه :

— آه من ذكريات طفولتى السعيدة ؛ لا زلت اذكر مستراحى من الطوار . كنت أزحف على أربع حتى ابلغ حافة الطوار المطلة على الطريق ؛ وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة فى الأرض يركد فيها ماء من مطر أو رش أو دابة ، يتكتل الطين فى قعرها ، وعلى سطحها يغنى الذباب ، وعلى شطآنها تتجمع نفاضة الطريق . منظر ساحر يأخذ بالألباب . ماؤها مطين ، وساحلها زبالة متعددة الوانها : قشر طماطم ونفاية مقدونس وتراب وطين ، والذباب يحوم حولها ويقع عليها ، فكنت ارفع جفنى المثقلين بالذباب ، واسرح طرفى فى ذاك المصيف الطروب ، والدنيا لا تسعنى فرحا .

فهتفت المعلمة ساخرة :

— يا بختك .. يا حظك ..

ولذه سرورها واقبالها على حديثه . فقال متشجعا .

— هذا سر ولعى بما يسمونه ظلما بالقاذورات ، والانسان خليق بأن يألف أى شىء مهما شذ وغرب ، ولذلك اخاف عليك أن تألفى ذلك الحيوان .

— أتعود أيضا الى هذا ؟.

فقال وقد أعمته الشهوة واصمته :

— طبعا . لا قبل لانسان باغفال الحق ..

— الظاهر انك زهدت فى الدنيا ..

— لقد ذقت الرحمة مرة كما قلت لك فى المهد .

ثم أومأ بيده الى المزبلة التى يسكنها واستدرك :

— وقلبى يحدثنى بان لى حظا ان أذوقهـا مرة اخرى فى مأواى هذا .

وأومأ براسه الى الداخل كأنه يقول لها : « هلمى » فتميزت المراة غيظا ، واحنقتها جراته ، فصاحت فى وجهه :

— حذار يا ابن الشيطان .

فقال بصوت متهدج :

— كيف لابن الشيطان أن يحذر غواية أبيه ؟

— واذا هشمت عظمك ؟

— من يعلم .. ربما استلذ ذلك أيضا ..

ونهض الرجل بغتة ، وتراجع قليلا متقهقرا ؛ كان يظن انه بلغ مناه ، وان المعلمة اصبحت طوع يمينه ، وقد تلبسته حال جنونية جعلته ينتفض انتفاضا ، وثبتت عيناه على عينى المراة فى ذهول وبهيمية . ثم مد يديه بغتة الى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة ، وتجرد عاريا . وبهتت المعلمة لحظات ، ثم امتدت يدها الى كوز غير بعيد ، وقذفته بسرعة وقوة ، فاصاب بطنه ، وندت عنه آهة كالخوار ، وسقط يتلوى ..

— ١٧ —

كان السيد سليم علوان جالسا كعادته الى مكتبه بالوكالة حين جاءت أم حميدة لابتياع بعض اللوازم . وكان الرجل يستقبلها اذا جاءته بلطف ، ولكنه لم يقنع هذه المرة بذلك ، فدعاها الى الجلوس على كرسى قريب منه وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من الوان العطارة . ونال هذا العطف من أم حميدة فلهجت بشكره والدعاء له . والحق ان هذا العطف لم يكن ارتجالا ، ولكن السيد كان قد نوى امرا لا رجوع فيه ، لأنه من العسير أن يعيش الانسان موزع النفس مضطرب الارادة لا يقر له قرار . وقد ساءه كثيرا أن يرى سماء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التى تستوجب الحلول ثم لا يجد الارادة التى تحلها . فهؤلاء الأبناء لا يخفى عليه قلقهم ؛ وهذه الأموال المكدسة لا يدرى متى يتاح له استغلالها خصوصا وقد ارجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب ، ورتبة البيكوية كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمل كامن ، وعلاقته بزوجه وهمه الناشىء من ذبول شبابها ونضوب حيويتها ، واخيرا — وليس آخرا — هذه العاطفة التى يعانيها ويلقى من اضطرامها ما يلقى من اشواق وآلام . لبث بين هذه الهموم متحيرا ، ثم رأى ان يفض احداها بعزم ورغبة ، ولكنه انساق فى الاختيار مع هواه وهو لا يدرى ، فارتأى ان يسكن هذه العاطفة الغشوم ، وتركز اهتمامه فى ذلك ، حتى لكأنه بالانتهاء منها انما ينتهى من همومه جميعا . ولكنه لم يكن بالغافل عن العواقب ، ولم يكن ليغيب عنه انه بصدد مشكلة يعقب فضها

المزعوم مشكلات جديدة لاتقل خطرا عن سابقاتها . ولكنه الهوى . لقد غلبه الهوى على امره ، وتسرب الى اعماق نفسه فتشبعت به جذور تفكيره وارادته ، وهانت عليه الصعاب التى كانت تعترض احلامه ، وقال لنفسه متبرما : « لقد انتهت زوجتى كامرأة ، ولست من الرجال الذين ينزلقون الى الفسق فى مثل هذه السن ، ولا داعى مطلقا للرضا بالعذاب والغم . لقد يسر الله لنا فلماذا نعسر على أنفسنا ؟! » وهكذا انتهى الى راى لا عدول عنه ، واجمع على تحقيق رغبته . ولذلك دعا أم حميدة الى الجلوس على كثب منه معتزما مفاتحتها بالأمر الخطير . ولبث السيد متخوفا من الكلام قليلا ، لا لأن ترددا ساوره ، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبته العالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأم حميدة . وتصادف فى تلك اللحظة ان دخل عامل حاملا صينية الفريك المشهورة ، فراتها ام حميدة وجرت على شفتيها شبه ابتسامة لم تفته ملاحظتها ، واهتبل هذه الفرصة وراى أن يجعلها فاتحة حديثه، وتناسى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تنم عن السخط :

— لكم تكدرنى هذه الصينية !

وخافت أم حميدة ان يكون قد راىابتسامتها فقالت بعجلة:

— لماذا كفا الله الشر ؟

فقال السيد باللهجة نفسها :

— لكم تحدث لى من متاعب ..

فتساءلت المرأة وهى لا تدرى ما يعنيه :

— لماذا يا سيدنا البيك ؟

فقال السيد سليم بهدوء متشجعا بأنه يحادث خاطبة :

— لا يرضى عنها الطرف الآخر ..

فدهشت أم حميدة ، وذكرت كيف تحلب ريق أهلالزقاق يوما على قطعة من هذه الصينية ، وها هى ذى امرأة زاهدة

لا ترضى عنها ! وقالت المراة لنفسها : « يعطى الحلق لمن ليس له اذنان » . ثم غمغمت مبتسمة ، وبلا حياء :

— هذا شيء عجيب !!

فهز السيد راسه متأسفا . وكانت زوجه لا ترحب بالصينية من بادىء الأمر وهى بعد شابة فى ريعان الشباب . كانت ذات فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن الطبيعة ، ولكنها تحملت ماكانت تعده ارهاقا اكراما لزوجها النهم ، واشفاقا من تكدير صفوه . ومع ذلك لم تتردد عن نصحه بالعدول عن امر فى المداومة عليه خطر واى خطر على صحته . ولما ان تقدم بها العمر قل صبرها ، وتضاعف احساسها بالأمر ، وبدا تذمرها صريحا ، حتى كانت تهجر بيت الزوجية الى بيوت ابنائها ، زيارة فى الظاهر وهربا فى الحقيقة . وضاق بها السيد ذرعا ، ورماها بالبرود والنضوب ، وتكدر صفوهما ، وتنغص عيشهما ، دون ان يعدل عن هواه ، أو يعطف على ضعفها الملموس . وقد اتخذ نشوزها — هكذا دعاه — حجة له فى هواه وفيما يرتاد من حياة زوجية جديدة !.

هز السيد راسه متأسفا وقال بلغة لا يخفى مرماها عن مثل ام حميدة :

— لقد انذرتها بالزواج من اخرى . وانى لفاعل باذن الله ..

وثار اهتمام المراة ، وتحركت غريزة العمل فى باطنها ، وحدجته بنظرة التاجر الى زبون نادر الوجود ، ولكنها قالت بشيء من الارتياب :

— لهذا الحد يا سى السيد ؟!

فقال الرجل باهتمام جدى :

— لقد انتظرتك طويلا ، وكنت على وشك ان ارسل فى طلبك . فما رايك ؟

فتنهدت المراة وقد غلبها سرور لا يوصف . وقد قالت فيما

بعد أنها ذهبت تبتاع حناء فعثرت على كنز . ثم نظرت اليه مبتسمة وقالت :

— يا سى السيد : انت رجل قد الدنيا ، ومثلك فى الرجال قليل ، وياحظ من تكون نصيبك ، وانا رهن اشارتك ، فعندى البكر والثيب ، والشابة والنصف ، الغنية والفقيرة ، اختر ما تشاء ..

وفتل السيد شاربيه الغليظين ، واعتراه شىء من الارتباك قليلا ، ثم مال نحوها ، وقال بصوت منخفض ، وعلى فمه ابتسامة :

— لا داعى للبحث والتعب ان من اريد فى بيتك انت !

واتسعت عينا المراة دهشة وتمتمت بلا وعى :

— فى بيتى انا !!

فقال السيد وقد سرته دهشة المراة :

— أجل فى بيتك انت دون سواك . ومن لحمك ودمك . أعنى كريمتك حميدة .. !

ولم تصدق المراة اذنيها ، وتولاها الذهول . أجل كانت تعلم — عن طريق حميدة نفسها — ان السيد يتبعها أينما ذهبت عينين براقتين ، ولكن الاعجاب شىء والزواج شىء آخر . فمن عسى أن يصدق أن السيد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة ؟!.. وقالت المراة بصوت مضطرب :

— لسنا قد المقام يا سى السيد !

فقال الرجل برقة :

— انك سيدة طيبة ، وقد اعجبتنى كريمتك وكفى ، الا يكون الناس اهلا للخير الا اذا كانوا اغنياء ؟ وما حاجتى للمال وعندى منه ما فوق الكفاية !.

واصغت اليه والدهشة لا تفارقها . ثم ذكرت فجاة أمرا

غاب عنها حتى هذه اللحظة . ذكرت أن حميدة مخطوبة ، وفد ندت عنها « آهة » كالمنزعجة ، حملت السيد على أن يسألها قائلا:

- مالك !.

فقالت المراة باضطراب :

- رباه ، نسيت يا سى السيد أن اقول لك ان حميـدة مخطوبة ! خطبها عباس الحلو قبل سفره الى التل الكبير ..!

فانكفأ وجه الرجل ، واصـفر وجهه غضباً ، وقال بحدة وكأنه ينطق باسم حشرة قذرة :

- عباس الحلو .. !

فقالت المراة بعجلة ولهوجة :

- رباه لقد قرانا الفاتحة .

فقطب السيد سليم قائلا فى غضب وازدراء :

- ذاك الحلاق الشحاذ ..

فقالت أم حميدة كالمعتذرة :

- قال انه سيشتغل فى الجيش ، ليجمع ثروة . وسافر بعد أن قرانا الفاتحة ..

وازداد غضب السيد لانزلاقه بغتة - مع الحلو - الى مضمار واحد ، وقال بحدة :

- أيحسب هذا الأحمق أن الجيش نعيم يدوم ! ولكنى اعجب لما جعلك تذكرين هذه « الحكاية » !

فقالت المراة معتذرة :

- لقد ذكرتها فجاة ، هذا كل ما فى الأمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيـع ، ولذلك لم تكن لدى حيلة فى رفض يده ! لا تؤاخذنى يا سى السيد . ان مثلك اذا طلب امر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، فلا تؤاخذنى . ساذهب الآن واعود اليك فى الحال . لا تغضب على ، لماذا غضبت هكذا ؟

وبسط السيد وجهه ، وذكر انه غضب حقا اكثر مما ينبغى، كانما الحلو هو المعتدى لا المعتدى عليه ، ولكنه قال :

ــ الا يحق لى أن اغضب ؟

ثم توقف بغتة كأنه تذكر امرا اربد له وجهه وسألها منزعجا:

ــ وهل وافقت الفتاة ؟ أعنى هل تريده ؟

فقالت المرأة بسرعة :

ــ لا شأن لابنتى بهذا الأمر ! وما حدث لا يعدو ان جاءنى الحلو يوما مصحوبا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة .

فقال السيد :

ــ غريب والله أمر هؤلاء الشبان ! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمته ، ولكنه لا يجد بأسا من أن يتزوج ويخلف ويزحم الحارة أولادا يلتقطون رزقهم من الزبالة . لننس هذه الحكاية .

ــ نعم الرأى يا سى السيد .. سأذهب الآن ، وسأعود دون ابطاء ، وربنا المستعان .

ونهضت المرأة واقفة ، وانحنت على يده مسلمة ، ثم تناولت لفافة الحناء ، وكان العامل قد وضعها على المكتب ، ومضت الى حال سبيلها ..

ولبث السيد متغيرا ، متجهم الوجه ، تنطق نظرة عينيه الحادة بالنرفزة والغضب . اولى الخطا عثار !. حلاق قذر لا يساوى مليما . ومع ذلك فهو يزحمه فى حلبة واحدة . وبصق على الأرض بازدراء كأنما البصقة هى الحلو نفسه . وخال انه يسمع طنين المرجفين اذ يخوضون فى هذا الأمر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية، ستقول زوجه انه خطف ابنة ماشطة من صالون حلاق بالمدق !. أجل ستقول زوجه وتعيد ، وسيقول الناس ويتفننون فى القول ، وسيتناهى ذلك كله الى أبنائه وبناته وأصدقائه واعدائه . تفكر فى ذلك جميعه ، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال ، فقد انتهت

المعركة قبل اليوم ، ومد يده بالفعل ، وتوكل على الله . ومضى يفتل شاربه باناة ، ويهز راسه استهانة ، وقد ملكت الرغبة الجامحة عليه نفسه ، وهونت عليه القيل والقال . وهل كف الناس عنه السنتهم من قبل ؟. الم يجعلوا من صينية الفريك اسطورة يتناقلونها ؟. فليقولوا ما بدا لهم ، وليفعل ما بدا له ، وسيظل بلا ريب سيد الجميع الذى يشق سبيله بين هامات متطامنة . اما أسرته فثروته كفيلة بارضاء افرادها جميعا ، ولن يسلبهم زواجه الجديد اكثر مما كانت تسلبهم اياه رتبة البكوية فيما لو سعى اليها ، وانفثا غضبه ، وانبسطتاساريره ، وارتاح الى تفكيره ارتياحا عظيما . ينبغى أن يذكر دائما انه انسان من لحم ودم ، والا اغفل حق نفسه ، وقدمها لقمة سائغة للهموم تزدردها . ما جدوى ثروته الطائلة اذا ذهبت نفسه حسرات على رغبة تحقيقها بيده ؟! او ترك قلبه يحترق بالشوق الى جسد بشرى رهن اشارة منه ؟!

- ١٨ -

ومضت أم حميدة مهرولة الى شقتها ، وفى هذا الشوط القصير — ما بين الوكالة والشقة — تمل خبالها بأحلام عراض . ووجدت حميدة واقفة وسط الحجرة تمشط شعرها ، فتفحصتها بعينين ثاقبتين كأنها تراها لأول مرة ، او كأنها تعاين الانثى التى خبلت رجلا له وقار السيد سليم علوان وسنه وثروته . ووجدت المرأة عاطفة تشبه الحسد . كانت تؤمن بلا شك بأن كل قرش يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها نصفه ، وان كل نعيم

ستذوقه ستحظى هى بنصيبها الموفور منه ، ومع ذلك لم تخل من هذا الاحساس الغريب الذى خالط سرورها واطماعها ! وقالت لنفسها : « أكان القدر حقا يدخر هـذه السعادة لهذه الفتاة التى لا تعرف لنفسها أبا ولا أما ! » وتساءلت فى عجب : « ألم يسمع السيد صوتها المخيف وهى تزعق فى وجوه الجيران؟ ألم يشهد معركة من معاركها ؟ يا ويل الرجال من لحم النساء ! » ثم قالت لها دون ان تحول عنها عينيها :

ـ مولودة فى ليلة القدر والحسين !

فامسكت حميدة من تمشيط شـعرها الأسـود اللامع ، وسألتها ضاحكة :

ـ له ؟. ماذا وراءك ؟. هل من جديد ؟!

فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبة ، ثم قالت بهدوء وهى تتفرس وجهها لتمتحن أثر كلامها فيه :

ـ عروس جديد !

فلاح فىالعينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطهما دهشة ، وتساءلت الفتاة :

ـ اتقولين حقا ؟

ـ عروس كبير المقام يتمنع عن الأحلام يا بنت الكلب ..

فخفق قلب حميدة بقوة ، وتألقت عيناها حتى بدا حورهما ساطعا وتساءلت :

ـ من عساه يكون ؟

ـ خمنى ؟!

فتساءلت الفتاة بلهفة وان ساورتها الظنون :

ـ من ؟

فقالت أم حميدة وهى تهز رأسها وترعش حاجبيها :

ـ السيد سليم علوان ، على « سن ورمح » !

فشدت قبضتها على المشط حتى كادت تنفذ اسنانه فى راحتها ، وهتفت :

— سليم علوان صاحب الوكالة ؟!

— صاحب الوكالة . وصاحب الأموال التى لا يفنيها المحيط !

فاضاء وجه الفتاة نورا ، وغمغمت وهى لا تدرى من الدهشة والسرور :

— يا خبر اسود !

— يا خبر ابيض ، يا خبر مثل اللبن والقشدة . لم اكن لاصدق لولا أنه حادثنى بنفسه .

وغرزت الفتاة المشط فى شعرها ، وهرعت الى أمها وارتمت الى جانبها ، وسالتها وهى تشد على كتفها :

— ماذا قال لك ؟ خبرينى بكل ما قال . كلمة كلمة .

وانصتت الى المراة بانتباه عميق وهى تروى قصتها . وخفق قلبها خفقانا متواصلا ، وتورد وجهها ، وتالقت عيناها بشرا وسرورا . هذه هى الثروة التى تحلم بها ، هذا هو الجاه الذى تهيم به . وانها من حب الجاه لفى مرض ، وان الشغف بالقوة لغريزة جائعة فى باطنها ، فهل يتاح لها شفاء او ارتواء الا بالثروة ؟! لم تكن تدرى دواء لهذا التشوف الاليم يضطرم فى اعماقها الا الثراء الكبير ، فهو الجاه العريض ، وهو القوة الشاملة ، وهو بالتالى السعادة الكاملة . كانت فى سرورها المباغت كمحارب اعزل عثرت يده بسلاح مصادفة فى اشد المواقف حرجا . كانت كطائر مقصوص الجناحين يسف فى يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة ثم ينبت له ريش بمعجزة تدق على الأفهام فيبدله من محاولاته الفاشلة تحليقا يسمو به الى قنن الجبال ، وكانت امها تنظر اليها بلحظ خفى فسالتها :

— ماذا ترين ؟

لم تدر أم حميدة ماذا تقول ، ولكنها كانت مشمرة للمعارضة أيا كان رأى الفتاة ، فاذا قالت السيد قالت والحلو ؟، واذا قالت الحلو قالت أو نفرط فىالسيد ؟. أما حميدة فقالت بانكار شديد:

ــ ماذا أرى ؟!

ــ أجل ماذا ترين ، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه ، أنسيت انك مخطوبة !؟ .. وانى قرأت الفاتحة مع الحلو ؟

فلاحت فى عينى الفتاة نظرة حادة غشت جمالها ، وقالت فى انزعاج وازدراء :

ــ الحلو ! !

وعجبت أمها لسرعتها الفائقة فى البت فى مثل هذا الأمر الخطير ،وكأن الحلو لم يكن قط ، وعاودها شعورها القديم بأن ابنتها فتاة شاذة مخيفة ، والحق أن المرأة لم يداخلها شك جدى فى النهاية المحتومة ، ولكنها كانت تريد أن تبلغها بعد لأى . كانت ترغب أن تتردد الفتاة فتتطوع هى الى اقناعها بالقبول ، لا أن تلفظ اسم الحلو بمثل هذا الازدراء الغريب . واستدركت تقول بلهجة تنم عن الانتقاد :

ــ أجل الحلو ، انسيت انه خطيبك ؟!

كلا لم تنس ، ولكن سيان التذكر والنسيان ، ترى هل تعترض أمها حقا ؟. وحدجتها بنظرة نافذة ، فأيقنت أنها كاذبة فى انتقادها ، وهزت منكبيها استهانة ، وقالت باستخفاف واحتقار :

ــ ذبحة ..

ــ ماذا يقول الناس عنا ؟

ــ دعيهم يقولون ما بدا لهم ..

ــ سأستشير السيد رضوان الحسينى .

فجفلت الفتاة من هذا الاسم واعترضت قائلة :

— ما شأنه فى أمر يخصنى وحدى ؟

— نحن أسرة لا رجل لها ، فهو رجلنا ..

ولم تطق المرأة انتظارا فنهضت واقفة ، وتلفعت بملاءتها ، وغادرت الحجرة وهى تقول : «سأشاوره وأعود توا » . وشيعتها الفتاة بنظرة غيظ ، ثم تنبهت الى أنها لم تتم تمشيط شعرها ، فمضت تمشطه بحركات آلية وعيناها شاخصتان الى دنيا الأحلام الزاهرة . ثم نهضت دالفة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها الى الوكالة الكبرى ساعة ، وعادت الى جلستها .

لم يكن تحولها عن عباس الحلو بغير تمهيد كما ظنت أمها ، أجل لقد حسبت حينا أنها وصلت — راضية — أسبابها بأسبابه الى الأبد ، فمنحته شفتيها بما أوتى من شغف وحب ، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلهما معا ، ووعدته أن تزور الحسين لتدعو له ، وزارته بالفعل ودعت له — ولم تكن تزوره الا لتستدعيه على عدوة عقب شجار — وانتظرت على أمل أن تظفر بهذه السعادة المرموقة ، وفضلا عن ذلك فقد رفعها الحلو من مجرد بنت الى فتاة مخطوبة ، فلم يعد فى وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامتة : « أحلق هذا لو خطبك انسان » . بيد أنها كانت تنام على فوهة بركان . ولم تذق من بادىء الأمر الطمأنينة الكاملة . وجدت فى النفس شيئا يضطرب يرتد متنفسا ، حقا لوح عباس الحلو لطموحها العنيف ببعض الزاد ، ولكن الحلو نفسه ليس بالرجل الذى تريد ، ولقد حيرها أمره منذ أول لقاء . ولم تكن تدرى كيف يكون رجلها على وجه التحقيق ، ولكن الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على اية حال . ومع ذلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة ، فجعلت تقول لعل المعاشرة تهيىء لها حياة لم تكن تحلم بها قط . ثم لم تكف عن التفكير ، والتفكير فضيلة ذات حدين ، فتساءلت : ترى ما هذه السعادة التى يمنيها بها ؟

ألا تكون مغالية فى أحلامها ؟ يقول الفتى انه سيعود بثروة وانه سيفتح صالونا فى الموسكى ، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة ؟ وهل هذا حقا ما تطمح اليه نفسها المجنونة ؟؟ وضاعف هذا التفكير من حيرتها ، وقوى شعورها بأن الشاب ليس رجلها المرموق ، وباتت تدرك أن نفورها منه أشد من أن تلطفه المعاشرة . ولكن ما عسى أن تفعل ؟ ألم ترتبط به الى الأبد .. رباه ، لماذا لم تتعلم حرفة كأولئك الفتيات من صويحباتها ؟ أما لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تتزوج كما تشاء ، أو لما تزوجت على الاطلاق ! وأخذت حماستها تفتر ، وشعورها يخمد ، وعادت الى ما كانت عليه قبل أن تهزها المقابلات وتغرها الآمال . هكذا كانت حين طلب السيد سليم يدها ، وهكذا نبذت خطيبها الأول بغير تردد ، ولكن بعد أن كانت نبذته فى قلبها منذ أمد طويل ..

ولم يطل المطال بغياب الأم ، فعادت من بيت السيد رضوان بوجه تلوح فيه أمارات الجد ، وقالت وهى تخلع ملاءتها :

— لم يوافق السيد أبدا ..

ثم قصت عليها ما دار بينها وبين السيد رضوان ، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين : ان الحلو شاب والسيد سليم شيخ ، وأن الحلو من طبقتها والسيد من طبقة أخرى ، وأن زواج رجل كالسيد من فتاة مثل ابنتها لا بد محدث متاعب ومشكلات لا يبعد أن يصيب الفتاة بعض رشاشها . وكيف ختم حديثه بقوله : « الحلو شاب طيب وقد هاجر فى سبيل الرزق طامحا لهذا الزواج ، فهو رجلها المفضل ، وما عليك الا أن تنتظرى فاذا هو عاد خائبا لا قدر الله كان من حقك بلا جدال أن تزوجيها ممن تختارين » .

وأصغت الفتاة اليها والشرر يتطاير من عينيها ، ثم صاحت بصوت جاف فضح الغضب قبحه :

- السيد رضوان ولى من أولياء الله ، او هذا ما يجب ان يتظاهر به أمام الناس ، فاذا قال رأيا لم يبال مصلحة الناس فى سبيل اكتساب الأولياء أمثاله ، فسعادتى أنا لا تهمه فى كثير او قليل ، ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغى لرجل يرسل لحيته مترين ، فلا تسالى السيد عن زواجى وسليه ان شئت عن تفسير آية او سورة .. أما والله لو كان طيبا كما تزعمون لما رزأه الله فى ابنائه جميعا ..!

وارتاعت المراة ، وقالت لها بانكار وألم :

- اهذا كلام يقال عن أكرم الناس وافضلهم ؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد انذرت حالتها بشر مستطير :

- هو فاضل ان اردت ، وولى من اولياء الله ان شئت ، ونبى أيضا ان احببت ، ولكنه لن يقف حجر عثرة فى سبيل سعادتى ..

وتألمت المراة للاهانة التى لحقت السيد ، لا دفاعا عن رايه الذى كانت لا توافق عليه فى باطنها ، ومع ذلك قالت مدفوعة برغبة فى اغاظة الفتاة والانتقام من سوء خلقها :

- ولكنك مخطوبة ..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :

- ان الفتاة حرة حتى يعقد عليها ، وليس بيننا وبينه الا كلام وصينية بسبوسة ..!

- والفاتحة ؟

- المسامح كريم ..

- الفاتحة ذنبها كبير .

فصاحت باستهانة :

- بليها واشربى ماءها !

فضربت المراة صدرها وقالت :

me3refaty.maktoobblog.com

فاسترسلت الفتاة فى ضحكتها وقالت :

— مجهول مجهول .. كم من اب معروف لا يساوى شيئا ..!

***

وعند ضحى الغد ذهبت أم حميدة الى الوكالة سعيدة رخية البال ، لتقرا الفاتحة مرة اخرى . ولكنها لم تجد السيد سليم بمجلسه المعهود ، واستعلمت عنه ، فقيل لها انه تخلف عن الحضور اليوم ، فرجعت الى البيت غير مرتاحة وقد تولاها الجزع ، ولما أن انتصف النهار ذاع نبأ فى الزقاق بأن السيد سليم علوان أصيب ليلة أمس بذبحة صدرية ، وأنه راقد فى فراشه بين الحياة والموت ! وقد عم الأسف الزقاق كله ، اما بيت أم حميدة فقد سقط عليه النبأ كالصاعقة ..

١٩

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء ، ورأى أهله رجالا يقيمون سرادقا على أرض خراب بالصنادقية فيما يواجه زقاق المدق . وانزعج عم كامل وظنه سرادق ميت. فهتف بصوته الرفيع : « انا لله وانا اليه راجعون ، يا فتاح يا عليم يا رب » ونادى غلاما من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوفى ، ولكن الغلام قال له ضاحكا :

— ليس السرادق لميت ، ولكنها حفلة انتخابية !

فهز عم كامل رأسه وغمغم : « سعد وعدلى مرة اخرى ! » وكان الرجل لا يدرى شيئا على الاطلاق عن عالم السياسة ،

ان هو الا اســم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى . اجل انه يعلق فى صــدر محله صورة كبرى لمصطفى النحاس ، ولكن كان ذلك لأن عباس الحلو ابتاع يوما صورتين للزعيم ثبت احداهما فى الصالون واهدى الأخرى لصاحبه ، ولم ير الرجل فى تثبيتهما بدكانه من بأس ، خصوصا وانه يعلم أن هذه الصورة وأمثالها من تقاليــد الدكاكين ، ففى دكان الطعمية بالصنادقية صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وفى قهوة كرشــة صورة للخديو عباس ، وراح الرجل يرمق العمال العاكفين على عملهم بانكار وقد توقع يوما صاخبا مرهقا . ومضى السرادق يتكون جزءا جزءا ، فنصبت الأعمدة ، ووصلت بالطنب ومدت عليها الستائر ، وفرشت الأرض بالرمل ، وصفت المقاعد على جانبى ممر ضيق يفضى الى المسرح اقيم فى الداخل عاليا ، وركبت مكبرات الصوت على مفارق الطرق ما بين الحسين والغورية ، واجمل من هذا كله أن ترك مدخل السرادق بلا حاجز من ستار او ظلة مما بشر أهــل المدق بأنهم سيشــاركون فى الحفلة من منازلهم ، وفى أعلى المسرح علقت صورة كبرى لرئيس الحكومة ، والصقت بها من تحت صورة المرشح فرحات الذى تعرفه أكثرية أهل الحى ، لأنه كان تاجرا بالنحاسيين . ودار فتيان باعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سطر عليها بألوان زاهية :

انتخبوا نائبكم الحر ابراهيم فرحات
على مبادىء ســعد الأصــلية
زهق عهــد الظــلم والعــرى
وجاء عهــد العــدل والكســاء

وارادوا أن يلصقوا اعلانا بدكان عم كامل ، ولكن الرجل الذى ترك غياب عباس الحلو فى نفسه أسوأ الأثر تصدى لهم ساخطا وهو يقول :

— ليس هنا يا أولاد الحلال ، هذا شؤم يقطع الرزق ..

فقال له أحدهم ضاحكا :

— بل يجلب الرزق . واذا رآه حضرة المرشح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة ، وأعطاك الثمن مضاعفا وعليه قبلة .

وانتهى العمل عند منتصف النهار . وعاود المكان هدوءه المعهود ، واستمر هذا حتى العصر حين جاء السيد ابراهيم فرحات فى هالة من حاشيته ليعاين الأمور بنفسه ، وكان الرجل لا يقبض يده عن الانفاق ، الا أنه كان كذلك تاجرا لا يفوته الاطلاع على دقائق ميزانيته حتى لا يجوز عليه ما لاينبغى ان يجوز . وقد تقدم القوم بجسمه البدين القصير ، يرفل فى جبته وقفطانه ويقلب فيما حوله وجها أسمر كرويا ذا عينين ساذجتين . كانت مشيته تنم عن الزهو والثقة ، وعيناه تنطقان بالطيبة والسذاجة، ومظهره عامة يشى بان بطنه أهم كثيرا من راسه . وقد احدث ظهوره اهتماما كبيرا فى الزقاق وما يحيط به ، لانهم اعتبروه عروس الليلة ، واملوا من وراء « زفته » خيرا كثيرا ، خصوصا وانهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التى دهمتهم فى الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتزكية !. ثم جاءت على اثره جماعات من الغلمان تسير وراء أفندى مرددة هتافات عالية ، كان يصيح بصوت كالرعد « من نائبنا ؟ » فيجيبونه بصوت واحد « ابراهيم فرحات » فيهتف ثانية « من ابن الدائرة ؟ » ، فيهتفون « ابراهيم فرحات » وهكذا ، وهكذا ، حتى امتلأ بهم الطريق ، وتسرب منهم كثيرون الى السرادق . وجعل المرشح يرد الهتافات برفع يديه الى رأسه ، ثم اتجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلها من رافعى الأثقال بنادى الدراسة الرياضى . واقترب من الحلاق العجوز الذى حل محل الحلو ومد له يده وهو يقول : « السلام عليك يا أخا العرب » . فانحنى الرجل على يده فى استخياء

وترحيب ، وتحول عنه الى عم كامل قائلا : « لا تتجشم مشقة النهوض ، حلفتك بالحسين الا ما لزمت مكانك . كيف حالك .. الله أكبر .. الله أكبر ، هذه بسبوسة فريدة ، وسيعرف الناس جميعا قدرها هذه الليلة » .. وتقدم مسلما على كل من لاقاه ، حتى انتهى الى قهوة كرشة ، فحيا المعلم ، وجلس ودعا رفاقه للجلوس ، واستبق الى القهوة كثيرون حتى جعدة الفران وزيطة صانع العاهات ، وردد المرشح نظره بين الحاضرين فى سرور ، ثم قال مخاطبا المعلم كرشة :

— قدم شاى للجميع ..

وابتسم تحية لكلمات الشكر التى تناثرت عليه من كل حدب وصوب ثم التفت صوب المعلم قائلا :

— أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاج اليه السرادق من الطلبات .

فقال المعلم كرشة بشىء من الفتور :

— نحن فى الخدمة يا سى السيد ..

ولم يغب عن المرشح فتوره ، فقال برقة :

— نحن جميعا أبناء حى واحد ، وكلنا اخوان ..!

والحق أن السيد فرحات جاء القهوة خصيصا لاسترضاء المعلم كرشة ، ذلك انه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليستميله الى جانبه فيضمن صوته واصوات من يلوذ به من المعلمين وعمالهم ، وقدم له خمسة عشر جنيها مقدم آتعاب ولكن المعلم كرشة أبى أن يمسها محتجا بانه ليس دون الفوال — صاحب قهوة الدراسة الذى ذاع انه أخذ عشرين جنيها — منزلة ، وما زال به حتى حمله على قبول المبلغ واعدا اياه بالمزيد ، ثم افترقا والسيد مشفق من انقلاب المعلم عليه . والواقع أن المعلم كرشة لم يخل من غضبه

على « محدث لسياسة » هــذا على حد قوله ، واضمر له شر النيات اذا هو لم يبادر الى اصلاح خطئه . وكان المعلم كرشة يتيقظ – على غلبة الذهول عليه – فى المواسم السياسية . وقد اكتسب فى شــبابه شــهرة فى عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك فى الأمور الأخرى ! فاشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا ، وقد نسب اليه الحريق الكبير الذى التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحســين ، وكان من ابطال المعارك العنيفة التى دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى . ولما أن خمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميدانا جديدا على ضيقه لنشاطه وحماسته ، فبذل فى انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدا مشكورا ، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ ولو انه قيل وقتذاك انه قبل رشوة مرشح الحكومة ولكنه اعطى صوته لمرشح الوفد ، واراد ان يلعب الدور نفســه فى انتخابات صــدقى ، ويأخذ النقود ويقاطع الانتخابات ، ولكن عيون الحكومة راقبته يوم المعركة ، وحملته مع غيره فى لورى الى مركز الانتخابات فخرج على ارادة الوفد مرغما لأول مرة . وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة . فطلقها بعد ذلك وتزوج التجارة ، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة ، وانقلب نصيرا لمن « يدفع اكثر » . وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد ، قائلا : انه اذا كان المال غاية المتنابذين فى ميدان الحكم فلا ضير ان يكون كذلك غاية الناخبين المساكين ! وفضلا عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه ، وغلبه الذهول ، وركبته الشهوات ، ولم يبق فى روحه من الثورة القديمة الا ذكرى غامضة ربما كر اليها الخيال فاشاد بها متباهيا فى بعض ساعات الصفاء حول المجمرة ،

ولكنه نبذ فى قلبه جميع قيم الحياة الشريفة ، ولم يعد يعبأ بشىء من بعد ذلك الا « الكيف » و « الهوى » ، وما عدا ذلك « اردم » على حد قوله . لم يعد يكره أحدا ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الانجليز انفسهم ، ولم يعد يحب احدا كذلك ، ولذلك كان من العجيب حقا أن تدب فيه حماسة مفاجئة فى هذه الحرب فيتعصب للألمان ، وأن يتساءل - فى هذه الأيام خاصة - عن موقف هتلر ، إحقيقة قد أصبح مهددا ، والا يجمل بالروس ان يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح منفرد ؟ ! . ولكن اعجابه بهتلر كان ينعقد حول ما يذيع عن بأسه وبطشه ليس الا ، فكان يعده شيخ فتوات الدنيا ، ويتمنى له النصر كما تمناه طويلا لعنترة وابى زيد . بيد انه ظل محافظا على خطره فى ميدان الانتخابات ، لانه كان زعيم المعلمين الذين يتحلقون مجمرته كل ليلة ومن يتبعهم من فعلة وصبيان وبطانات ، ولذلك حرص السيد ابراهيم فرحات على استرضائه ، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين يقطعها فى قهوته متوددا مستعطفا .

وكان يسترق اليه النظر ، فمال على اذنه وسأله بصوت خافت :

- اراض انت يا معلم ؟

فتدلت شفته عن ابتسامة ، وقال فى شىء من التحفظ :

- الحمد لله ، انت الخير والبركة يا سى السيد ..

فهمس فى أذنه :

- سأعوضك عما فاتك خيرا كثيرا ..

وانبسطت اساريره وهو يقلب عينيه فى وجوه الحاضرين ، ثم قال برقة ورجاء :

- ان شاء الله لن تخيبوا لنا أملا ..

فتعالت الأصوات فى وقت واحد تقول :

ـ معاذ الله يا سيد فرحات . أنت ابن خطنا ..

فابتسم الرجل مطمئنا وانشأ يقول :

ـ انى كما تعلمون مستقل . ولكنى أستظل بمبادىء سعد الحقيقية . وماذا افدنا من الاحزاب ؟ ألا تسمعون مهاتراتهم ؟ انهم مثل لا كاد يقول ابناء الحوارى ، ثم ذكر انه يخاطب بعضا من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه قائلا) : دعونا من ضرب الأمثال . لقد اخترت الاستقلال عن الأحزاب حتى لا يمنعنى مانع من قول الحق . ولن اكون عبدا لوزير أو زعيم ، وسأذكر فى البرلمان اذا وفقنا الله للنجاح اننى اتكلم باسم أبناء المدق والغورية والصنادقية ، ولقد ولى عهد الثرثرة والنفاق ، أنتم تستقبلون عهدا لا يشغله شىء عن اموركم العاجلة كزيادة الأقمشة الشعبية ، والسكر ، والكيروسين ، والزيت ، وعدم خلط الرغيف ، وخفض اسعار اللحـوم ..

وساله سائل باهتمام شديد :

ـ هل حقا تتوافر هذه الضروريات غدا ؟

فقال الرجل بثقة ويقين :

ـ بغير جدال . وهذا سر الانقلاب الحاضر . كنت أمس أزور رئيس الحكومة (ثم ذكر انه قال انه مستقل فاستدرج قائلا) وهو يستقبل المرشحين على اختلاف الوانهم ، فأكد لنا أن عهده هو عهد الكساء والغذاء .

وازدرد ريقه ، ثم استطرد :

ـ سترون العجب العجاب . ولا تنسوا الحلوان اذا فزت فى الانتخابات .

فسأله الدكتور بوشى :

ـ الحلوان بعد ظهور النتيجة ؟

فالتفت السيد نحوه وقال وقد داخله شىء من القلق :

— وقبل ظهور النتيجة ايضا .

فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال :

— كالصداق له مقدم ومؤخر ، الا انت يا ست الستات فلا صداق لك ، لأن حبك روحى من السماء .

فتحول السيد الى الشيخ منزعجا ، ولكنه سرعان ما أدرك حين وقع بصره على زيه — الجلباب ورباط الرقبة والنظارة الذهبية — انه من أولياء الله الصالحين ، فارتسمت ابتسامة على وجهه الكروى وقال برقة :

— أهلا وسهلا بسيدنا الشيخ .

ولكن الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق فى ذهوله ، ثم انبرى احد تابعى المرشح قائلا :

— لكم ما تريدون ، ولنا القسم بكتاب الله ، وبالطلاق ..

فقال اكثر من صوت :

— وجب ...

واخذ السيد فرحات يسال الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية: ولما سال كامل اجابه :

— ليس لى تذكرة ، ولم أشترك فى اى انتخابات على الاطلاق..

فسأله المرشح :

— اين مسقط راسك ؟

فقال بغير مبالاة :

— لا أدرى ...

وضج الجلوس بالضحك ، وشاركهم السيد فرحات ، ولكنه غمغم دون يأس :

— ساسوى هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة .

وجاء فتى بجلباب ، حاملا مجموعة من الاعلانات الصغيرة ، فانتهز فرصة امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرق فيهم اعلاناته ،

وظن كثيرون أنها اعلانات انتخابية ، فاقبلوا عليها باحتفال مجاملة للسيد المرشح ، وتناول السيد فرحات اعلانا وقراه فاذا فيه :

« حياتك الزوجية ينقصها شيء .

عليك باستعمال عنبر السنطورى .

عنبر السنطورى

مركب بطريقة علمية خالية من المواد السامة ومحلل بمعرفة وزارة الصحة رقم ١٢٨ وهو منعنش ومفرفش ويعيدك من الشيخوخة الى الصبا فى خمسين دقيقة .

طريقة الاستعمال :

خذ منه قدر القمحة على كباية شاى حلو كثير . فتجد عندك النشاط . ومقدار ربع حق دفعة واحدة اقوى من جميع المكيفات . يسرى فى العروق كالتيار الكهربائى . اطلب علبة عينة من موزع الاعلان ، الثمن ٣٠ مليما يا بلاش .

سعادتك بـ ٣٠ مليما . والمحل مستعد الاستماع لملاحظات الجمهور » .

وضج المكان بالضحك مرة اخرى ، وارتبك المرشح قليلا ؛ وتطوع أحد بطانته بالتسرية عنه فصاح :

— هذا فال حسن .

ثم مال على اذنه وهمس قائلا :

— هلم بنا ، أمامنا احياء واحياء .

فنهض الرجل وهو يقول :

— نستودعكم الله ، الى لقاء قريب ان شاء الله ، اللهم حقق الآمال . وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهم بمغادرة القهوة :

— يا سيدنا الشيخ ادع لى .

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلا وقد بسط ذراعيه :

ـ الله يخرب بيتك .. !

وما آذنت الشمس بالمغيب حتى كان السرادق قد ضاق عن القاصدين . وتناقل الحاضرون أن سياسيا كبيرا سيلقى خطابا هاما . وذاع ان شعراء وزجالين سيتبارون على المسرح . ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارىء وتلا ما تيسر من الذكر الحكيم . واعقبته فرقة موسيقية من شيوخ مهدمين مهلهلى الثياب فعزفوا النشيد الوطنى . وكان لاذاعة المكبرات لموسيقاهم أثر واضح فى دعوة الغلمان والصبية من الأزقة والحوارى حتى سدوا الصنادقية سدا . وتعالى الهتاف والضوضاء ، وانتهى النشيد دون أن يبرح رجال الفرقة اماكنهم ، حتى ظن ان الخطباء سيلقون خطبهم على انغام الموسيقى . ثم كانت المفاجاة السارة اذ دق بعضهم أرض المسرح حتى شمل الصمت الجمع المحتشد ، ثم بدأ مونولوجست معروف فى لباسه البلدى . فما كادت تراه الأعين المحدقة حتى جن جنونهم فرحا وسرورا ، وراحوا يهللون ويصفقون . وقال المونولوجست وتفنن ، ورقصت امرأة شبه عارية وهى تهتف المرة تلو المرة : « السيد ابراهيم فرحات .. الف مرة .. ألف مرة » . وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح فى المذياع : (السيد ابراهيم فرحات أحسن نائب .. ميكروفون بهلول احسن ميكروفون) ، واتصل الغناء بالرقص والهتاف ، وانقلب الحى جميعا الى مولد .

ولما عادت حميدة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة فى أبان ازدهارها وسرورها ، وكانت تظن كاهل الزقاق كافة انها ستكون حفلة هتاف وخطب (بالنحوى) على حد تعبيرهم . وما ان رات المنظر البهيج حتى شملها السرور وتلفتت يمنة ويسرة باحثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التى نادرا ما ترى مثلها فى حياتها . ومضت تشق طريقها بصعوبة بين الغلمان والبنات

حتى بلغت مدخل المدق ، واقتربت من جدار الصالون ، وارتقت حجرا منفرسا لصق الحائط وتطلعت باهتمام وسرور الى السرادق .

كان الغلمان والبنات يكتنفنها من كل جانب ، ووقفت نسوة كثيرات يقبضن على أيدى اطفالهن او يحملنهم على أكتافهن . واختلط الغناء بالهتاف ، والحديث بالصياح ، والضحك بالعويل . واستولى المنظر الخلاب على لبها فانجذبت روحها اليه ، والتمع السرور فى عينيها الفاتنتين ، وفمها المفتر عن ابتسامة لؤلؤية . وكانت متلفعة بملاءتها فلا يبدو منها الا وجهها البرنزى ، واسفل ساقيها ، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مقدم شعرها الفاحم . ورقص قلبها سرورا ، وتنبهت حواسها جميعا ، وجرى دمهـا حارا دافقا . سرها المونولوجست سرورا لم تشعر بمثله من قبل ، حتى شعورها المر القارص نحو الرافضة لم يستطع أن يفسده عليها . وظلت مستغرقة فيما ترى غير ملقية بالا الى هبوط الظلام حتى احست شيئا ما يجذب عينيها نحو اليسار . كأنه نداء يدعو حواسها اليه ، أو ذلك الشعور الذى يقلقنا اذا حدقت فينا عينان ، ولبثه على رغمها فتحولت عن المونولوجست عاطفة رأسها الى يسارها فالتقت عيناها بعينين تتفرسان فيهـا بقوة وقحة ! ولبثتا مقدار ثانية ثم عادتا الى هدفهما ، ولكنها لم تستطع أن تنعم باستغراقها الأول ، وظل شعورها منتبها الى العينين العارمتين ، وجعلت حدقتاها تميلان ناحية اليسار ، وسـاروها شك وقلق ، فالتفتت مرة اخرى فالتقت بالعينين تتفرسان فيها بالقحة نفسها ، وقد نمتا — الى ذلك — عن ابتسامة غريبة ، ولم تتمالك نفسها فاعادت راسها الى موضعه الأول فى شىء من الحدة وقد ملأها الحنق . احنقتها هذه الابتسامة الغريبة لأنها افصحت عن ثقة وتحد لا حد لهما ، فهيجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها الشرسة المتفجرة ، وشعرت برغبـة جامحة أن تنشب

اظافرها فى شىء ما ـ فى رقبته لو امكن مثلا ! . وصممت على أن تهمله مع نفورها من هذه الطريقة السلبية فى العراك . وأن ظل شعورها قويا بعينيه الوقحتين ! ونغص عليها سرورها ، وركبتها روح الشر التى تلبيها بسرعة جنونية . وكان صاحب العينين لم يقنع بما فعل ، أو كأنه لا يبالى هذه النار التى شبها ، فراح يشق طريقه الى موضع فى طريق بصرها الشاخص الى السرادق متعمدا بلا شك ان يعترض سبيلها ، ووقف هنالك موليا اياها ظهره . كان طويل القامة نحيفا ، عريض المنكبين ، حاسر الرأس ، غزير الشعر ، مرتديا بدلة ذات لون ضارب للاخضرار ، متأنقا فى ملبسه ومظهره ، فلاح غريبا فى هـذا الوسط الذى يكتنفه ، وسرعان ما انستها الدهشة ما تولاها من حنق وتوحش . هذا افندى وجيه ، وأين من زقاقها الأفندية ؟ ! ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام ؟ .. ولكن لم يكن شىء ليردعه ، فما عتم أن التفت وراءه مرسلا نحوها نظرا عارما . وكان وجهه نحيلا مستطيلا ، لوزى العينين ، كثيف الحاجبين ، تنطق نظـرة عينيه بالحـذق والقحة . ولم يكتف بهذا التفرس على الملأ فصوب فيها نظره وصعد من شبشبها المنجرد الى شعرها ، حتى انساقت وهى لا تدرى الى النظر الى عينيه كأنما لتسبر ما تركه تفحصه من اثر ، فالتقت عيناهما ، ولاحت فى عينيه النظرة المثيرة الوقحة الواشية بما يتيه به من ثقة وتحد وظفر ؛ فتناست دهشتها ، وعاودها الحنق والغيظ والرغبة فى العراك . فغلا دمها غليانا ، وهمت أن تشتمه علانية . همت أكثر من مرة ، ولكنها لم تفعل ، وتولاها قلق وانفعال ، وضاقت بوقفتها . فنزلت عن الحجر ، ومرقت الى الزقاق مندفعة على عجل ، فقطعته فى ثوان . وعندما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة فى الالتفات الى الوراء ، ولكنه تمثل لعينيها فى وقفته مرسلا عينيه فى وقاحة وثقة وقد ازدادت

ابتسامته افتضاحا ، فرغبت عن رغبتها ، وارتقت السلم متعجلة حانقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها فى تاديبه ، واتجهت نحو حجرة النوم وخلعت ملاءتها ، ثم دلفت الى النافذة المغلقة ، ونظرت الى الطريق من خلال خصاصها . وبحثت عيناها عن ضالتها حتى استقرتا عليه عند مدخل الزقاق ، وكان يرمق النوافذ المطلة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدى ، وحل محلها احتفال وتطلع . وسرها مظهره الجديد فانفثا حنقها ، ولبثت بموقفها تستلذ حيرته وتنتقم لغيظها وحنقها . افندى وجيه ما فى ذلك من شك ، وغير السابقين بلا جدال ، وقد اعجبته والا ففيم هذا الاهتمام الشديد . واما نظرة عينيه فقاتلها الله من نظرة تستوجب اعنف عراك ! .. ففيم هذه الثقة التى لا حد لها ؟ أيحسب نفسه بطل الأبطال او امير الأمراء ؟ وخالط ارتياحها حنق ، ووجدت رغبة غامضة فى العنف والتحدى . ولكنه بدا ييأس من النوافذ ، واعياه البحث عنها ، وخافت ان ينصرف عن تطلعه ويغيب فى الزحام . وترددت لحظة ، ثم ادارت الأكرة ، وفرجت ما بين مصراعى النافذة عن زيق ووقفت وراءه كانما لتشاهد الحفلة . كان موليا الزقاق ظهره ، ولكنها كانت مطمئنة الى انه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء . وقد فعل ، فتلفت رأسه مرة اخرى وتردد بين النوافذ ، حتى علق بالزيق فأضاءت صفحة وجهه ، ولبث لحظات كالمرتاب ، ثم ... ثم ارتسمت على شفتيه هذه الابتسامة الوقحة ، ورد اليه مظهر التيه والخيلاء بافظع مما كان . وادركت انها انزلقت الى خطأ لا يغتفر بظهورها ، وثارت ثائرتها واستولى عليها الحنق والغيظ ، ووجدت فى ابتسامته تحديا يدعوها للنزال ! وجدت فى هاتين العينين ما لم تجد عند احد من قبل ، وقرأتهما بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطشة للعراك ، وبدا الرجل وكأنه شيئا لا يمكن

ان يقفه عند حد ، فتحرك مصعدا فى الزقاق بقدمين ثابتتين حتى خيل اليها انه قادم الى البيت . ثم مال الى قهوة كرشة ، واختار مجلسا ما بين المعلم كرشة واريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عباس الحلو فى الأيام الخوالى مستطلعا الى شبحها وراء الخصاص . وخطا بجلوسه هذه خطوة جريئة . ولكنها لم تتراجع . لبثت بموقفها مرسلة عينيها الى المسرح وان كانت لاتكاد تدرى بما يدور عليه . شاعرة ببصره يصوب نحوها من آونة لاخرى فى ومضات متقطعة كالكشاف الكهربائى ...

ولم يفارق الرجل مكانه حتى انتهت الحفلة واغلقت النافذة .

وما انفكت حميدة تذكر هذه الليلة فيما اعقب ذلك من ليالى وعهود .

— ٢٠ —

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدق . فكان يجىء عند العصر ويتخذ مجلسه المختار . ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاى . وقد احدث ظهوره الطارىء — بوجاهته واناقته — دهشة فى القهوة ، ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذيول الاهمال . فليس من الخوارق ان يقصد افندى مثله قهوة مفتوحة لكل طارق . بيد انه اتعب المعلم كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقدية ضخمة لا تقل فى كثير من الأحيان عن الجنيه ! كما انه اسر « سنقر » بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له به من قبل ، وراقبت حميدة مجيئه يوما بعد يوم بروح متفتحة ونفس متوثبة . ولكنها احجمت باذىء الأمر عن خروجها الى فسحتها اليومية لرقة ثوبها وتفاهتها . حتى ضاقت بالبيت ضيقا

شديدا ، ثم اغضبها احجامها وعدته نوعا من الجبن لا يسيغه طبعها الجرىء ، وعز عليها أن يقضى مخلوق عليها بالتزام شىء تستكرهه، فنشبت معركة جديدة فى صدرها الذى لا يستريح من المعارك . وقد رات الأوراق النقدية التى كان يتعمد تقديمها لسنقر تحت بصرها ، وفطنت بطبيعة الحال الى دلالتها . وربما كانت هذه لغة ساقطة فى غير هذا المكان ، اما فى زقاق المدق فهى لغة بليغة لا يخيب لها اثر ، ومع ان الرجل كان شديد الحرص على الا يبدر منه ما ينبه أحدا الى الباعث الحقيقى لغشيانه القهوة ، الا أنه كان لا يعدم فرصة فيها يسترق النظر الى خصاص النافذة ، او يضع مبسم النارجيلة على فيه زاما شفتيه كأنه يقبله ثم يرسل الدخان الى عل كانما يرسل القبلة فى الهواء الى شبحها الجاثم وراء النافذة . وكانت ترى ذلك باهتمام ، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق . وقد حدثتها نفسها بأن تنطلق الى نزهتها ملقية بمخاوفها تحت نعليها ، وان تلقاه اذا سولت له نفسه التعرض لها — الأمر الذى لا يداخلها فيه أدنى شك — بما تعهده فى نفسها من قحة حقيقة بأن تهزم قحته شر هزيمة ، وان تسلقه بلسانها سلقا لا ينساه مدى الحياة . وانه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب ، وابتسامته الظافرة ، وتحديه الوقح . تبا له ، ما الذى يدعوه لهذا التظاهر بالغلبة والقهر ؟ ! لا يرتاح لها بال حتى تمرغ أنفه فى الرغام ، ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة او شبشبا جديدا ؟ ! . . .

وقد اعترض سبيل حياتها وهى تعانى اليأس المرير ، اذ سقط السيد سليم علوان بين حى وميت بعد أن مناها يوما وبعض يوم بالحياة العريضة التى تهيم بها ، وبعد أن نسلت من احلامها عباس الحلو ولفظته . وعلمت بعد ذلك انه لم يعد ثمة أمل فى ذلك الزواج المأمول ، فردت على رغمها خطيبة للحلو . وقد ازدادت له

مقتا ونفورا . وابت أن تسلم بسوء حظها ، وراحت تنهر أمها ، وتتهمها بانها حسدتها وطمعت فى مال الرجل فخيب الله آمالها ، على هذه الحال لاح الرجل الجديد فى أفق حياتها . وقد بعث ظهوره فى نفسها ثورة عارمة جارفة استثارت كوامن غرائزها جميعا . اغضبها زهوه . وأحنقها تحديه ، واغرتها وجاهته ، وايقظتها فحولته وجماله . جذبتها نحوه قوة خفية من غرائزها المطمورة ، ووجدت فيه ما لم يجتمع لسواه ممن عرفت من الرجال : القوة والمال والعراك !. ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلاء . أو تدرى حاجات نفسها الملتوية ، فتحيرت بين انجذابها اليه ، وبين رغبتها المضطرمة فى الاخذ بتلابيبه . ثم وجدت فى الانطلاق مهربا من سجنها وحيرتها معا . وفى فسحة الطريق مجالا تسبر فيه نفسها وغرائزها . فى الطريق يجوز أن يتعرض لها ، فتتاح لها فرصة أن تتحداه كما تحداها ، وأن تنفس عن غضبها وحنقها ، وأن تلبى هذا النداء الخفى الذى يهيب بها الى النزول والعراك ... والانجذاب !

***

وفى عصر يوم من تلك الايام ، اخذت زينتها ، والتحفت ملاءتها وغادرت الشقة لا تعبا شيئا فى الوجود . وانتهت الى الطريق فى اقل من دقيقة ، ثم قطعت الزقاق لا تلوى على شىء . وخطر لها خاطر وهى تميل الى الصنادقية . الا يحق له أن يظن بخرجتها هذه الظنون ؟ الا تزعم له نفسه المغرورة أنها غادرت بيتها عمدا لتلقاه فى الطريق !. خصوصا وانه لا يدرى شيئا عن نزهتها اليومية المعتادة ، وقد جاء أياما متتابعة فلم يرها يوما تغادر البيت . فسيتبعها على الأثر ، ويتعرض لها فى الطريق . وقد ابت أن تقيم وزنا لظنونه . ورحبت بما عسى أن يدفعه اليه-

الغرور ، وتوثبت للقائه بنفس تتحرق على التحدى والعراك . متوعدة اياه بأن تمحو عن شفتيه هـذه الابتسـامة الظافرة السخيفة . وبلغت فى سيرها الوئيد السكة الجديدة . فتخيلته وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجلا حتى لا يضلها ، ولعله ينحدر الآن بخطواته الواسعة الى الغورية . ولعله يفتش عنها بعينيه المتفرستين الجسورتين . انها تكاد تراه بظهرها وهو يهرول بجسمه الطويل ، بينما لا تكاد ترى عيناها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيارات وعربات . ترى هل أدرك بصره ما خرج فى ابتغائه ؟.. وهل عاودته الابتسامة المتحدية الظافرة؟! قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره !. فلتواصل السير دون ان تلتفت الى الوراء ، حذار من الالتفات ، فالتفاتة واحدة شر من الهزيمة . انه وقح جرىء ، ولعله لا يفصلهما الآن سوى خطوات . ترى ماذا هو فاعل ! أيقنع بتأثرها كالكلب ؟ أم يسبقها قليلا ليريها نفسه ؟ أم يحاذيها ويأخذ فى مخاطبتها ؟. وواصلت السير متنبهة قلقة ، مترقبة متوثبة . تتوقع فى كل خطوة جديدا ، وتتفحص عيناها جميع الذين يلحقون بها ويتقدمونها من المارة ، وتنصت بيقظة للأقدام التى تتحرك وراءها . أرهقها الانتظار والتربص والتوثب . وكادت تراود ارادتها فى التلفت . بيد انها استعادت عنادها وفظاظتها وسـارت لا تلوى على شىء ، فمـا تدرى الا وصويحباتها من بنات المشـغل يقبلن نحوها غير بعيـدات ! ، فخرجت من غيبوبتها . وارتسمت على شـفتيها ابتسامة ، ثم سلمت ، ودارت على عقبيها تسير وسطهن ، وهن يسألنها عن سر غيابها أياما على غير عادة ، واعتلت بالمرض وهى تعاين الطريق لترى موقعه منه . ومضت تنازعهن الحديث والمزاح وعيناها تترددان من طوار لطوار . ترى فى أى مكان ينزوى ؟ لعله يراها من حيث لا تراه . ومهما يكن من امر فقد افلتت من يدها فرصـة تاديبه

اليوم ؛ وكانت ترجو أن يتعرض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه ، ولكنه نجا من مخالبها . ولكن اين يكون ؟ أيمكن ان يكون متأخرا عنهن الى الوراء ؟ ولم تستطع ان تقاوم رغبتها فى التلفت هذه المرة . فالتفتت . وفحصت الطريق ببصر حاد ، ولكنه لم يكن هناك ، لا الى الوراء ولا الى الأمام ولا الى اليمين ولا الى اليسار ! لعله تأخر قليلا فى الافلات من القهوة فاضلها ، ولعله يتخبط الآن فى الطريق لا يدرى مكانها ! وسرعان ما فترت حماستها وخمد نشاطها . وعندما انتهت الى الدراسة خطر لها انه ربما بدا لها هنا فجاة كما بدا يوما عباس الحلو وتجدد الأمل ، ونشطت الحماسة فودعت آخر صويحباتها ، وعادت متمهلة تقلب عينيها فى جنبات الطريق . ولكنه كان خاليا أو كان خاليا ممن تبتغى . وقطعت ما تبقى منه بقلب كسير !... تنوء بهزيمة نكراء . وصعدت مع أرض الزقاق ، واتجهت عيناها الى القهوة ، واخذ المعلم كرشة يبدو لها شيئا فشيئا ابتداء من طرف عباءته فكتفه الأيسر حتى رأسه المتطامن . ثم .. رباه ما هذا ؟! انه لم يبرح مكانه ، قابضا على خرطوم نارجيلته !.. وخفق قلبها بعنف ، وتصاعد الدم الى وجهها ورأسها . وهرولت الى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها ، وارتقت السلم ذاهلة من الخجل — وان كان الخجل ليس من سجاياها — وما كادت الحجرة تحتويها حتى انفجرت براكينها واستولى عليها غضب جنونى ، فطرحت الملاءة على الأرض وارتمت على الكنبة . لم اذا يجىء القهوة كل مساء ؟ وكيف يسترق اليها النظر بعينيه الفاجرتين ؟.. ولمن يرسم تلك القبلة الخفية فى الهواء ؟!.. وتناوبت قلبها مشاعر الخيبة والحيرة والخجل والغضب . ثم انثالت عليها الفكر والخواطر: ايمكن الا يوجد ارتباط بين مجيئه كل مساء وبين أفكارها ، وأن ليست هذه الأفكار الا اوهاما واحلاما كاذبة ؟ .. أم أنه تعمد أن

يهملها اليوم تاديبا لهـا وتعذيبا ، فهو يعبث بهـا عبث القوى بالضعيف ؟!.. أتنهض الى القلة وتقـذفه بها فتحطم رأسـه وتروى غلة الحنق والانتقام ؟!. واستولى عليها شـعور ممض بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل ، حتى لقد تساءلت فى حيرة عما أصابها . بيد انها لم تكن تجهل ما كانت تريد . كانت تريد بلا شك أن يتبعها وأن يتعرض لها فى الطريق .

ثم ماذا ؟. ثم تقذفه بحمم الغضب والحنق والوعيد . لماذا ؟ تحديا لثقته بنفســه وزهوه وابتسامته الواشية بالظفر . كانت ابتسامة الظفر اصل البلاء كله ، فادركت مغزاها بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها . هى ابتسامة الصراع والعراك ! وانهـا على مساجلتها لقادرة ، لا بل انها لم تخلق الا لتتلقى هـذه الابتسامة ومتيلاتها فتجيب عليها . كانت تاسى على فوات معركة طالمـا ترقبتها بلهفة وشغف ، وكانت فى اعماقها تتحرق الى أن تقيس قوتها بقوة هـذا الرجل ذى الفحولة والجاه والخيلاء . هكذا تيقظت فى عنف وشدة ، وانبثت فى نفسها اللهفة والتمرد والعراك والشوق ..

لبثت على الكنبة فريسة لهياجها الوحشى ، ثم تلفتت الى النافذة ترمقها شزرا ، وجعلت تتزحزح حتى صارت وراءها . ثم أرسلت بناظريها من خلال الخصاص ، ترى ولا ترى ، متلفعة بالعتمة التى غشيت الحجرة . رأته فى جلسته الهـادئة ، يدخن النارجيلة فى طمأنينة وسـلام ، تلوح فى عينيه الثقـة بالنفس والحذق ، وكأنه يعيش فى عالم وحده منقطع عما حوله . وقد خلا وجهه من آثار هـذه الابتسامة المثيرة . ها هو هادىء مطمئن بينما هى تشتعل نارا . وتفرست فيـه بقوة وحنق فما تزداد الا انفعالا وحيرة . وظلت ملازمة مكانها حتى نادتها أمها لتناول العشاء فغادرت الحجرة وقطعت ليلة مملة مضنية ، ونهارا كئيبا ،

وانتظرت عصر اليوم الثانى فى قلق متواصل . لم يكن يداخلها شك فى مجيئه فى الأيام الماضية . اما اليوم فباتت تترقب شاردة النفس ، وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن أرض الزقاق ويرقى ويبدأ جدار القهوة ومن عجب أن خامرها الخوف من عدم مجيئه . ولعلها ابتدعته ذلك بغريزة المحارب المشاكس وكيده . وجاء موعده دون أن يبدو له أثر ، وتصرمت دقائق ودقائق ، فمن المؤكد انه لا يحضر اليوم . بيد ان هذا التخلف حقق ظنها ، فادركت أنه تغيب متعمدا ، وارتسمت ابتسامة على شفتيها وتنهدت من الأعماق ارتياحا ، لم يكن هناك شيء واضح يدعو للارتياح حقا ، ولكن غريزتها اسرت اليها بانه اذا كان اليوم قد تخلف عن الحضور متعمدا فلا شك أنه بالأمس تعمد كذلك ألا يطاردها ، فليس ثمة اهمال او عدم مبالاة ، لا بل على العكس من ذلك هو يخوض غمار المعركة بمهارة وحذق ، وانه لصامد فى الميدان حتى فى هذه الساعة التى لا يرى له اثر فيها . وارتاحت الى اسرار غريزتها ، واطمانت اليه ؛ وتوثبت للنضال بعزم جديد . ونبا بها المكث فى البيت فتلفعت بملاءتها وغادرت البيت دون ان تعنى بزينتها كما اعتنت بها أمس . ولفح الهواء البارد فى الطريق وجهها فانعشها ؛ وذكرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق وفكر ، فغمغمت ساخطة : « يا لى من مجنونة !.. كيف جشمت نفسى هذا العذاب ؟!.. الا فليزدرده الموت ! » واستحثت خطاها حتى التقت بصويحباتها . ثم عادت معهن ، وقد انذرنها بأنهن سيفقدن قريبا احداهن التى ستتزوج من زنغل صبى دكان طعمية سيدهم ، وقالت احدى الفتيات :

— لقد خطبت قبلها ولكنها ستتزوج قبلك ..

واثارها قولها فقالت بحدة وخيلاء :

— ان خطيبى مشغول باعداد مستقبل باهر ..

تباهت بالحلو على رغمها . ثم ذكرت متحسرة السيد سليم علوان — قتله الله ككل شيء غير ذى نفع — فتنزى قلبها ألما ، وتولاها الوجوم بقية الطريق . شعرت بأن الحياة تعاندها وتكبد لها . والحياة هى العدو الوحيد الذى لا تدرى كيف تأخذ بتلابيبه، وسارت فى رفقة الفتيات حتى آخر الدراسة . ثم ودعت اخراهن، ودارت على عقبيها لتعود من حيث اتت . وعلى بعد اذرع رأته — رجلها دون غيره — واقفا على الطوار كالمنتظر ! وتبتت بصرها عليه لحظات تحت تأثير المفاجأة التى دهمتها . واعتراها شىء من الارتباك عضت عليه اصابع الندم بعد فوات الفرصة . ثم واصلت السير فى شبه ذهول . لم تكن مستعدة لهذا اللقاء ، ولم يعد يداخلها شك فى أنه كان يتأثرها طوال هذا الوقت . وهكذا يحكم هو التدبير فى هدوء . ويدهمها فى كل مرة الارتباك والذهول . واخذت تنادى قواها المبعثرة وتستعدى وحشيتها ، وقد آلمها أشد الألم انها لم تجد زينتها كما ينبغى . واحدث لها ذلك غير قليل من القلق . كان الجو متخشعا تحت سمرة المغيب ، والمكان كالمقفر ، وكان الرجل ينتظر دنوها فى هدوء ، بوجه وديع لا اثر فيه لنظرة التحدى ، ولا لابتسامة الظفر ، فلما حاذته خاطبها بصوت منخفض قائلا :

— من يتحمل مرارة الصبر يبلغ ..

ولم تسمع تتمة عبارته لأنه غمغمها ، فحدجته بنظرة حادة ، ولم تنبس بكلمة . وسارت لحال سبيلها ، فسايرها وهو يقول بصوته الهادىء العميق : اهلا وسهلا . كدت اجن بالأمس لأنى لم استطع الجرى وراءك حذر العيون . وكنت انتظر مثل تلك الخرجة صابرا يوما بعد يوم . فلما أن جاءت الفرصة دون ان استطيع انتهازها كدت أجن ..

انه يطالعها بوجه وديع ، غير الوجه الذى اعاجها ، فلا تحدى

ولا ظفر . وكلام اشبه بالشكوى والتوجع والاعتذار . وهى انما توثبت لغير هذا فما عسى أن تصنع الآن ؟. أتهمل شانه وتحث خطاها فينتهى كل شىء ؟.

تستطيع أن تفعل هذا لو ارادت ، ولكنها لم تجد مشجعا من قلبها ؛ وكأنها كانت تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأول ، فسارت بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها .

وكان الرجل من ناحيته يمثل دوره بمهارة ، ويحيك اكذوبة ماكرة . فلم يكن خوفه الذى اقعده أمس عن تعقبها ، ولكنه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فاوحتا اليه بان القعود فى حالته خير من العجلة ، كما أوحتا اليه اليوم بأن يتلثم بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة . وعاد يقول لها برقة :

— تمهلى قليلا .. عندى ..

فالتفتت اليه وقاطعته بحدة :

— كيف سولت لك نفسك ان تخاطبنى !.. اتعرفنى يا هذا ؟!

فقال بأدبه الزائف :

— كيف لا ؟.. نحن أصدقاء قدماء .. وقد رايتك فى الايام الماضية أكثر مما رآك الجيران فى اعوام طوال . وفكرت فيك اكثر مما فكر الصق الناس بك مدى عمره ، فكيف لا أعرفك بعد هذا كله ؟!

تكلم برقة ولكن بلا تلعثم ولا تهدج .. وازدادت هى تعلقا بكلامه ورغبة فى مساجلته ، وتولاها شعور بالاستهانة ، وهو السلاح الوحيد الذى تستطيع أن تشهره فى وجه عناد الحياة . بيد انها لم ترد الخروج على « سنة التصنع والتمثيل » ، فقالت بحدة وهى تحرص على الا يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن :

— لماذا تتبعنى ؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة :

— لماذا اتبعك ؟.. لماذا أهمل أعمالي والزم القهوة تحت نافذتك ؟. لماذا اهجر الدنيا جميعا مقيما بزقاق المدق ؟.. ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل ؟!.

فقطبت وقالت بازدراء :

— لست أسالك حتى تجيبني بهذه السخافات . ولكني انكر عليك أن تتبعني وتخاطبني .

فقال بلهجة تنم عن الثقة واللباقة :

— الأصل ان نتبع الحسناء اينما سارت . هذه هي القاعدة ، فاذا ما سارت ولم يتبعها احد فهذا هو الشذوذ الموجب للانكار حقا ، أو بمعنى آخر اذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا ايذان بقرب القيامة ..

ومرت عند ذاك بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمنت أن يرينها وهذا الأفندي يغازلها !. ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة :

— ابتعد .. هذا حي يعرفني !

وكان يتفحصها بنظر ثاقب ، فأيقن أنها تجاذبه الحديث وهي لا تدري ، أو وهي تدري ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة لو راتها لعادت الى راسها ذكريات وحشية . وقال لها :

— لا هذا الحي حيك ، ولا هؤلاء الناس اهلك !. انت شيء آخر ، انك ها هنا غريبة ..!

فأمن قلبها على قوله ، وسرت به سرورا لم تشعر بمثله لقول قبله ، واستدرك الرجل قائلا كالساخط :

— كيف تسيرين بملاءتك بين هؤلاء الفتيات !.. اين هن منك !. أميرة في ملاءة ، ورعية ترفل في الثياب الجديدة ..

فقالت بحدة :

— مالك انت ولهذا !. ابتعد ..

فقال محتجا :
ـ لن أبتعد أبدا ..
فسألته بحدة :
ـ ماذا تريد ؟
فقال بجراة عجيبة :
ـ اريدك أنت . ولا شيء غيرك ..
ـ ذبحة ..
ـ سامحك الله . لماذا تغضبين ؟.. ألست فى الدنيا لتؤخذى ؟.. وانى لآخذك ..

ومرا فى طريقهما ببعض الدكاكين ، فنهرته قائلة :
ـ لا تخط خطوة واحدة ، والا ..
فقال مبتسما :
ـ الضرب ..
وخفق قلبها . وتألقت عيناها ، فقالت :
ـ صدقت .
فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :
ـ سنرى . سأتركك الآن على رغمى ، ولكنى سأنتظرك كل يوم ، لن اعود الى القهوة حتى لا اثير الشبهات فى الزقاق . ولكن سأنتظرك كل يوم .. كل يوم ، مع سلامة الله يا اجمل من حملت الأرض ...

واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشر والسرور والغرور . «أنت شيءآخر» .. اجل ، وماذا قال ايضا ؟ « انك ها هنا غريبة » .. « ألست فى الدنيا لتؤخذى ؟.. وانى لآخذك » .. وماذا قال ايضا ؟.. « الضرب ... » .. داخلها لذة جنونية ، وسرور وحشى ، فقطعت الطريق لا تكاد ترى شيئا ، ولما أوت الى غرفتها واستردت انفاسها ، ذكرت فى عجب وزهو

أنها استطاعت ان تساير رجلا غريبا وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك !. وانها تستطيع أن تفعل ما تشاء بلا تردد ، وغمرتها موجة عارمة من الاستهانة والاستهتار حتى أفلتت منها ضحكة عالية ، ثم ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه من الاخذ بتلابيبه !.. فاستولى عليها الوجوم لحظة قصيرة ، ثم جعلت تعتذر لنفسها بأنه لم يلقها بذلك الوجه الصفيق المتحدى ، لا بل راح يحدثها حديثا رقيقا مؤدبا ، لا عن وداعة طبيعية ، فقلبها يحدثها بأنه نمر يتحين فرصة للوثوب : فلتنتظر ... لتنتظر حتى ينكشف عن حقيقته ، وهنالك ؟!.

وعاودتها لذتها الجنونية وسرورها الوحشى ..

— ٢١ —

كان الدكتور بوشى يهم بمغادرة شقته حين جاءته خادم الست سنية عفيفى تدعوه لمقابلة سيدتها . وعبس وجه الدكتور وتساءل فى انكار : « ماذا تريد المرأة ؟ ! . زيادة ايجار ؟! » ولكنه سرعان ما نفى هذا الظن عن خاطره ؛ لأن الست سنية لا تستطيع ان تتحدى القوانين العسكرية التى تحدد أجور المساكن فى اثناء الحرب . وغادر شقته وارتقى السلم متجهم الوجه . كان الدكتور بوشى — كعادة السكان — يستثقل الست سنية عفيفى ، ولا يفتأ يشهر ببخلها فى كل زمان ومكان . وقد شنع عليها يوما فقال : انها تفكر فى بناء حجرة خشبية على سطح بيتها لتقيم فيها وتؤجر شقتها . وضاعف حقده عليها أنه لم يقدر — ولو مرة واحدة — على الافلات من اداء أجرة شقته اليها ، اذ كانت المرأة تستعين بالسيد رضوان الحسينى اذا تحرج الأمر ؛ فلم يسر الرجل بهذه

الدعوة ؛ ودق الباب وهو يتعوذ قائلا : « لطفك يا دافع البلاء » . وفتحت له الست بنفسها ، وكانت متلفعة بخمار ، ودعته الى حجرة الاستقبال ، ودخل الرجل وجلس ، ولحقت به الخـادم بالقهوة فشرب ، ثم قالت له الست :

ـ دعوتك يا دكتور لتكشف على أسنانى ..

ولاح الاهتمام فى عينى الرجل . واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة التى لم يتوقعها قط ، وشعر نحو الست بمودة لأول مرة فى حياته وسالها :

ـ هل وجدت الما لا سمح الله ؟ .

فقالت الست سنية :

ـ كلا والحمد لله ، ولكنى فقدت بعض الضروس والأسنان ونغض البعض الآخر ...

وتضاعف سرور الدكتور ، وذكر ما تهامس به أهل الزقاق من أن الست ستغدو عما قريب عروسا . فلعب الطمع بقلبـه وقال :

ـ الأوفق أن تركبى طقما جديدا ..

فقالت الست :

ـ هذا ما فكرت فيه ، ولكن هل يلزم وقت طويل لذلك ؟

فنهض الرجل واقفا واقترب منها وهو يقول :

ـ افتحى فمك ..

ففغرت المراة فاها ، وتفحصه الرجل بعينين ضيقتين ، ولم يجد به الا اسنانا معدودات . فدهش واحس ببعض الخيبة ، ولكن حذر أن يهون من خطورة عمله ، فقال فى تؤدة :

ـ يلزمنا بضعة أيام لاقتلاع هذه الأسنان ، ولكن ربما اضطررنا الى الانتظار ستة اشهر قبل تركيب الطقم حتى تجف اللثة وتأخذ راحتها .

— عشرة جنيهات !

وانزعجت المرأة التى تجهل الأثمان الحقيقية للطقوم الذهبية ورددت قوله فى انكار :

— عشرة جنيهات !

وتميز الرجل غيظا وقال :

— ان ثمنه لا يقل عن خمسين جنيها عند أولئك الأطباء الذين يتاجرون بفنهم ، ولكننا وا أسفاه قوم سيئو الحظ .

وتجاذبا الثمن الذى اقترحه ، هو يحاول أن يستمسك به ، وهى تروم خفضه حتى تم الاتفاق على ثمانية جنيهات ، وغادر الدكتور الشقة وهو يلعن فى سره العجوز المتصابية .

وكانت الست سنية عفيفى ، تلك الأيام ، تلقى الحياة بوجه جديد ، كما كانت الحياة تطالعها بوجه جديد ، كذلك بات الأمل السعيد قاب قوسين أو أدنى ، واصبحت الوحدة ضيفا ضعيف الظل يأخذ أهبته للرحيل ، وأوشكت البرودة الجاثمة فى روحها ان تذوب وتجرى ماء دافئا . بيد أن السعادة لا تنهل بغير ثمن ، وبغير ثمن فادح أيضا . ولقد عرفت هذا الثمن الفادح فى ترددها على محال الأثاث بشارع الأزهر ، ومعارض الثياب بالموسكى . ومضت تنفق مما اكتنزت ذاك الدهر الطويل ، بل تنفق بغير حساب . وكانت أم حميدة لا تكاد تفارقها فى حلها وترحالها ، واثبتت لها بمهارتها الفائقة ، وبما تقدم لها من معونة فى كل خطوة تخطوها ، أنها كنز نفيس لا يقدر بثمن ، وان كان باهظ التكاليف فى الوقت نفسه ، ولم تقبض عنها يدها معللة نفسها بوشك انتهاء هذه المحنة ، على أن الأثاث والثياب لم تكن كل شىء ؛ ولم يكن بيت العروس الشىء الوحيد الذى يستوجب التحديد ؛ وانما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم ؛ وقد قالت يوم لأم حميدة وهى تضحك فى غير قليل من الارتباك :

ــ يا ست ام حميدة . الا ترين ان الهموم قد اشعلت الشيب فى سوالفى ! ! .

فقالت ام حميدة التى كانت تعلم ان الهموم بريئة مما ترميها به :

ــ نداوى الهموم بالصبغة ؛ وهل توجد ثمة امراة لا تصبغ شعرها فى زماننا هذا ؟

فضحكت المراة بسرور وقالت :

ــ بورك فيك يا ست النساء كلهن . ترى ماذا كنت افعل بحياتى لولاك أنت ؟

وتريثت قليلا . ثم مسحت على صدرها وقالت :

ــ رباه . هل يرضى هذا الجسد الجاف عروسك الشاب ؟ . . لا اثداء ولا ارداف ولا شىء مما يجذب الرجال !

فقالت ام حميدة :

ــ لا تستقلى نفسك ؛ الم تعلمى بان النحافة موضة واية موضة ! ومع ذلك فان شئت صنعت لك اقراصا عجيبة تسمنك فى وقت قصير .

وهزت أم حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت قائلة :

ــ لا تخافى شيئا ما دامت أم حميدة معك . ام حميدة مفتاح سحرى تفتح له جميع الأبواب المغلقة ، وغدا تلمسين قدرى فى الحمام اذا حوانا معا !

وهكذا كرت ايام الاستعداد فى نشاط وتعب وسرور وأمل ، وصبغ شعر وتحضير عقاقير ، وخلع أسنان مترمة وتركيب أسنان ذهبية ، وبين يدى ذلك كله نقود تنفق . تغلبت على عادة الحرص ، وطرحت معبودها الأصفر عند قدمى الغد المرموق ، وفى سبيل هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسر من مال وثريد للفقراء الذين يحدقون بمسجده ، كما نذرت للشعرانى أربعين شمعة .

وقد نال العجب من ام حميدة كل منال وهى تلحظ هذا التغير الكبير الذى قلب الست سنية رأسا على عقب ، فجعلت تضرب كفا بكف وتقول لنفسها :

— هل يستأهل الرجال كل هذا العناء ؟ ! . جلت حكمتك يا رب فانت الذى قضيت على النساء بأن يعبدن الرجال .. !

— ٢٢ —

استيقظ عم كامل من اغفاءته المزمنة على رنين جرس ، ففتح عينيه ، وانصت قليلا ، ثم اشراب بعنقه حتى برز راسه من الدكان ، فراى حنطورا معروفا يقف امام الزقاق فنهض فى عناء وهو يقول بسرور ودهشة : « رباه ، هل عاد السيد سليم علوان حقا ؟ » . وكان الحوذى قد زايل مقعده وهرع الى باب العربة ليعين سيده على النزول ، واعتمد السيد على ذراعه ، وغادر مجلسه فى تؤدة ، فلاح طربوشه أولا مندلق الزر ، ثم ظهر جسمه مقوسا ، ووقف اخيرا على الأرض يصلح هندامه . حجبه المرض فى اواسط الشتاء ، وأعاده الشفاء فى أوائل الربيع ؛ وقد غدرت برودة الشتاء القارص موجة لطيفة من الدفء رقصت لها الدنيا طربا . ولكن اى شفاء هذا ؟! لقد عاد السيد رجلا آخر . اختفى الكرش الذى كان يشق الجبة والقفطان ، وتقعر الوجه الممتلىء الدموى ، فبرزت وجنتاه وغار خداه ولوح الشحوب بشرته ، وخبا نور العينين فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابلة تحت جبين عابس ، ولم يتبين عم كامل بادىء الأمر ما طرأ على السيد من تغير لضعف بصره حتى اذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولاه

الانزعاج ، وانحنى على يده كأنما ليخفى انزعاجه ، وصاح بصوته الرفيع :

— حمداً لله على السلامة يا سى السيد ذا يوم أبيض ، والله والحسين ما يساوى الزقاق من غيرك قشرة بصلة ..

فقال له السيد سليم وهو يسترد يده :

— بورك فيك يا عم كامل ...

وسار متمهلا متوكئا على عصاه ، يتأثر الجوذى عن كثب ، ويتبعه عم كامل مترنحا كالفيل . والظاهر أن رنين الجرس قد أعلن حضوره ، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالعمال . وأقبل من القهوة المعلم كرشة والدكتور بوشى ، وأحاط به الجميع مهللين داعين ، ، ولكن الجوذى علا صوته وهو يقول :

— افسحوا للسيد من فضلكم ، دعوه يجلس أولا ثم سلموا . .

وافسحت له اللمة ، فواصل مسيره عابسا ، وفؤاده يغلى حنقا وغيظا ، وقد ود لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه . وما كاد يطمئن به مجلسه وراء المكتب حتى أقبل عمال الوكالة يستبقون ، فلم يجد بدا من أن يسلمهم يده يقبلونها واحد بعد آخر ، متأذيا من لمس شفاههم ، مخاطبا نفسه : « يا لكم من كذابين مرائين ! .. انتم والله أصل هذا البلاء ! » . وتفرق العمال فجاء المعلم كرشة وشد على يده وهو يقول :

— مرحبا بسيد الحى جميعا .. ألف حمدا لله على السلامة . .

فشكره السيد . أما الدكتور بوشى فقد قبل يده وقال له بلهجة خطابية :

— اليوم يحق لنا الفرح ، واليوم تطمئن جنوبنا ، واليوم يتحقق لنا الدعاء ..

فشكره أيضا مداريا تأففه ، لأنه كان يستكره وجهه الصغير المستدير ، ولما أن خلا المكان تنهد من صدر ضعيف وقال بصوت

لا يكاد يسمع : « كلاب .. كلهم كلاب .. عضونى بعيونهم الحاسدة ! » وراح يطارد أشباحهم فى مخيلته لينقى صدره مما استثاره من حنق وغيظ وتأثر ، ولم يترك لخلوته طويلا ، فجاءه كامل افندى ابراهيم وكيله ومثل بين يديه ، وسرعان ما نسى بمجيئه كل شىء الا الحساب والمراجعة ، وقال له باقتضاب :

— الدفاتر ..

وهم الرجل بالتحرك ولكنه استوقفه فجأة كأنما تذكر أمرا هاما ، وقال له بلهجة آمرة :

— نبه الجميع الى أنى من الآن فصاعدا ، لا احب أن اشم رائحة تدخين (كان التدخين قد حرم عليه بأمر الطبيب) ، وخبر اسماعيل بأننى اذا طلبت اليه ماء أن يهيىء لى قدحا نصفه ماء عادى والنصف الآخر ماء دافىء . التدخين فى الوكالة ممنوع منعا باتا ، والدفاتر بسرعة ..

وذهب الوكيل لابلاغ الأوامر الجديدة ، متذمرا فى باطنه لأنه كان من مدمنى التدخين ، ثم عاد بعد قليل حاملا الدفاتر ، ولم يغب عنه ما ترك المرض فى طبع السيد من تغير وتبدل . فركبه الهم ، وأيقن انه مقبل على حساب عسير . وجلس كامل افندى قبالة السيد ، وفتح الدفتر الأول ، وبسطه بين يديه ، فبدأت المراجعة . كان السيد فى عمله محيطا ماهرا لا تفوته فائتة وأن دقت ، فأكب على مراجعة الدفاتر دفترا دفترا بهمة لا تكل ولا تمل ؛ غير راحم نفسه المتهالكة ، وقد اتصل فى أثناء ذلك ببعض عملائه متحققا من مواعيد حضورهم ، مطابقا بين أقوالهم وبين المدون فى الدفاتر ، وكامل افندى صابر متجهم لا يخطر له الاحتجاج على بال . ولم تكن المراجعة بالشىء الوحيد الذى يتابعه بأفكاره ، فكان ينوء صامتا بأمر تحريم التدخين الذى استصبح به على غرة ، وهو أمر لم يحرم عليه التدخين فى الوكالة فحسب ،

ولكنه اضاع عليه فى الوقت نفسه ما كان يتفضل السيد بتقديمه له من سجائر كوتاريلى الفاخرة ، وقد رمق الرجل المكب على الدفاتر بنظرات غريبة . وقال لنفسه متكدرا ساخطا : « رباه . لشد ما تغير الرجل . هذا شخص غريب لا نعرفه ! » وعجب لشاربه الذى احتفظ رغم هذا التغير بضخامته وفخامته فى وجه طمست سماته ومعالمه ، وعفى عليها المرض الخطير ، فكانه نخلة سامقة فى صحراء جرداء .. واخرجه الحنق والاستياء عن طوره فقال مخاطبا نفسه : « من يدرى ؟ . لعله يستاهل ما نزل به ، ان الله لا يظلم أحدا » . وانتهى السيد من المراجعة فى زهاء ثلاث ساعات ، فرد الدفاتر الى الوكيل ، وهو يحدجه بنظرة غريبة ، نظرة مراجع لم يعثر على ما يريبه ، ومع ذلك لا تخلو نفسه من الريب . وجعل يخاطب نفسه قائلا : « ساعاود المراجعة مرة اخرى ، لا بل مرات حتى اكشف عما تبطن هذه الدفاتر . كلهم كلاب .. بيد انهم اخذوا عن الكلاب نجاستها . وزهدوا فى امانتها ! » ثم خاطب الوكيل قائلا :

— لا تنس ما نبهتك اليه يا كامل افندى : رائحة التدخين والماء الدافىء .

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الخواجات فهناوه بالسلامة ، ثم خاضوا فيما لديهم من الاعمال ؛ وقد اراد بعضهم ان يؤجل عمله تخفيفا عنه ، ولكنه قل لهم باستياء :

— لو كنت عاجزا عن العمل ما جئت الوكالة ..

وما كاد يخلو الى نفسه حتى استبدت به افكاره الناقمة الموتورة ؛ فراح يصب غضبه — كديدنه فى هذه الايام الأخيرة — على الناس أجمعين . ولطالما قال عنهم : انهم حسدوه ، وانهم نفسوا عليه الصحة والوكالة والحنطور وصينية الفريك ، فلعنهم

من اعماق الفؤاد . وكثيرا ما كان يردد هـذه الظنون فى اثناء مرضه ، ولم تنج زوجـه نفسها من شر ظنونه ، فحدجها يوما بنظرة شزراء ، وهى تجلس الى جانب فراشه ، وقال لها بصوت يتهدج ضعفا وسخطا :

ــ وانت يا ست لك نصيبك من هذا ، فطالما دوختنى بقولك ان ايام الصينية انتهت ، وكأنك تنفسين على صحتى ، فالآن كل شىء انتهى فقرى عينا . .

وقد تأثرت المراة بقوله واستعبرت طويلا ، ولكنه لم يرق لها ، ولم يلن من حدته واستدرك يقول مغيظا محنقا :

ــ حسدونى . . حسدونى ، حتى زوجتى وام ابنـائى قد حسدتنى . . !

ولكن اذا كان زمام الحكمة قد افلت من يديه ، فقد كان الموت قبل ذلك تخايل لعينيه غير بعيد . وأن ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة المزلزلة ساعة الأزمة . كان يتهيأ للهجوع حين أحس بنغصة تصدع لها صدره ؛ وشعر بحاجة ماسة الى تنفس عميق . ولكن عجز عن الشهيق والزفير ، وكان كلما عاود المحاولة حزه الألم وقطعه الوجع ، حتى استسلم فى قنوط وعذاب مريرين ، وجاء الطبيب وتجرع العقاقير ، ولكنه لبث أياما يرأوح بين يقظة الحياة وغيبوبة الموت . وكان اذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى ببصر زائغ زوجته وبناته وأبناءه محدقين به ، محمرة اعينهم من البكاء ، وهوى الى تلك الحالة الغريبة التى يفقد الانسان فيها كل ارادة على جسـده وعقله فيلوح له العالم سـحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تبين ولا تكاد تربط بينها رابطة .

وفى اللحظات القليلة التى استرد فيها شيئا من وعيه كان يتساءل فى رجفة باردة : « هل اموت ؟ ! » ايموت وحوله الأهل جميعا ؟ ! . ولكن الانسان لا يفارق الدنيا عادة الا منتزعا من ايدى

احبائه ، فماذا أفاد الأموات تعلق الاحياء بهم ؟ ! ورغب ساعتئذ أن يدعو الله وان يتشهد ، فخانه ضعفه ، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنية ابتل بها ريقه الجاف . ولم ينسه ايمانه — على رسوخه — أهوال تلك الساعة ، فاستسلم جسمه على رغمه ، أما روحه ، فتعلقت بأهداب الحياة فى فزع وجزع ، حتى سحت عيناه دمعا مدرارا ونطقت نظرتهما بالاستصراخ والاستغاثة . ولكن كان فى الأجل بقية ، فجاز طور الخطر ، وبلغ بر النقاهة . ورجع الى أحضان الحياة رويدا رويدا ، ومنى نفسه باسترداد صحته وعافيته وسابق سيرته ، ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتصرت امنيته ، وقضت على أمله ، ولم تبق له من الحياة الا على شىء يسير . اجل . أجل ، نجا من الموت ، ولكنه انقلب شخصا جديدا ذا جسم رقيق وروح مريض . وبكرور الأيام استفحل مرض روحه فصار ضجرا وتمردا وكراهية وعبوسا . وقد عجب لهذه العثرة التى اعترضت سبيل حظه ، وتساءل : بأى ذنب آخذه الله سبحانه ؟ وكان ذا ضمير من هذه الضمائر الراضية التى تقيم الاعذار لأصحابها وتحسن مسالكهم ، وتغضى عن اخطائهم ؛ وكان يحب الحياة حبا جما ، فتمتع بماله ومتع به آله ، والتزم — فيما يظن — حدود الله ، فاطمأن بذلك الى الحياة اطمئنانا عميقا ، حتى أنتبه منه على هذه الهزة العنيفة التى ذهبت بصحته، وأوشكت أن تذهب بعقله . ما ذنبه ؟ . . . لا ذنب له ، ولكنهم الناس غرماؤه ، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبدى ! . وهكذا أمر من نفسه ما كان حلوا ، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم . والحق ان ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شىء يسير بالقياس الى ما فقد من اعصابه .

وقد تساءل وهو جالس الى مكتبه فى الوكالة : احقا لم يبق له من الحياة الا أن يقبع فى هذا المكان ويراجع الدفاتر ؟! وتراءى له

وجه الحياة اشد تجهما من وجهه ، وجمد كالتمثال ، ومضى وقت لا يدريه وهو غارق فى افكاره ، حتى سمع حسا عند مدخل الوكالة ، فالتفت نحوه فرأى أم حميدة مقبلة بوجهها المجدور ، ولاحت فى عينيه نظرة غريبة ، فسلم ، وانصت بربع انتباه الى دعاء المرأة وترحيبها ، وقد شغلته الذكريات القديمة عما عداها .

أليس من العجيب أن ينسى حميدة كأنها شىء لم يكن ؟ ! لقد طافت به ذكراها فى نقهه مرات ، ومرت به دون أن تترك أثرا . لم يأسف عليها بمثل ما طمح اليها ، ثم أنسيها بعد ذلك كأنها شىء لم يكن ، أو كأنها كانت نقطة فى دم الصحة الذى كان يجرى فى عروقه . فلما أن غاب ونضب تطايرت فى الهواء . وغابت عن عينيه النظرة الغريبة التى رسمتها الذكريات ، وعاد بصره الى جموده ؛ فشكر للمرأة حضورها لتهنئته ودعاها للجلوس ، ووجد مضايقة فى حضورها كادت تنقلب كراهية . وتساءل عما دعاها للمجىء حقا ، أهو التهنئة الخالصة لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة ؟! ولكن المرأة لم تكن عند سوء ظنه ؛ لأنها كانت آيست منه منذ أمد بعيد . ومع ذلك قال لها وكأنه يعتذر :

ــ أردنا .. وأراد الله ...

فادركت المرأة مقصده وقالت بعجلة :

ــ لا عليك من هذا يا سى السيد . وما نسأل الله الا الصحة والعافية .

وسلمت المرأة مرة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالا واشد انقباضا .. وقد حدث عند ذاك أن انزلق شوال حناء من بين يدى عامل ، فاشتد به الغضب ، وانتهره بقسوة صائحا :

ــ ستغلق عما قريب الوكالة أبوابها ، فابحثوا عن مرتزق جديد ... !

ولبث برهة ينتفض من شدة الغضب والتأثر ، وكان هذا

الغضب ذكره بما اقترحه عليه ابناؤه أخيرا من تصفية اعماله والخلود للراحة ، فتضاعف غضبه وهياجه ، وجعل يقول لنفسه انها ليست راحته التى يبتغون ولكنه المال . الم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقا وهو فى عنفوان قوته ؟ !.. فالمال طلبتهم ، لا صحته ولا راحته ، ونسى فى غضبه انه — هو نفسه — كبر عليه أن تنحصر آماله فى العمل فى الوكالة ، والا يجد من لذة الحياة الا ارهاق النفس فى جمع مال لا يستطيع أن يتمتع به ، ولكنه العناد الذى أولع به اخيرا ، وسوء ظنه بالناس جميعا الذى لم ينج أولاده انفسهم وزوجه من بعض آثاره ... وقبل أن يفيق من حمى الغضب والهياج سمع صوتا جهيرا يقول فى عمق وحنان معا :

— حمدا لله على السلامة ... السلام عليكم يا أخى ..

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيد رضوان الحسينى مقبلا ، بجسمه الطويل العريض ، ووجهه المشرق المتألق . فانبسطت اساريره لأول مرة وهم بالوقوف ، ولكن السيد بادره بوضع راحته على منكبه وهو يقول :

— حلفتك بالحسين الا ما جلست ..

وتصافحا بحرارة . وكان السيد رضوان قد زار قصر الرجل مرات فى أثناء مرضه ، ولما لم يمكنه مقابلته بعث اله بتحياته ودعواته . وجلس السيد على مقعد قريب وراحا يتحدثان فى رقة ومودة . قال السيد سليم علوان بتأثر شديد :

— نجوت بأعجوبة ..

فقال السيد رضوان بصوت عميق هادىء :

— الحمد لله رب العالمين ، نجوت بأعجوبة ، وتعيش بأعجوبة ، كلنا — لو تعلم — نعيش بأعجوبة . ان استمرار حياة المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الالهية ، فعمر أى انسان فان سلسلة من المعجزات الالهية ، وما بالك باعمار

الناس جميعا ، وحيوانات الكائنات جميعا ! ! . فلنشكر الله بكرة واصيلا ، آناء الليل واطراف النهار ، وما اتفه شكرنا حيال هذه النعم الربانية .

واصغى اليه فى جمود ، ثم تمتم قائلا بضجر :

ـ المرض شر قبيح .

فابتسم السيد رضوان وقال :

ـ ربما كان كذلك فى ذاته ، ولكنه من ناحية أخرى امتحان الهى ، وهو من هذه الناحية خير .

ولم يرتح الرجل لهذه الفلسفة ، وحنق بغتة على قائلها ، فضاع الأثر الطيب الذى احدثه مجيئه ، ولكنه لم يستسلم لانفعاله على غير عادته أخيرا وقال بلغة وشت بتذمره :

ـ ماذا فعلت حتى ينزل بى هذا العقاب ؟ ... الا ترى انى فقدت صحتى الى الأبد ..

فعبث السيد بلحيته الجميلة ، وقال بشىء من المعاتبة :

ـ اين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة ؟ . حقا انك رجل طيب ، بار ، كريم ، قوام على الفرائض ، ولكن الله امتحن عبده أيوب وهو نبى ، فلا تأس ولا تحزن ، وابشر بالايمان خيرا ..

ولكن الرجل زاد انفعاله ، وقال بحدة :

ـ ارأيت الى المعلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال ؟

ـ انك بمرضك خير منه بصحته وعافيته ...

وغلبه الغضب فرمق محدثه بنظرة ملتهبة وقال :

ـ انك تحدث فى سكينة وطمأنينة ، وتعظ فى ورع وتقوى ، ولكنك لم تذق بعض ما ذقت ، ولم تخسر شيئا مما خسرت .

وتطامن رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه ، ثم رفع رأسه وعلى شفتيه ابتسامته الحلوة ، وحدجه بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين ، وسرعان ما استكان غضبه وفترانفعاله ، وكأنه يذكر

لاول مرة ، انه يخاطب اكبر مصاب من عباد الله . وطرفت عيناه ، وتورد وجهه الشاحب قليلا ، ثم قال بصوت ضعيف :

ـ اعذرني يا اخي ، اني تعب مرهق ..

فقال السيد ولم تغادر الابتسامة شفتيه :

ـ لا عليك من هذا ، قواك الله وسلمك . اذكر الله كثيرا فبذكر الله تطمئن القلوب ، ولا تدع الأسى يغلب عليك ايمانك أبدا ، فالسعادة الحقة ترتد عنا على قدر ما نرتد عن ايماننا .

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحنق :

ـ حسدوني ، نفسوا على المال والجاه ، حسدوني يا سيد رضوان !

ـ الحسد شر من المرض . وانه لمن المخزن حقا ، ان الذين ينفسون على اخوانهم حظهم من المتاع الفاني كثيرون . لا تأس ، ولا تحزن ، وسلم الى الله ربك الرحيم الغفور ..

وتحادثا طويلا ، ثم ودعه السيد رضوان وانصرف ، ولبث الرجل هنيهة كالهادىء ، ثم اخذ يعود رويدا الى عبوسه وتجهمه ، ونبا به القعود طويلا ، فنهض قائما ، ومشى متمهلا الى باب الوكالة ، ووقف عند مدخلها شابكا يديه وراء ظهره . كانت الشمس تعلو كبد السماء ، والجو دافئا مشرقا . وقد بدا الزقاق كالقفر في تلك الساعة من الظهيرة ؛ اللهم الا الشيخ درويش الذى جلس أمام القهوة يتشمس . فلبث السيد مليا ، ثم تلفت ـ بحكم عادة قديمة ـ نحو النافذة ، فوجدها مفتوحة خالية ، وكأنه ضاق بموقفه فرجع الى مجلسه عابسا ...

٢٣

« .. لن اعود الى القهوة . حتى لا اثير الشبهات .. » ، هذا ما قاله لها عند افتراقهما . وقد ذكرته حميدة فى صباح اليوم التالى لمقابلة الدراسة ، ذكرته بخيال حى يقظ سعيد ، وتساءلت: اتذهب للقائه اليوم ؟ فأجاب قلبها : « نعم » دون خفاء . ولكنها قالت بعناد : « كلا .. يجب أن يعود الى القهوة أولا » ، وامتنعت عن الخروج فى موعدها المألوف ، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون ، وانصرمت ساعة المغيب ، واطبق الليل ناشرا جناحيه ، وعند ذلك اقبل الرجل من اسفل الزقاق مصوبا عينيه نحو الزيق الذى انفرج عنه خصاص النافذة تلوح فى وجهه ابتسامة تنم عن التسليم ، وجلس على كرسيه المختار . وشعرت وهى تراقبه ببهجة الانتصار ، ولذة الانتقام لعذابها يوم اعياها العثور عليه فى الموسكى . والتقت عيناهما طويلا — دون أن تغضى أو ترتد عن موقفها — فازداد ظل ابتسامته امتدادا ، ووشى وجهها بابتسامة وهى لا تدرى . ماذا يبغى يا ترى ؟ وبدا لها هذا السؤال غريبا ، اذ انها لا تدرى لمثل الحاحه فى طلبها الا معنى واحدا ، سعى اليه من قبل عباس الحلو ، وطمح اليه السيد سليم علوان قبل أن يحطمه الدهر ، فلماذا لا يكون غاية هذا الأفندى الوجيه ؟! أو لم يقل لها : « الست فى الدنيا لتؤخذى ؟ .. وانى لآخذك .. » ؟ ! فما عسى أن يعنى هذا ان لم يعن الزواج ؟ ! ولم يعق احلامها عائق ، لشدة شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل لغرورها الجامح . وجعلت تنظر اليه من وراء خصاصها المنفرج . وتتلقى نظراته المسترقة باطمئنان وثبات وبلا تردد. وحادثتها عيناه حديثا عميقا

يعيى اللسان والحواس جميعا . فتردد صداه فى أعماق نفسها محركا غرائزها . ولعلها وجدت هذا الشعور العميق الصادق — وهى لا تدرى — يوم التقت عيناهما اول مرة ، يوم حدجها بنظرته العارمة المتحدية ، وابتسم اليها تلك الابتسامة الظافرة ، فانجذبت اليها كما تنجذب الى المعترك المستمر . والحق انها عرفت قدرا من نفسها على ضوء عينيه ، فلم تعد الضالة فى متاهة الحياة ، ولم تعد الحائرة الى نظرة عباس الحلو الوديعة ، وثروة السيد علوان الطائلة ، ولكنها شعرت بان هذا الرجل طلبتها ، وان ما يستثيره فى صدرها من الانفعال والاعجاب والاستفزاز هو لذتها التى تجذب اليها بفطرتها ، كما تجذب ابرة البوصلة الى القطب ، وانه رجل من غير الحثالة التى يستعبدها الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره واوراقه المالية . وراحت ترنو اليه بعينين متالقتين تذكيان ضـياء من وجد وتوثب ، ولم تبرح مكانها حتى غادر القهوة وهو يودعها بابتسامة خفيفة . فأتبعته ناظريها وهى تقول وكأنها تتوعده : « غدا » .

وفى عصر الغد غادرت البيت بقلب ماؤه الشوق والتحدى والهيام بالحياة . وما كادت تخرج من الصنادقية حتى راته عن بعد واقفا عند ملتقى الغورية بالسكة الجديدة ، فلاحت فى عينيها لمعة خاطفة ، وانبعث فى صدرها شعور غامض غريب ، وهو مزيج من السرور والرغبة الوحشية فى القتال ! . وقدرت انه سيتبعها فى الذهاب والاياب حتى يخلو لهما الجو فى الدراسة ، فسارت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب او الحياء ، واقتربت منه كأنها لا تراه ، ولكن حـدث — وهى تمر به — ما لم يقع لها فى حسبان ، فقد سار معها ومد يده بجراة لا توصف فقبض على راحتها ، وقال لها بهدوء متجاهلا المارة والواقفين :

— مساء الخير يا عزيزتى ..

اخذت على غرة ، فحاولت أن تسترد يدها ولكنها لم تفلح ، وخافت أن أعادت الكرة أن تستلفت الأنظار ، فاستولى عليها الارتباك والغيظ ، ووجدت نفسها بين اثنين فاما غضب وفضيحة وجرسة ثم قطيعة ، واما استسلام تستكرهه لأنه فرض عليها فرضا وقهرا ، فامتلأت حنقا ، وهمست بصوت منخفض متهدج من الغضب :

ــ كيف تجرؤ على هذا ؟ .. دع يدى بسرعة ..

فأجابها بهدوء وهو يمشي الى جانبها كأنهما صديقان ينطلقان معا :

ــ حلمك .. حلمك ، لا كلفة بين الأصدقاء ..

فقالت وهى تتميز غيظا :

ــ الناس .. الطريق ..

فاستعطفها بابتسامة قائلا :

ــ لا تبالى أناس هذا الطريق ، فهم مجانين المال ، ولا يرون الا ما فى رءوسهم من حسابات ، هلا ملت الى دكان صائغ فأنتق لك منه حلية تليق بحسنك .. ؟

فاشتد غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد :

ــ اتتظاهر بانك لا تعبأ شيئا ؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تفارق شفتيه :

ــ لست أقصد اثارتك ، ولكنى انتظرتك لنمشى معا ، ففيم غضبك ؟

فقالت بحدة :

ــ انى امقت هذا التهجم فاحذر أن تخرجني عن وعيى ..

وطالع نذر الشر فى وجهها فسألها فى رجاء :

ــ أتعدينني بأن نسير معا ؟

فهتفت به :

ـــ لا أعد شيئا .. دع يدى ..

فاطلق يدها دون أن يبتعد عنها ، وقال لها متملقا :

ـــ يا لك من جبارة عنيدة ، هاك يدك ، ولكننا لن نفترق ، أليس كذلك ؟

وتنهدت فى غيظ ، ونظرت اليه شزرا وهى تقول :

ـــ يالك من سمج مغرور !

فتقبل الشتيمة بابتسام وصمت ، وسارا جنبا لجنب دون ان تبتعد عنه ، وذكرت كيف تربصت له بالأمس القريب لتمثل به فى هذا الطريق ، ولكنها الآن لا تفكر فى هذا وحسبها انها أجبرته على اطلاق يدها ، بل لعله لو حاول استردادها مرة أخرى لما مانعت ، وهل كانت غادرت بيتها وفى عقلها شىء غير لقائه ؟ ! . وفضلا عن هذا كله فقد ساءها ان يبدو أشد طمانينة وجساره منها ، فسارت الى جانبه غير عابئة بالسابلة ، متخيلة ما سيحدثه منظره فى نفوس فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالحسد . وسرعان ما عاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة الجامحة فى الحياة والمغامرة .. وراح الرجل يقول :

ـــ انى اعتذر عما بدر منى من خشونة ، ولكن ما حيلتى فى عنادك ؟ ! تعمدت تعذيبى ، وما استحق الا عطفك جزاء ما اكن لك من عاطفة صادقة ، وما ابذل فى سبيلك من عناء متصل .

ما عسى ان تقول له ؟ انها ترغب أن تخاطبه ، وان تبادله الحديث ، ولكنها لا تدرى كيف ، خصوصا وأن آخر ما نطقت به كان نهرا وشتيمة ، وقطع عليها تفكيرها أن رات صويحباتها مقبلات غير بعيدات ، فقالت بارتياع كاذب :

ـــ صاحباتى ... !

ونظر الرجل فيما أمامه فراى الفتيات وقد ركزن عليه نظرات متفحصة ، عادت تقول بلهجة تنم عن التانيب ، وهى تدارى سرورها :

ـ فضحتنى .. !

فقال بازدراء ، وان سره أن تلازم جانبه ، وأن تخاطبه خطاب الرفيق للرفيق ...

ـ لا عليك منهن .. فلا تباليهن ..

واقترب الفتيات ، فبادلتهن نظرات ذات معان ، وهى تذكر بعض ما قصصن عليها من مغامرات ، ثم مررن بهما متضاحكات متهامسات . وعاد الرجل يقول فى خبث ودهاء :

ـ اهؤلاء صاحباتك ؟ ... كلا ، لا أنت منهن ولا هن منك . ولكنى أعجب كيف يتمتعن بحريتهن بينما تقبعين انت فى البيت . وكيف يرفلن فى الثياب الزاهية بينا تلتحفين انت فى هذه الملاءة السوداء ! وكيف حدث هذا يا مليحة ؟ .. أهو الحظ ؟ ولكن يا لك من صابرة متجلدة ؟ !

وتورد وجهها ، وخيل اليها انها تصغى الى قلبها يتحدث . وقبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماسا وعاطفة ، واستدرك هو بثقة ويقين :

ـ هذا حسن خليق بالنجوم ...

واهتبلت هذه الفرصة لتبادله الحديث ، فعطفت نحوه راسها مبتسمة بجرأتها الفطرية . وتساءلت وهى لا تدرى ما يعنيه :

ـ النجوم ؟ !

فابتسم اليها ابتسامة حلوة وقال :

ـ نعم . الا تذهبين الى السينما ؟ .. يدعون الحسناوات من الممثلات بالنجوم .

وكانت تذهب الى سينما أوليمبيا مع أمها فى فترات متباعدة لمشاهدة بعض الأفلام المصرية ، فأدركت ما يعنيه ، وغمر شعورها سرور راقص لاحت آثاره الوردية فى خديها ، وساد الصمت خطوات ثم سالها برقة :

ـ ترى ما اسمك ؟
فقالت بلا تردد :
ـ حميدة . .
فقال مبتسما :
ـ أما الذى سحرت لبه ففرج ابراهيم . فى مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف ، وهو يعرف عادة بعد ان يكون الشخصان قد ايقنا انهما واحدا ، اليس كذلك يا ست الملاح ؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السب والعراك مثلا ! انه يحسن الحديث ولكنها عاجزة عن مجاراته . وقد ضايقها ذلك ، ولم تقنع بالدور السلبى الذى يلذ بنات جنسها ، وتشوقت بفطرتها الى شىء آخر ، غير الانتظار والسكوت والحياء . ولما كان الافصاح عن هذا الشعور غير ميسور ، فقد ساورها قلق وانفعال ، وحدجته بنظرة ثاقبة ، وزاد من اسباب انفعالها أن انتهى الطريق ، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت ، ولم تر بدا من أن تقول وهى تدفن حسرتها فى اعماقها :
ـ الآن نعود .
فقال بانكار :
ـ نعود !
ـ هذه نهاية الطريق .
فقال محتجا :
ـ ولكن الدنيا لا تنتهى بانتهاء الموسكى ، لماذا لا نجول فى الميدان ؟
فقالت على رغمها :
ـ لا اريد ان اتأخر عن موعد عودتى أن تقلق امى . .
فقال باغراء :
ـ اذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة فى دقائق معدودات .

تاكس ! لقد رنت الكلمة فى أذنيها رنينا عجيبا . ولم تكن ركبته فى حياتها الا العربة الكارو ، ومضت ثوان قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة ، بيد أن الأمر لا يخلو من اعتبار آخر هو ركوب التاكس مع رجل غريب ، الا انها وجدت فى هذا الاعتبار داعيا للهجوم لا للنكوص ، وتولاها نزوع طاغ الى المغامرة ، كأنما لقيت فيه ترويحا عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذى اعياها الافصاح عنه قبل ذاك بقليل ، ولم تكن تدرى ان بها مثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة حتى ليتعذر القول ايهما كان اشد استحواذا على مشاعرها فى تلك اللحظة : الرجل الذى حرك اعماقها أم المغامرة ذاتها ، ولعلهما كانا الاثنين معا . ولاحت منها نظرة اليه فراته ينظر اليها باغراء وعلى شفتيه ظل من الابتسامة التى طالما اهاجتها ، فتغير شعورها وقالت :

— لا اريد أن أتأخر . . .

فشعر بخيبة وقال متاسفا :

— اتخافين ؟ . . .

فازداد شعورها حدة وقالت بتحد :

— لست اخاف شيئا .

فأضاء وجهه ، وكأنه عرف أشياء وأشياء ، وقال بسرور :

— سأدعو تاكس .

وكفت عن المعارضة ، وثبتت عيناها على التاكس وهو يقترب من موقفهما حتى وقف قبالتهما ، وفتح الباب لها ، فانحنت قليلا خافقة الفؤاد وهى تقبض على مساك ملاءتها ، وصعدت اليه ، وتبعها الرجل وهو يقول لنفسه بارتياح : « وفرنا تعب يومين أو ثلاثة أيام » . ثم سمعته يقول للسائق : « شارع شريف باشا . . » . شريف باشا ، لا المدق ولا الصنادقية ولا الغورية ولا حتى الموسكى ، شريف باشا !. . ولكن لماذا عين هذا الشارع بالذات ؟! . وسألته :

ـ أين تقصد ؟

فقال ، وكأن كتفه يمس كتفها :

ـ نجول قليلا ثم نعود ...

وتحرك التاكسي فتناست كل شيء الى حين ، حتى ذلك الرجل الذى يكاد يلتصق بها ، وقلقت عيناها بين الأنوار التى تتخطفهما ، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة ، وانتقلت حركة التاكسى الى جسمها وروحها ، فانبعثت فى نفسها نشوة مطربة ، وتهيأ لها انها تطير طيرانا ، وتحلق فى سماء الدنيا ، وكأن وجدانها من البهجة يسجع شاديا متجاوبا مع انسياب الحركة وتجدد المناظر والانوار ، حتى تألقت عيناها بوميض مشرق ، وافتر ثغرها عن اشراق وذهول . وجرى التاكسى فى خفة ، يخوض خضما من العربات والسيارات والترام والناس ، وجرى معه خيالها . فاستعر حماسها ، وسكرت مشاعرها ، ورقص قلبها ودمها وخواطرها . ثم افاقت افاقة مباغتة على صوته يهمس فى اذنها قائلا : « انظرى الى الحسان كيف يرفلن فى ثيابهن النورانية ! » أجل .. انهن يتمايلن مبعثرات كالكواكب المنـــيرة .. ما أجملهن ، ما أبدعهن ! . وذكرت عنـــد ذلك فحسب ملاءتها وشبشبها فانقبض قلبها واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لدغة عقرب . وعضت على شفتيها فى امتعاض ، ثم تملكتها مرة اخرى روح التمرد والثورة والعراك !. وتنبهت الى أنه التصق بها وهى لا تدرى ، فأخذت تستشعر مسه الذى انتشر فى حواسها ، وحمى به قلبها ، فهفت اليه بقوة فوق ارادتها . ورنا اليها بلحظ كأنما يستطلع ميولها ، ثم تناول راحتها بلطف وجعلها بين راحتيه ، وتشجع باستسلامها فهوى بفمه اليها ، وكأنها أرادت ان تتقيه فألقت برأسها الى الوراء قليلا . ولكنه لم يجد فى ذلك رادعا

كافيا فطبع شفتيه على شفتيها وسرت فى أعماقها رعدة ، وشعرت برغبة جنونية تدعوها الى أن تعض شفتيه حتى تدميهما ؟. رغبة جنونية حقا ، ركبتها كما يركبها عفريت العراك ، ولكنه إرتد عنها قبل ان تنفذها ! ولبثت شعلة الجنون متأججة فى صدرها تهيب بها أن ترتمى على صدره وتنشب اظافرها فى رقبته ، حتى انقذه منها صوته وهو يقول برقة :

— هذا شارع شريف باشا ... وهذا بيتى على بعد خطوات الا تحبين أن تريه ؟.

والتفتت متوترة الأعصاب الى حيث تومىء سبابته فرات عمارات تناطح السحاب لم تدر أيتها يعنى . وامر الرجل السائق بالوقوف امام واحدة منها ، وقال لها :

— فى هذه العمارة .

ورات عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدق ، ثم ارتد عنها طرفها فى حيرة ، ثم سألت بصوت منخفض :

— فى اى طابق ؟.

فقال مبتسما :

— الأول .. لن تتجشمى مشقة اذا تفضلت بزيارتها .

فرمقته بنظرة حادة منتقدة فاستدرك قائلا :

— ما أسرع غضبك !.. ومع ذلك دعينى أسالك ما وجه العيب فى ذلك ؟ الم ازرك دواما منذ وقعت عليك عيناى . فلماذا لا تردين الزيارة ولو مرة واحدة ؟.

ماذا يريد الرجل ؟. أتحدثه نفسه بأنه وقع على صيد سهل؟. اأطمعته القبلة التى استسلمت لها فيما هو أجل وأخطر ؟.. هل أعماه غروره وشعوره بالظفر ؟!.. وهل هذا مآل الحب الذى افقدها وعيها ؟!. واشتعل الغضب بقلبها ، وتوثبت جميع قواها للنضال والتحدى ، وتمنت لو تطاوعها نفسها على السير معه الى

حيث يريد ، لنريه من نفسها ما يجهل ، ولترد اليه صوابه ، أجل ، دعاها شعورها المتمرد الجامح الى خوض غمار هذه المعركة. وهل كان فى وسعها ان تدعى الى النزال ثم تعرض عن الداعى ؟! لم يكن الذى يستفزها غضب للفضيلة او الخلق أو الحياء ، فهذه جميعها اعتبارات لم تالف الغضب لها أو الغيرة عليها ، ولكنه غضب لكبريائها وشعورها الطاغى بقوتها ورغبتها الجنونية فى الملاحاة والعراك ، ولم تخل أيضا من جنون المغامرة الذى قذف بها الى التاكسى ! وجعل الرجل ينعم اليها النظر وهو يقول لنفسه فى تفكير وسخرية معا : « محبوبتى من النوع الخطر الذى يفرقع باللمس فيستوجب العناء الشديد والترويض الماهر » . ثم قال لها برجاء ورقة :

— ارجو ان اقدم لك قدحا من الليمون .

ورمقته بنظرة قاسية متحدية ، ثم غمغمت :

— لك ما تشاء . . .

وفتح الباب مسرورا ، وانزلق الى الطريق ؛ وتبعته على الأثر فى استهانة وجرأة ، ووقفت تتفحص المكان والرجل يدفع الأجرة للسائق . وجرت خواطرها الى الزقاق الذى خرجت منه اليوم : وعجبت للمغامرات التى اقتحمتها غير هيابة حتى انتهت الى هذه العمارة الهائلة ! من يصدق هذا ؟!. وما عسى أن يقول السيد رضوان الحسينى مثلا لو رآها تمرق الى هذه العمارة ؟. وارتسمت ابتسامة على شفتيها ، وداخلها شعور غريب بأن هذا اليوم هو اسعد ايام حياتها على الاطلاق .

وهرع الرجل اليها ، واخذ يدها ، فدخلا الى العمارة معا ، وارتقيا سلما عريضا الى أول طابق ، ثم سارا فى ردهة طويلة الى باب شقة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحا عالج به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح : « اكتسبت يوما او يومين

آخرين ! » ثم دفع الباب واوسع لها ، فدخلت ودخل وراءها ، ثم اغلقه . وجدت نفسها فى دهليز طويل يعترض الداخل تحدق به الحجرات من الجانبين ، ويضيئه مصباح كهربائى قوى الاشعاع. ولم تكن الشقة خالية ، ففضلا عن المصباح الذى كان مضاء قبل مجيئهما ترامت الى اذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة ، كلام وزعق وغناء !. واتجه فرج ابراهيم الى الباب قبالة المدخل ودفعه ، ودعاها للدخول ، فانتقلت الى حجرة متوسطة ، مؤثثة بمقاعد جلدية ما بين كراسى وكنبات ، تتوسطها سجادة مزركشة ، وفى الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف ، وتنهض على منضدة مستطيلة مذهبة الأرجل ، وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة فى عينيها بسرور وقال لها بلطف :

— اخلعى ملاءتك وتفضلى بالجلوس .

فاقتعدت كرسيا دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها الى مسنده ومقعده الطريين ، وتمتمت بلهجة تنم عن التحذير :

— ينبغى الا اتأخر .

فمضى الى مائدة انيقة وسط الحجرة قام عليها « ترموث » وفض سدادته وأفرغ منه فى قدحين « شراب الليمون المثلوج » وقدم لها قدحا وهو يقول :

— سيعود لك التاكس فى دقائق .

وشربا معا حتى رويا ، ثم أعادا القدحين الى المائدة ، وفى أثناء ذلك استرقت اليه نظرات فاحصة ، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق ، وثبتت عيناها غير قليل على يده فراعها جمالها وجاذبيتها ؛ كانت جميلة التكوين ، رشيقته ، سبطة الأنامل ، توحى بالقوة والجمال معا ، فنالها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرته من قبل ، وجعل يطيل النظر اليها مبتسما ابتسامة رقيقة كأنما يطمئنها ويشجعها ، ولكنها لم يداخلها ظل من الخوف وأن

توترت اعصابها قليلا من الحذر والتوجس والتوثب ، وذكرت الأصــوات التى سمعتها حال دخولها الشقة ، فعجبت كيف انسيتها ، وسألته :

ــ ما هذه الضوضاء فى الشقة ؟

فأجابها قائلا وكان لا يزال واقفا قبالتها :

ــ بعض الأهل وسوف تعرفينهم فى الوقت المناسب .. لماذا لم تخلعى ملاءتك ؟.

وكانت ظنته يقيم بمفرده حين دعاها الى بيته ، فعجبته كيف يقودها الى بيت مأهول ، وتجاهلت سؤاله الاخير . ولبثت ترنو اليه بسكينة وتحد . ولم يعاود سؤاله ، ولكنه اقترب منها حتى مس حذاؤه شبشبها ، ومال نحوها قليلا ثم مد يده الى يدها فشد عليها ، وجذبها برقة وهو يقول :

ــ هلمى نجلس على الكنبة .

ولم تمانع فنهضت قائمة الى حيث جلسا جنبا لجنب على كنبة كبيرة . وكانت تتقاسمها فى تلك اللحظة مشاعر الميل الى الرجل الذى تحبه واحاسيس التحدى للرجل الذى قد تمنيه نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقنها . واقترب الرجل منها رويدا حتى لاصقها ، ثم احاط خاصرتها بذراعه ، وهى مستسلمة ساكنة لا تدرى متى يحق لها المقاومة ، ومد يسراه الى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهوى بفمه متمهلا كأنه ظمآن يكرع من جدول ، حتى التقت الشفاه ، وطال التقاؤها كأنما اخذتهما سـنة من الغرام . واما هو فكان يستجمع حرارته وقوته فى شفتيه لينفذ بهما الى ما يريد ، أما هى فكانت تسكر وتثمل ، الا أن توثبها افسد عليها رقية السحر التى تحرق شفتيها فظلت متنبهة متربصة ، وأحست يده تسترخى عن خاصرتها ، وترتفع الى منكبها ، ثم تهفو الملاءة عنه ، فخفق فؤادها بعنف ، وتصلب

عنقها مبتعدا عنه ، وأعادت الملاءة بحركة عصبية الى موضعها وهى تقول بجفاء :

ــ كلا ..

ونظر اليها بدهشة فوجـدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالاباء والعناد والتحدى ، فابتسم متبالها وهو يقول لنفسه : « هى كما ظننت متعبة ، بل متعبة جدا » .. ثم خاطبها قائلا بصوت منخفض .

ــ لا تؤاخذينى يا عزيزتى فقد نسيت نفسى ...

وادارت وجهها عنه لتخفى ابتسامة ارتسمت على شفتيها سرورا بالظفر ، ولكن ذلك لم يطل أمده ، فقد وقع بصرها اتفاقا على يدها فادركت لأول وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة ويدها الخشنة ، وتولاها الحياء ثم قالت له باستياء :

ــ لماذا جئت بى الى هنا ؟.. هذا شىء سخيف !

فقال معترضا بحماس :

ــ هذا اجمل شىء فعلته فى حياتى !.. لماذا تستوحشين من بيتى !.. اليس هو بالتالى بيتك ايضا ؟!.

ولاحت منه نظرة الى شعرها وقد انحسرت عنه الملاءة ، فأدنى راسه ولثمه قائلا :

ــ لله ما أجمل شعرك !.. انه أجمل شعر رأيته فى حياتى .

قال ذلك صادقا على رغم رائحة الغاز التى ذابت فى انفه ، فلذها اطراؤه . بيد انها سألته :

ــ الام نبقى هنا ؟

ــ حيث يتم التعارف بيننا ، فلدينا بلا ريب أشياء واشياء ينبغى أن نقولها : اخائفة انت !.. محال .. أراك لا تخافين شيئا ؟

فغلبها السرور حتى اشتهت أن تقبله ، ورنق الصفاء فى صدرها ، وكان يتفرس فى وجهها ، فقال لنفسه : « الآن فهمتك يا ابنة اللبؤة ! » ثم قال لها بصوت تنتفض نبراته حرارة :

ـ لقد اختارك قلبي ، وقلبي لا يكذبني . ومن يجمعهما الحب لا يفرقهما شيء ، فانت لي وانا لك .

وادنى وجهه منها كالمستاذن ، فمالت بعنقها نحوه فالتقيا في قبلة عنيفة ، واستشعر ضغط شفتيها الساحر على شفتيه يكاد يعصرهما ، فهمس في أذنها :

ـ محبوبتي .. محبوبتي .

وزفرت من الأعماق ، ثم اعتدلت في جلستها لتسترد أنفاسها وراح يقول برقة بالغة في صوت كالهمس :

ـ هنا مكانك ، وهذا بيتك ، بل هذا (وأومأ الى صدره) مأواك .. فضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

ـ أراك تذكرني بانه ينبغي أن أعود الآن الى البيت .

وكان في الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل ، فقال بانكار:

ـ اي بيت تعنين .. بيت الزقاق !.. آه ، ليتك تمسكين عن ذكر ذاك الحي جميعا . ماذا يعجبك في هذا الزقاق ؟. لماذا تعودين اليه ؟!.

فضحكت الفتاة قائلة :

ـ كيف تسألني عن هذا ؟!. أليس هو بيتي واهلي ؟!

فقال بازدراء :

ـ لا البيت بيتك ، ولا الأهل اهلك . انك من طينة اخرى يا محبوبتي ومن الكفر أن يعيش جسم حي نضير في مقبرة مليئة بالعظام النخرة . الم ترى الى الحسان يرفلن في الثياب الفاخرة ؟ وانك لتفوقينهن جمالا وفتنة ، فكيف لا تخطرين مثلهن في المطارف والحلى ؟ .. ان الله ارسلني اليك لأرد الى جوهرك النفيس حقه المسلوب ، وعلى ذلك أقول ان هذا بيتك وكفى .

لعبت كلماته بقلبها كما تلعب انامل العازف بأوتار الكمان : فخدر شعورها ، وتقارب جفناها ، ولاحت في عينيها نظرة حالمة ،

ولكنها تساءلت : ماذا يعنى يا ترى ؟. هـذا حقا ما يهفو اليه فؤادها ، فما السبيل الى تحقيق الاحلام وتقريب المنى ؟.. لماذا لا يفصح عما يريد ويصرح بما ينوى ؟. انه يعبر أروع تعبير عن آمالها واحلامها ورغباتها ، انه ينطق بلسانها الخفى ويشى بأعماقها جميعا ، انه يجلو الغامض الخفى ويجسم المعروف حتى لكأنها تراه رؤية العين ، الا شيئا واحدا لم يمسسه صراحة ، ولم يقتحم السبيل اليه ، فما حكمة التردد يا ترى ؟!. ونظرت اليه بعينيها الجميلتين الجسورتين وسالته :

ــ ماذا تعنى ؟..

فشعر الرجل بانه ينتقل الى مرحلة خطيرة من مراحل خطته المرسومة ، ورماها بنظرة منوم بارع ثم قال بصوت خافت :

ــ أعنى أن تبقى فى البيت اللائق بك ؛ وأن تتمتعى بأسعد ما تجود به الحياة .

وضحكت ضحكة قصيرة فى ارتباك وحيرة وتمتمت :

ــ لا افهم شيئا ...

فمسح على مفرق شعرها بحنان ، متعوذا بالصمت ريثما يرتب افكاره ثم قال :

ــ لعلك تتساءلين : كيف يريدنى على أن أبقى فى بيته ؟ .. فاذنى لى أن أسالك بدورى : لماذا تعودين الى المدق ؟. ألتنتظرين هناك شان الفتيات البائسات حتى يتعطف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك الغض ثم يتركك لقى فى الزبالة ؟!. لست احادث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة فارغة وتجىء بها أخرى ، ولكنى أعلم علم اليقين انك شابة قليلة الأشباه ، جمالك فتان ، ومع ذلك فهو مزية واحدة من مزايا عديدة تكاد تغطى عليه ، انت الجسارة نفسها ، ومثلك اذا اراد شيئا يقول له كن فيكون ...

وانكفأ لونها ، وجمدت قسماتها ، فقالت بحدة :

— هـذه دعابة لا تجوز على !.. بدأت مازحا ؛ وانتهيت وكأنك جاد !..

— دعابة !. لا والله . لا وحق قدرك عندى . انا لا اداعب حين الجد خاصة شخصا مثلك ملأنى تقديرا واحتراما وحبا ، واذا صدق حدسى فانت قلب كبير يستهين بكل شىء فى سبيل سعادته ، ولا يمكن ان تقف فى سبيله عقبة . انى أريد شريكا فى حياتى ، وانك لشريكى دون الناس جميعا ...

فهتفت به فى انفعال شديد :

— اى شريك ؟! .. اذا كنت تجد حقا فماذا تريد ؟... الطريق بين . فاذا أردت ...

وكادت تقول : « أن تتزوجنى » ولكنها امسكت ، وسددت نحوه نظرات حادة مريبة ، فلم يفته مرادها ، واستشعر سخرية باطنة ، ولكنه واصل سيره حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من التراجع ، فقال بحماس تمثيلى :

— اريد شريكا محبوبا نقتحم الحياة معا ، حياة النور والثروة والجاه والسعادة ، لا حياة البيت التعسة والحبل والولادة والقذارة ، حياة النجوم اللاتى حدثتك عنهن .

وفتحت فاها منزعجة ، ثم انبعث من عينيها نور مخيف ، واصفرت غضبا وحنقا ، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها :

— تدعونى للفساد !.. يا لك من مفسد اثيم ...

هكذا هدرت فى غضبها وان كان غضبها للمفاجأة التى دهمتها والخيبة التى أدركتها منه لا للفساد الذى لم تعتد ان تثور له .

وتبسم الرجل كالهازىء وقال :

— انى رجل ...

ولكنها قاطعته صارخة مدفوعة بطبعها الحامى :

— لست رجلا : بل انت قواد .

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك :

— اليس القواد رجلا ايضا ؟!.. بلى .. وهو رجل .. وحق جمالك الفتان — ولا كل الرجال . وهل تجدين عند الرجل العادى غير وجع الدماغ ؟! اما القواد فهو سمسار السعادة فى هذه الدنيا !. ولكن لا تنسى انى محبك كذلك . لا تدعى الغضب يحطم حبنا . انى ادعوك للسعادة والحب والجاه . ولو كنت فتاة بلهاء لخادعتك . ولكنى قدرتك فآثرت معك الصراحة والحق . ان كلينا من معدن واحد ، خلقنا الله للحب والتعاون ، فاذا اجتمعنا اجتمع لنا الحب والمال والجاه ، واذا افترقنا للشقاء والفقر والذل ، او افترق احدنا — على الأقل — لذلك ...

ولم تتحول عنه عيناها ، وراحت تتساءل فى ذهول : كيف تمخض عن هذا ؟ ! ولبث صدرها يجيش بالهياج والانفعال ، ومن عجب انها ثارت به ووجدت عليه وتغيظت منه ، ولكنها لم تحتقره ، ولم تنفك عن حبه لحظة واحدة ! . لا بل لم تنس — حتى فى عنفوان هياجها — انها تصارع الرجل الذى لقنها الحب وثبته فى أعماقها ، وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة فى حركة عنيفة وقالت فى سخط وغيظ :

— لسته كما تظن ...

فتنهد بصوت مسموع متكلفا الحزن ، وان لم تخنه ثقته شأن رجال الأعمال ، وقال بصوت أسيف :

— لا أكاد أصدق انى انخدعت بك . رباه أتصبحين يوما من عرائس المدق ؟ ! حبل وولادة ، وحبل وولادة ، ارضاع اطفال على الأرصفة ، ذباب وبصارة وفول ، ذبول وترهل ؟!.. كلا ، كلا .. لا أريد أن أصدق هذا ...

فصاحت به غير متمالكة نفسها :

ـ كفى ...

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعا ، ولحق بها وهو يقول برقة « رويدك » ، ولكنه لم يعترضها ففتح لها الباب وخرجا معا . جاءت سعيدة غير هيابة ، وهبت مهيضة ذاهلة . ووقفا أمام الباب الخارجي حتى جاءهما غلام بتاكسي ودخلاه كل من باب ، ومضى بهما مسرعا ، ابتلعتها أفكارها فغابت عن الدنيا ، وجعل يسترق اليها النظر صامتا دون ان يجد حكمة في خرق الصمت المخيم ، وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكسي منتصف الموسكي ، فأمر السائق بالوقوف ، وتنبهت على صوته فألقت ببصرها الى الخارج ثم تزحزحت قليلا استعدادا للنزول ، فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها ، ولكنه تريث قليلا ، ثم مال نحوها فلثم منكبها وهو يقول :

ـ سأنتظرك غدا ...

فابتعدت عن الباب وهى تقول باقتضاب وحدة :

ـ كلا ...

فقال ويده تدير الأكرة :

ـ سأنتظرك يا محبوبتى ... وستعودين الى ...

ثم قال لها وهى تغادر التاكسى :

ـ لا تنسى الغد ، سنبدأ حياة جديدة رائعة .. احبك .. احبك اكثر من الحياة نفسها ...

وراح يرقبها وهى تبتعـد متعجلة ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسه : « مليحة بلا ادنى شك ، وهيهات أن يكذبنى ظنى ، فهى موهوبة بالفطرة .. هى عاهرة بالسليقة .. وسوف تكون درة نادرة المثال .. » .

٢٤

سألتها أمها :

ــ لماذا تأخرت . . ؟

فأجابتها بلا مبالاة :

ــ دعتنى زينب الى بيتها فذهبت معها .

فبشرتها المرأة بأنهما سيشهدان عرس الست سنية عفيفى عما قريب ، واخبرتها أن الست ستهدى اليها فستانا لحضور الزفاف ، فتظاهرت حميدة بالسرور ، وجلست تصغى الى ثرثرة أمها ساعة طويلة ، ثم تناولتا عشاءهما واوتا الى حجرة النوم ، وكانت حميدة تنام على كنبة قديمة ، أما أمها فتفرش حشية على ارض الغرفة وتستلقى عليها ، ولم تكد تمضى دقائق حتى راحت الأم فى نوم عميق ، وملأت الحجرة شخيرا ، ولبثت حميدة محملقة فى النافذة المغلقة وقد نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد . استحضرت ذاكرتها حوادث يومها العجيب فلم تفتها منه حركة أو سكتة أو كلمة ، وعاش فى خيالها مرة أخرى ، وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل ، فشعرت علىرغم قلقها الراهن بسرور غير خاف ، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن فى غرائزها ، ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهى راجعة الى زقاقها : « يا ليتنى لم اره ! » ، ولكنه كان قول لسان لم يجد له صدى فى قلبها . والحق انها عرفت من نفسها ذلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمرها . وكأن هذا الرجل قد اعترض سبيلها ليجلو ما خفى من ذاتها وبسطه لناظريها كمرآة مصقولة . بيد انها قالت له : « كلا » وهى تفارقه ، وربما

لم يكن لها عن هذا القــول مذهب ؛ ولكن ما معناه على وجه التحقيق ؟ ! اليس معناه أن تقبع فى بيتها مترقبة عودة عباس الحلو ؟!. ورباه ، لم يعد للحلو مكان فى نفسها ، امحى اثره . وتبدد رجع صداه . وليس الحلو فى الواقع الا هــذا الزواج التعس ، وما يعقبه من حبل وولادة ، وارضاع على الأرصفة وذباب . الى آخر هذه الصورة البشعة المقوتة ، أجل ، لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر فى نفسها شأن الفتيات من اترابها ، ولم تكن نسوة الزقاق بمتجنيات عليها فيما رمينها من قسوة وشذوذ . فماذا تبتغى اذن ! . . وخفق قلبها خفقانا متتابعا فعضت على شفتيها حتى كادت تدميهما ، انها لتعلم ما تبتغى ، وبما تهفو اليه نفسها ، كان يجرى قبل اليوم فى شعورها متقلقلا بين النور والظلمة ؛ ولكنه شق اليوم غشاوة الغموض وأسفر جليا لا لبس فيه ولا ابهام ، ومن عجب انها لم تعان — فى سهادها — ترددا خطيرا فيما ينبغى أن تختار من سبيل ، ولم تشعر كثيرا بوطاه التجاذب بين ماضيها وحاضرها ، أو بين ما فى حياتها من خير وما يتصدى لها من شر ، بل الحق أنها اختارت سبيلها بالفعل وهى لا تدرى ، ووقع اختيارها عليه وهى بين يدى ذلك الرجل ، فى بيته ! . كان لسانها يهدر غضبا وأعماقها ترقص طربا ؛ كان وجهها يربد ويعبس وأحلامها تتنفس وتمرح !.. وفوق هذا كله فانها لم تمقته لحظه واحدة ، لا بل لم تحتقره قط وكان — كما لم يزل — حياتها ومجدها وقونها وسعادتها ! . لم يثر حنقها الا ادلاله بثقته وهو يقول لها : « ستعودين الى » ! .

أجل . ستعود ، ولكنه ينبغى أن يؤدى ثمن الثقة الوقحة غاليا . فليس حبها عبادة وخضوعا ، ولكنه معركة يحتدم أوارها ويتطاير شررها ، طالما اختنقت فى هذا البيت ، وهذا الزقاق ، وهيهات أن يعتاقها عائق بعد اليوم عن الانطلاق الى النور والجاه

والسلطان ، وهل من سبيل الى الافلات من ربقة الماضى الا عن يد هذا الرجل الذى أوقد فى خيالها نارا ؟ ولكنها لن تهرع اليه فى خشوع واذعان هاتفة : « انى عبد يديك فافعل بى ما تشاء » لأنها لا تعرف هذا الحب . كذلك لن تنطلق اليه كالرصاصة صارخة : « انى سيدتك فتخشع بين يدى » فما أزهدها فى الحب الناعم أو الحبيب الخرع ، ولكنها ستذهب اليه وقلبها مشحون بالآمال والرغبات ، ولسان حالها يقول : « انى قادمة بقوتى فلاقنى بقوتك ، ولنتناطح الى الأبد فى سعادة تجل عن الوصف ، ثم متعنى بما منيتنى به من جاه وسعادة . لقد وضح السبيل بفضله هو ، وهيهات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها .

ومع ذلك فلم تخل ليلتها من أفكار نغصت عليها عزمتها بعض التنغيص . تساءلت : « ترى ماذا يقولون عنى غدا ؟ » وجاءها الجواب فى كلمة واحدة : عاهرة ! . وتقبض قلبها حتى جف ريقها وذكرت كيف تلاحت مرة مع واحدة من صويحباتها بنات المشغل فسبتها صارخة : « يا ربيبة الشوارع .. يا عاهرة ! » . معيرة اياها بالعمل كالرجال والتسكع فى الشوارع . فما عسى أن يقال عنها هى ؟ ! .. وداخلها الحزن والأسى ، فتململت فى رقادها جزعا وضيقا ، ولكن شيئا فى الوجود لم يكن ليثنيها عما اعتزمت ، أو يلوى بها عما اختارت ، فقد اعتزمت بقوة أعماقها ، واختارت بمجامع قلبها ، فكانت تنحدر الى مصيرها المحتوم لا يعوقها من وازع الا ما يعوق المنحدر الى الهاوية من دقاق الحصا .

ثم انتقل تيار افكارها فجأة الى أمها ، فالتفتت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذى كان غاب عنها ساعة طويلة . فتصورتها فى غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشفت على اليأس ، وذكرت كيف أحبتها المرأة حبا صادقا لم يترك فى قلبها احساسا — وان قل — بالحرمان من الأمومة ، وكيف أحبتها هى أيضا على كثرة

ما شجر بينهما من نزاع وشقاق ، وكانما خافت احاسيس العطف التى اخذت تدب فى نفسها فزفرت بقوة وضجر وقالت لنفسها : « لا اب لى ولا أم ، وليس لى فى الدنيا سواه » ، وولت الماضى كشحها ، ولم تعد تفكر الا فى الغد وما عسى ان يتكشف عنه ، ثم امضها السهاد ، وشعرت بحرارته تصهر جفونها ودماغها ، فتمنت ان ينقذها النوم من عذابه وأن تغمض عينيها فلا تفتحهما الا على نور الصباح . واهابت بارادتها ان تنش عن راسها ما ينثال عليه من خواطر ، فنجحت فى طردها الى حين ، ولكنها تنبهت الى الأصوات المتصاعدة من قهوة كرشة ، ووقعت من نفسها موقعا مثيرا ، فراحت تلعنها وتتهمها بتطيير النوم من عينيها . وجعلت تنصت اليها على رغمها ، وتسب محدثيها فى حنق وغضب : « يا سنقر غير ماء النرجيلة » .. هذا صوت الفاجر الحشاش كرشة . « يا سيدى ربك يعدلها » ، وهـذا عم كامل الحيوان الاعجم . « ولو .. كل شيء له اصل » .. هذا الاعمش القذر الدكتور بوشى . وتمثل لها حبيبها — على غرة — بمجلسه المختار ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش ، وتخيلته وهو يشير اليها بقبلاته فخفق فؤادها ، ثم استحضرت ذاكرتها صورة العمارة الهائلة ، والحجرة الرائعة ، وسرعان ما طن صوته فى أذنيها وهو يهمس قائلا : « ستعودين الى .. » رباه ! متى يرحمها النوم ؟ . « السلام عليكم يا اخوان » .. هذا صوت السيد رضوان الحسينى الذى اشار على امها برفض يد السيد علوان قبل أن يهتصره المرض ، ترى ماذا يقول عنها غدا اذا تناهى اليه الخبر ؟ . ليقل ما يشاء ، ولعنة الله على اهل الحى جميعا ! وانقلب الأرق صراعا وسقما ، ومضت تتقلب على جنبيها وبطنها وظهرها ، ومضى الليل بطيئا ثقيلا مرهقا مضنيا ، تزيده هولا خطورة الغد المرتقب ، وقبيل الفجر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه

عند الضحى . وبادرها الصحو بأفكارها جملة كأنما سبقتها الى اليقظة بوقت طويل ، ولكن لم يساورها التردد وتساءلت فى جزع : متى يأتى المغيب ؟. وقالت لنفسها انها الآن زائرة عابرة فى المدق ، لا هى منه ولا هو منها كما قال الحبيب ، ونهضت كعادتها ففتحت النافذة ، وطوت حشية أمها وكومتها فى ركن الحجرة . ثم كنست الشقة ، ومسحت الردهة الخارجية ، وتناولت فطورها على انفراد لان أمها كانت قد غادرت البيت الى شئونها التى لا تنتهى ، ثم مضت الى المطبخ فوجدت عدسا فى طبق تركته أمها لتطبخه غداء ليومهما ، فعكفت على تنقيته وغسله ، واوقدت الكانون وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة : « هذه آخر طبخة فى هذا البيت ، وربما كانت آخر طبخة فى حياتى .. ترى متى آكل العدس مرة اخرى ؟ ! » . ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم ، كذلك لم تكن تعلم شيئا عن طعام الأغنياء الا انه لحم ولحم ولحم . وانشأ خيالها ينعم بتصور غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتى انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة حالمة ، وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحمام تستحم ، ثم مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته ضفيرة غليظة طويلة أرسلتها وراء ظهرها حتى مست أهدابها أسفل فخذيها ، وارتدت خير ما لديها من ثياب ، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخلية البالى ، فتورد وجهها البرنزى وعجبت كيف تزف اليه فى مثل هذه الثياب ، واربد وجهها وهاج صدرها ، فصممت على الا تسلم اليه حتى تستبدل بهذه الثياب الرقيقة اخرى جديدة زاهية . وطاب لها هذا الرأى ، وصادف من نفسها — التى تأبى الهوى الا فى حومة العراك والعناد — هوى ولذة ، ثم وقفت فى النافذة تلقى على حيها نظرات الوداع ، وجعل بصرها يتردد بين معالمه بغير توقف : الفرن ، قهوة كرشة ، دكان عم كامل ، دكان

الحلاق ، الوكالة ، بيت السيد الحسينى ؛ والذكريات تبعثها النظرات كأنها الشعلات يبعثها حك أعواد الثقاب .

ومن عجب انها وقفت حيال ذلك كله جامدة باردة لا يندى صدرها بعطف او مودة لا للزقاق ولا لأهله ، وكانت أسباب الجوار والصداقة مقطوعة ما بينها وبين غالبية نسوة الحى كأم حسين — أمها بالرضاعة — والفرانة ، حتى امراة السيد رضوان الحسينى لم تسلم من لسانها ، فقد بلغها يوما انها وصفتها ببذاءة اللسان ، فتربصت بها حتى رأتها يوما على سطح بيتها تنشر الغسيل فصعدت الى السطح وثبا — وكان السطحان متلاصقين — واقتربت من السور وجعلت تعرض بالمرأة قائلة بتهكم وازدراء : « أسفى عليك يا حيدة من فتاة بذيئة اللسان ، غير جديرة بمعاشرة الهوانم من ستات المدق بنات الباشوات ! » ولكن المراة آثرت السلامة ، وتعوذت بالصمت . وقد ثبتت عيناها غير قليل على الوكالة فذكرت كيف طلب السيد سليم علوان يدها ، وكيف ثملت بأحلام الثراء يوما وبعض يوم ! . لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من يديها ! ولكن شتان بين رجل ورجل ! فاذا كان سليم علوان قد حرك — بثروته — جانبا من قلبها ، فهذا الذى حرك قلبها كله حتى كاد يقتلعه . وعادت عيناها الى دكان الحلاق فذكرت عباس الحلو ، وتساءلت : ترى ماذا يفعل اذا رجع يوما من مهجره فلم يعثر لها على اثر ؟ ! وذكرت وداعه الأخير على السلم بقلب متحجر ، وعجبت كيف منحته شفتيها يقبلهما ؟ ! ثم ولت النافذة ظهرها ومضت الى الكنبة أشد ما تكون عزما وتصميما ، ورجعت امها الى البيت ظهرا ، فتناولتا غداءهما معا ، وقالت لها المرأة فى اثناء الطعام : « لذى زيجة مهمة ، اذا وفقت فيها ، فتح الله علينا » . فاستفسرت من هذه الزيجة المرجوة بفتور ، ولم تكد تلقى لما قالت بالا ، وكثيرا ما كانت تقول

مثل ذلك ثم يتمخض الرجاء عن بضعة جنيهات واكلة لحم ! . أو اكلة لحم فحسب بالنسبة لها . ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلا ، تربعت هى على الكنبة وراحت تطيل اليها النظر . هـذا يوم الوداع ؛ وربما لن تقع عليها عيناها بعد الآن . ولأول مرة عراها الضعف فدرت حناياها عطفا للمراة التى آوتها وتبنتها واحبتها ولم تعرف سواها أما ، وتمنت لو تستطيع ان تقبلها قبلة الوداع .

وجاءت ساعة الأصيل فتلفعت بملاءتها وانتعلت شبشبها ، وكانت يداها ترتعشان انفعالا واضطرابا ، وقلبها يخفق بشدة . ولم يكن بد من ان تفارق أمها بغير وداع ، فامتعضت ، ثم راتها آمنة لا تدرى شيئا عما يخبئه لها الغد فازداد امتعاضها ، وحم الرحيل فالقت عليها نظره طويلة ثم قالت وهى تهم بالمسير :

— فتك بعافية ...

فقالت لها المراة وهى تشعل سيجارة :

— مع السلامة .. لا تتأخرى ..

وغادرت البيت تلوح فى وجهها أمارات الجد والاهتمام ، وقطعت المدق لآخر مرة لا تلوى على شيء ، وسارت من الصنادقية الى الغورية ، ثم انعطفت صوب السكة الجديدة وتقدمت فى خطوات متمهلة ، وارسلت بصرها بعد تردد واشفاق ... فرأته بموقف الأمس ينتظر ! ... التهب خداها واجتاحتها موجة صاخبة من التمرد والغضب ، وودت من أعماقها أن تثأر من ظفره هذا ثأرا يرد عليها بعض سكينتها . وغضت بصرها ، ثم تساءلت : أتراه يبتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة ؟ ! ورفعت عينيها بنرفزة ، ولكنها وجدته هادئا جادا رزينا يلوح فى عينيه اللوزيتين الرجاء والاهتمام فانفثأ هياجها قليلا ، ومرت به وهى تتوقع أن يخاطبها ، أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس ، ولكنه تجاهلها ، وتريث قليلا حتى غيبها المنعطف ، ثم تبعها متمهلا ، فأدركت أنه بات أشد

حذرا ، واعظم شعورا بخطورة الامر ، وسارت حتى اوشكت السكة الجديدة أن تنتهى ، ثم توقفت بغتة كأنما ذكرت شيئا جديدا ، وانفتلت راجعة ، فتبعها قلقا وهمس لها متسائلا :

— ماذا أرجعك ؟

فترددت قليلا ثم قالت وقد سامها النطق عناء :

— بنات المشغل . .

فقال بارتياح :

— الى الأزهر ، فلا يرانا احد . .

وشقا طريقهما متباعدين ، وسارا فى شارع الأزهر فى صمت ثقيل ، وقد ادركت انها اعلنت — بالكلمة التى نطقت بها — تسليمها النهائى . وبلغا ميدان الملكة فريدة دون ان يخرجا من صمتهما الثقيل ، ولم تعد تدرى اين تتجه فوقفت ، وسمعته فى اللحظة التالية ينادى التاكس ، وجاءت السيارة ففتح لها الباب ، ورفعت قدمها لتصعد اليها ، ففصلت هذه الحركة بين حياتين !. وما كادت السيارة تنطلق بهما حتى قال بصوت متهدج وبهارة فائقة :

— الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة !. . . لم انم من لياتى ساعة واحدة . انت لا تدرين يا عزيزتى ما الحب . ولكنى اليوم سعيد ، بل أكاد اجن من الفرح ، رباه كيف اصدق عينى ؟!. شكرا يا محبوبتى شكرا ، والله لأجعلن من السعادة انهرا تجرى تحت قدميك . . . ما أجمل الماس حول هذا الجيد (ومس جيدها برقة) . . . ما أروع الذهب فى هذا الساعد (وقبل ساعدها) . . ما أفتن الروج فى هاتين الشفتين (وهوى براسه ليقبل ثغرها ولكنها تحامته فلثم خدها) . . يا لك من فاتنة نافرة !. . .

واستراح قليلا ثم استدرك قائلا وعلى شفتيه ابتسامة :

— ودعى الآن عهد التعب ، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد اليوم !. . . حتى ثدياك سيحملهما عنك رافع من الحرير . . !

ورضيت بالاستماع لهذا الكلام دون تنمر أو احتداد ، وأن توردت وجنتاها . واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التى تهرب من الماضى كله !

وانتهى التاكس الى العمارة التى صارت مأواها ، فغادراه ، ومضيا مسرعين الى الشقة ، وكانت كما وجدتها ضاجة بالأصوات المنبعثة من الابواب ، ثم دخلا الحجرة الرائعة ، وقال ضاحكا :

— اخلعى الملاءة لنحرقها معا .

فغمغمت تقول وقد تورد وجهها :

— لم احضر ملابسى . . .

فصاح بسرور :

— حسنا فعلته . . . لا نريد شيئا من الماضى .

واجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، ثم اتجه نحو باب أنيق الى يمين المرآة العالية ، ودفعه عن مخدع وثير وهو يقول :

— حجرتنا . . .

ولكنها قالت بسرعة وحدة :

— كلا . . كلا . . سأنام هنا . .

فحدجها بنظرة ثاقبة ، ثم قال بلهجة تنم عن التسليم :

— بل تنامين فى الداخل وانام انا هنا . .

وكانت تصمم فى نفسها على الا تؤخذ كالماشية ، والا تسلم حتى تشبع رغبتها فى العناد والاباء ، والظاهر أن رغبتها هذه لم تغب عن مكره ، لانه دارى ابتسامة ساخرة ، وتظاهر بالاذعان والتسليم ، ثم قال لها بسرور وفخار :

— بالأمس يا عزيزتى دعوتنى بالقواد ، فاسمحى لى بأن اقدم لك نفسى على حقيقتها : محبك ناظر مدرسة ، وستعلمين كل شىء فى حينه . . .

٢٥

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق : « هذا وقت اجتماعهم فى القهـوة ، وسيرونني جميعا بلا ادنى شك ، وسيخبرون أبى بمقدمى اذا عمى هو عنه » . كان الليل قد ارخى سدوله ، فأغلقت دكاكين المدق وخيم عليها السكون ، وضجت قهوة كرشة وحدها بالسمار . كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة ، منقبض الصدر ، متجهم الوجه ، يتبعه على الاثر فتى فى مثل سنه وفتاة فى مقتبل العمر . وكان حسين يرتدى قميصا وبنطلونا ، ويحمل فى يمناه حقيبة كبيرة . وكذلك كان الفتى الذى يتبعه . أما الفتاة فرفلت فى فستان أنيق — بلا معطف ولا ملاءة — وقد بدت فى مشيتها ذات وسامة ورشاقة وان لم تخل من ابتذال يشى بطبقتها ، واتجه حسين صوب بيت السيد رضوان الحسينى دون أن يلتفت ناحية القهوة ، ودخل البيت يتبعـه رفيقاه ، ثم رقوا السلالم حتى الطابق الثالث ، ودق الفتى باب الشقة وقد ازداد وجهه تجهما ، فسمع وقع أقدام تقترب ، ثم فتح الباب وبدت امه وراءه تقول بصوتها الخشن : « من ؟ » ، ولم تعرف الشبح الماثل امامها لشدة الظلمة . فقال حسين بصوت منخفض :

— حسين !

وهتفت المراة وهى لا تكاد تصدق اذنيها :

— حسين ! .. ابنى ! !

وهرعت اليه ، وامسكت بذراعيـه ، وقبلته ، وهى تقول بحرارة :

— عدت يا بنى ! .. الحمد لله .. الحمد لله الذى اثابك الى

رشدك ، وحماك من وسوسة الشيطان ، أدخل بيتك (وضحكت في انفعال) . ادخل يا غادر .. لكم أقضضت مضجعي ، وقطعت قلبي ..

ودخل الشاب مستسلما ليديها ، دون ان يخف تجهمه ، وكان استقبالها الحار لم يكد يجدى شيئا فى تفريج كربه ، ولما أن همت برد الباب حال بينها وبينه قائلا وهو يوسع للفتاة وللفتى :

ــ معى أناس . ادخلى يا سيدة ، ادخل يا عبده ، هذه زوجى يا امى ، وهذا شقيقها ...

وبهتت المرأة ، ولاحت فى عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج ؛ وراحت تنظر الى القادمين بذهول ، ثم تنبهت الى اليد المبسوطة للسلام فتمالكت عواطفها وسلمت وهى تخاطب ابنها بلا وعى تقريبا :

ــ تزوجت يا حسين !... أهلا بك يا عروس .. تزوجت يا حسين دون ان تخبرنا ؟ .. كيف رضيت أن تزف فى غياب والديك وهما على قيد الحياة ؟ ! .

فقال حسين بامتعاض :

ــ الشيطان شاطر ! .. كنت غاضبا ثائرا ساخطا .. وكل شيء قسمة ونصيب ! .

وانتزعت المرأة المصباح من الحائط ، وتقدمتهم الى حجرة الاستقبال ، ووضعته على حافة النافذة المغلقة ، ووقفت تتفرس فى وجه زوج ابنها ، وقد قالت الفتاة بصوت أسيف :

ــ احزننا والله غيابكم ، ولكن ما باليد حيلة .

وأبدى شقيقها كذلك اسفه ، فابتسمت المرأة ، ولم تكن أفاقت بعد من دهشتها ، وتمتمت :

ــ أهلا بكم جميعا .

ثم التفتت صوب ابنها وقد هالها تجهمه وجموده ، وذكرت

لأول مرة ان فمه لم ينفرج عن كلمة طيبة واحدة منذ حضوره ، فقالت له بعتاب :

ــ هكذا تذكرتنا اخيرا . .

فهز حسين راسه بكآبة وقال باقتضاب :

ــ استغنوا عنى . . .

فقالت المراة بانكار وقد داخلتها خيبة جديدة :

ــ استغنوا عنك ! ؟ اتعنى انك عاطل الآن ؟ !

وقبل أن يفتح فمه قرع آذانهم دق عنيف على البــاب ، فتبادلت المراة وابنها نظرة ذات معنى ، ثم غادرت الحجرة فلحق بها الشاب بعد أن أغلق الباب وراءه ، وقال لها فى الردهة الخارجية :

ــ هذا ابى بلا ريب . . .

فقالت له بقلق :

ــ اظن هذا ، هل رآك . . . اعنى رآكم وانتم قادمون ؟ .

ولكن الفتى لم يجبها ، وتقدم من الباب وفتحه ، فدخل المعلم كرشة مندفعا ، وما أن راى ابنه حتى قال وعيناه تحماران ، وضباب الغضب يغشى وجهه :

ــ أهذا انت ؟! . . قالوا لى ذلك فلم اصدق . . لماذا عدت ؟! .

فقال حسين بصوت منخفض :

ــ يوجد فى البيت غرباء ، هلم الى حجرتك نتكلم . .

ومضى الشاب مسرعا الى حجرة ابيه ، فتبعه المعلم مزمجرا ، ولحقت بهما المراة ، ثم اشعلت المصباح وهى تقول لزوجها فى رجاء وتحذير :

ــ فى الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقها . . .

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان فى ذهول وهتف :

ــ ماذا تقولين يا مرة ؟ . . اتزوجت حقا ؟

واستاء حسين من امه لأنها القت عليه الخبر دون تمهيد ، ولم ير بدا من أن يقول :

ـ نعم يا أبتى تزوجت . .

وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحنق وغيظ ، ولكنه لم يفكر لحظة فى معاتبة ابنه على الزواج بدون علمه ، لأن المعاتبة فى نظره حال من المودة ، وصمم فى اللحظة التالية على اهمال هذا الخبر كأنه لم يسمعه ، وقال بغيظ وحقد :

ـ هذا شىء لا يعنينى البتة ، ولكن دعنى أسألك ، لماذا عدت الى بيتى ؟ . . لماذا أريتنى وجهك بعد أن أراحنى الله منه ؟

فلاذ حسين بالصمت ، ونكس ذقنه عابسا ، وانبرت الأم تقول باستعطاف :

ـ استغنوا عنه يا معلم .

ونقم الشاب على أمه تسرعها للمرة الثانية . أما المعلم فقد ازداد حنقا وصاح بصوته الغليظ ـ مما جعل المرأة تغلق الباب ـ قائلا :

ـ استغنوا عنك ؟ ! . . ما شاء الله . . وهل بيتى تكية ؟ ! . . الم تنبذنا يا همام ؟ . . الم تعضنى بنابك يا ابن الكلب ؟ . . فلماذا تعود الآن ؟ . . اغرب عن وجهى . عد الى الحياة النظيفة والماء والكهرباء . . هيا . .

فقالت أم حسين برقة :

ـ هدىء روعك يا معلم وصل على النبى . .

فلوح لها الرجل بقبضته منذرا وصاح بها :

ـ تدافعين عنه يا بنت الابالسة ؟ ! . . كلكم جنس شياطين يستاهل جلد السياط وعذاب النار . ماذا تريدين يا أم الشر كله ؟ . . أتريدينني على ان آويه واهله ؟ . . هل قالوا لك انى قواد يأتينى رزقى من يمين وشمال بغير تعب ولا جهد ؟! . . الا فاعلموا بأن الشرطة تحوم حولنا ، وبالأمس قبضوا على أربعة من رفاقى ، وغدكم أسود باذن الله . .

فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها :
ــ صل على النبي يا معلم ووحد الله .
فصاح بفظاظة :
ــ سليه عما جاء به ؟.
فقالت برجاء واستعطاف :
ــ ابننا أرعن مجنون ، غواه الشيطان فاضله ، وليس له الآن من ملجأ سواك . . .
فقال المعلم كرشة بحنق وسخرية :
ــ صدقت يا أم السوء ، ليس له ملجأ سواى ، سواى انا الذى يسب حين السراء ، ويلجأ اليه حين الضراء !.
ثم تفحص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار وسخرية :
ــ لماذا استغنوا عنك ؟.
وتنهدت الأم من الأعماق لانها ادركت بغريزتها أن هذا السؤال ــ على لهجته المريرة ــ ايذان بالتفاهم المنشود ــ اما حسين فقد قال بصوت منخفض وهو يعانى مراوة القهر :
ــ استغنوا عن كثيرين غيرى .. يقولون ان الحرب وشيكة الانتهاء .
ــ انتهت الحرب فى الميدان وستبدأ فى بيتى انا !.. ولماذا لم تذهب الى أهل زوجك ؟
فقال الشاب بغضاضة :
ــ ليس لها الا شقيقها .
ــ ولماذا لم تلجأ اليه ؟
ــ استغنوا عنه أيضا . . .
فضحك هازئا وقال :
ــ أهلا .. أهلا .. وطبيعى انك لم تجد ملجأ لهذه الأسرة الكريمة التى أناخ عليها الدهر الا بيتى ذا الحجرتين !.. مرحى .. مرحى .. ألم توفر مالا ؟.

فقال الشاب باقتضاب وهو يتنهد :

ــ كلا . .

ــ أحسنته . عشت عيشة الملوك ، كهرباء وماء وملاه ، ثم عدت أخيرا كما بدأت شحاذا .

فقال حسين بانفعال :

ــ قالوا ان الحرب لن تنتهي . وان هتلر سيقاوم عشرات السنين ثم يهجم بعد ذلك . . .

ــ ولكنه لم يهجم ، واختفى (حتى فى تلك اللحظة لم يعل انه مات) تاركا شيخ المغفلين صفر اليدين . والبك شقيق الست لا .

ــ الحال من بعضه .

ــ عال . . عال . . البركة فى ابيك . هيئى لهم البيت يا ست أم حسين ولو انه حقير لا يليق بالمقام ، ولكنى سأتدارك ذلك بادخال الماء والكهرباء وربما ابتعت حنطور السيد علوان ليكون تحت تصرفكم .

فنفخ حسين قائلا :

ــ حسبك يا ابى . . حسبك .

فنظر اليه كالمعتذر وقال بسخرية :

ــ لا تؤاخذنى ، أثقلت عليك ؟ . . مزاج رقيق ، عز وجاه ، ارحموا عزيز قوم ذل . احتشم يا معلم كرشة ولا تحدث السادة الا بحديث السادة . تفضل بخلع ملابسك ، اما انت يا ست أم حسين فافتحى الكنز فى المرحاض وعبى للبيك حتى يتريش وينبسط .

ولم ينبس حسين بكلمة وهو كظيم ، فمرت العاصفة بسلام ، وراحت المرأة تناجى نفسها : « يا ساتر استر » . وكان المعلم ــ على حنقه وسخريته ــ ابعد ما يكون عن طرده ، بل لعله حتى

فى تلك الساعة الحامية لم يخل من ارتياح لعودته ، وسرور بزواجه ، لذلك كف عما كان آخذا فيه ، وغمغم قائلا :

ــ الأمر لله . . ربنا يتوب على منكم .

ثم سأل الشاب مستدركا :

ــ ماذا أعددت للمستقبل ؟.

فقال الشاب وقد شعر بأنه اجتاز محنته :

ــ سأجد عملا ان شاء الله ، ولا تزال لدى حلى زوجى .

فانتبهت أمه الى كلمة « حلى » باهتمام وسألته بغير وعى :

ــ هل كنت ابتعتها لها ؟.

فقال حسين :

ــ أهديته اليها البعض واشترى لها شقيقها البعض الآخر .

والتفت نحو أبيه مستطردا :

ــ سوف أجد عملا ، وسيبحث عبده نسيبى عن عمل أيضا ، وعلى أية حال فهو لن يقيم بيننا الا أياما .

فانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذى أعقب الزوبعة فقالت لزوجها :

ــ تعال يا معلم سلم على أهل ابنك .

ولحظت ابنها بطرف خفي وغمزت بعينها ، فقال الشاب بغضاضة من يستكره التودد بطبعه :

ــ هلا أكرمتنى حيال أهلى ؟.

وتردد الرجل لحظة ثم قال بامتعاض :

ــ كيف تريدنى على الاعتراف بهذا الزواج الذى لم أباركه ؟!

ولما لم يسمع من مجيب ، نهض متأففا ، ففتحت المرأة الباب وتقدمته ، وانتقلوا الى الحجرة الأخرى جميعا ، وسلموا ، ورحب المعلم بزوج ابنه وشقيقها ، انطوت الصدور على ما بها ، أما الوجوه فقد أشرقت بالترحاب والمجاملة . وكان المعلم كرشة قد سلم بالأمر الواقع ، ولكنه لبث قلقا لا يدرى أأخطأ بتسليمه أم

اصاب ، ولم تصف نفسه من موجدة واستياء ، ثم انتبهت عيناه النائمتان فى اثناء الحديث الى شقيق الفتاة فتفحصه بعناية ، وما عتم ان تولاه اهتمام مفاجىء أنساه قلقه وموجدته واستياءه ؟. كان شابا يافعا وسيم الطلعة خفيف الظل ، فجعل يحاوره ويرنو اليه بطرف يقظ ، وطابت نفسه وصفت ، وسرت فى أعماقه هزة سرور وحماس ، فتفتح قلبه للاسرة الجديدة ، ورحب بها مرة أخرى ، ولكن بشعور جديد ، وسأل ابنه بلطف :

ــ أليس لك أثاث يا حسين ؟

فقال حسين :

ــ غرفة نوم مكومة عند الجيران .

فقال المعلم بلهجة آمرة :

ــ اذهب واحضر عفشك !.

***

خلا حسين الى أمه ، وجلسا يتحدثان ويدبران أمورهما ، وفى ختام الحديث صاحت به فجاة :

ــ الم تعلم بما حدث ؟!.. اختفت حميدة .

فلاحت الدهشة فى وجه الشاب وسألها :

ــ كيف ؟.

فقالت المرأة دون أن تحاول اخفاء لهجتها الواشية بالشماتة :

ــ خرجت اول أمس كعادتها كل عصر ، ولكنها لم تعد . ودارت أمها على بيوت الجيران والمعارف تفتش عنها دون جدوى ، وذهبت الى قسم الجمالية وقصر العينى ولا حياة لمن تنادى .

ــ ماذا حدث للبنت يا ترى ؟.

فهزت أم حسين رأسها فى ارتياب وقالت بيقين :

ــ هربت وحياتك !.. غواها رجل فأكلَ مخها وطار بها . كانت جميلة ولكنها لم تكن طيبة قط .

٣٦

فتحت عينين محمرتين من اثر النوم ، فرأتا سقفا ابيض ، ناصع البياض ؛ يتدلى من وسطه مصباح كهربائى بارع الرونق فى كرة كبيرة حمراء من البلور الشفاف ، امتلأ بصرها دهشة ، ولكن لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة ، ثم تدافعت الى راسها ذكريات الليلة الماضية . وذكريات الحياة الجديدة . واتجه ناظرها نحو الباب فألفته مغلقا ، ثم رأت على خوان قريب من السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس . نفذت ارادتها فنامت وحدها، وقضى ليلته وحده فى الحجرة الخارجية ، وافتر ثغرها عن ابتسامة ، وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير ، فبدا فستانها مستخذيا خجلا فيما يغمره من مخمل وحرير . ما أعمق الهوة التى تفصل ما بينها وبين الماضى !. وكانت النوافذ مغلقة تنضح بوهج الشمس ، فينير جو الحجرة بضوء شاحب خفيف ، فاستدلت على الضحى بسماته ، ولكنها لم تدهش لاستيقاظها المتاخر ، فقد ارقها السهاد حتى قبيل الفجر . وسمعت نقرا خفيفا على الباب ، فتلفتت صوبه فى انزعاج ، وجمد بصرها عليه دون أن تأتى حركة أو تنطق بحرف ، ثم غادرت الفراش ، ودلفت الى التواليت ، ووقفت بين مراياه متحيرة مبهوته . وعاد النقر فى قوة ملموسة فهتفت : « من ؟ » . وجاءها صوته العميق وهو يقول : « صباح الخير .. هلا فتحت الباب ؟ » ونظرت الى المرآة فرأت شعرها متشعثا ، وعينيها محمرتين ، وجفنيها ثقيلين ... رباه ... أليس ثمة ماء تغسل به وجهها ؟! الا ينتظر حتى تتهيأ لاستقباله ؟!. وعاد ينقر الباب جزعا ، ولكنها لم

تلق اليه بالا ، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها فى الدراسة أول مرة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زينتها ، وهى اليوم اشد قلقا بلا ريب !. ورات زجاجات الروائح العطرية ، منضودة على التواليت ، ولكنها كانت تراها لأول مرة فى حياتها ، فلم تهتد الى وجه الانتفاع بها فى مأزقها ، ثم تناولت مشطا عاجيا وسوت شعرها فى عجلة ولهوجة ، ومسحت بطرف فستانها وجهها ، والقت على المرآة نظرة أخرى ، وتنهدت فى قلق وغيظ . ثم اخذت المفتاح وسارت نحو الباب ، وكأنما ضاقت باشفاقها ، فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب . التقيا وجها لوجه وقد ابتسم اليها ابتسامة لطيفة وقال برقة بالغة :

— صباح النور يا تيتى !. لماذا أهملتنى كل هذا الوقت !. اتريدين مواصلة النهار بالليل بعيدا عنى ؟!

فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة ؛ ولكنه تأثرها والابتسامة لا تفارق شفتيه ، ثم سألها :

— لماذا لا تتكلمين يا تيتى ؟ !

تيتى !! اسم تدليل هذا يا ترى ؟. ولكن أمها كانت تدعوها « حمدمد » اذا ارادت أن تدللها ، فما تيتى هذا ؟.. ورمقته بنظرة انكار وغمغمت :

— تيتى !.

فقال وهو يتناول راحتيها بين يديه ويشبعهما تقبيلا :

— هـذا اسمك الجديد ، فاحفظيه عن ظهر قلب ، وانسى حميدة فلم يعد لها وجود !.. ليس الاسم يا محبوبتى بالشىء التافه لا يقام له وزن ، وهو بالحرى كل شىء ، وما الدنيا — لو تعلمين — الا أسماء ...

وعلمت انه يعـد اسمها — كثيابها البالية — شيئا ينبغى

انتزاعه وايداعه مقابر النسيان ، ولم تر فى ذلك من بأس ، فلا يجوز أن تنـادى فى شريف باشا بما كانت تنادى به فى المدق ، وفضلا عن هذا فهى تشعر شعورا عميقا لا يخلو من وسواس وقلق ، بأن أسباب الماضى قد انقطعت الى الأبد ، فلماذا تبقى على اسمها ؟ . . بل ليتهـا تستطيع أن تسـتبدل بيديها يدين جديدتين جميلتين كيديه هو ، وأن تستعيض عن صوتها — الذى تستغلظ نبراته العالية حتى الفظاظة والقبح — صوتا رقيقـا رخيما — لكن ما باله اختار هذا الاسم الغريب ؟! ولم تملك أن قالت باستنكار :

— هذا اسم غريب ، لا معنى له .

فقال ضاحكا :

— اسم جميل ، ومن جماله ألا معنى له . فالاسم الذى لا معنى له يحوى المعانى كلها ، بل هو من الأسماء الأثرية التى تسحر الباب الانجليز والأمريكان ، ويسهل النطق به على ألسنتهم المعوجة .

فجالت فى عينيها نظرة حيرى ، تشى بالارتياب وتتحفز للعناد والانقضاض ، فابتسم برقة واستدرك يقول :

— تيتى العزيزة . . رويدك ، ستعلمين كل شىء فى حينه . الم تعلمى بانك ستصـيرين غدا سيدة باهرة الجمال بعيـدة الصيت ؟. هذه معجزة هذا البيت . ام حسبت أن السماء تمطر ذهبا وماسا ؟. كلا يا عزيزتى ، ان السماء فى أيامنا لا تمطر الا شـظايا . والآن خذى أهبتك لاستقبال الخياطة . ولكن معذرة : لقد ذكرت امرا هاما . ذكرت انه ينبغى ان اصحبك لزيارة مدرستى — انا ناظر يا محبوبتى ولست قوادا كما دعوتنى بالأمس — فالتحفى بهذا الروب وانتعلى هذا الشبشب .

وذهب الى التواليت فأتى بزجاجة زرقاء كروية يتصل بفم معدنى فيها أنبوبة من المطاط الأحمر ، وسدد فوهتها نحو وجهها

وجعل يضغط على الأنبوبة فيمج فى صفحة وجهها سائلا زكى الشذا ، وقد ارتعشت بادىء الأمر شاهقة ، ثم استنامت الى طيبها فى دهشة وارتياح ، والبسها الروب بنفسه ، وجاءها بشبشبه فانتعلته ؛ ثم تابط ذراعها ومضى بها الى الحجرة الاخرى ، ثم الى الردهة الخارجية ، وسارا معا متجهين صوب اول باب الى اليمين وهو يقول لها محذرا :

ــ اياك وان تبدى خجلة او خائفة .. انى اعلم انك جسورة لا تهابين شيئا ...

وأثابها تحذيره الى رشادها ، فحدجته بنظرة حادة ، ورفعت رأسها فى استهانة ، فابتسم قائلا :

ــ هذا أول فصل فى المدرسة .. فصل الرقص العربى .

وفتح الباب ودخلا . رات حجرة متوسطة ، جميلة البناء ، ذات ارضية خشبية لامعة ، تكاد تخلو من الأثاث اللهم الا عددا من المقاعد نضدت فى جناحها الأيسر ، ومشجبا كبيرا فى ركنها الأقصى ، وقد جلست فتاتان على مقعدين متجاورين ، ووقف فى الوسط فتى فى جلباب ابيض حريرى مهفهف محتزما بزنار ، اتجهت الرءوس نحو القادمين ، وجرت على الثغور بسمات التحية ، فقال فرج ابراهيم بلهجة قوية تنم عن السيادة حقا :

ــ صباح الخير .. هذه صديقتى تيتى ...

وحنت الفتاتان راسيهما تحية ، ثم قال الفتى بصوت متكسر مخنث :

ــ اهلا يا ابلة .

وردت تيتى بالتحية فى شيء من الارتباك وهى تطيل النظر الى الفتى الغريب . كان ــ على غير ما يبدو ــ فى نهاية العقد الثالث ــ وضيع الملامح ، أحول العينين ، يزين وجهه بزواق نسائى من كحل وحمرة وبودرة ، ويلمع شعره الجعد بالفازلين . فابتسم فرج ابراهيم وقال يعرفه لها :

ــ سوسو معلم الرقص ...

وكانما أراد سوسو ان يقدم لها نفسه بطريقته الخاصة ، فأشار الى الفتاتين المتجاورتين غامزا بعينه ، فراحتا تصفقان على « الواحدة » ، وانساب الأستاذ راقصا كالأفعوان ، فى خفة وليونة تثيران الدهشة ؛ حتى خالته جسما بلا عظام ولا مفاصل ، او انه قطعة من مطاط مكهرب . كان كل ما فيه يرتعش بلا توقف . ردفاه .. وسطه .. صدره .. رقبته .. حاجباه . وكان يلقى بنظرة متكسرة متضعضعة . مبتسما ابتسامة فاجرة عن أسنان ذهبية ، ثم اهتز هزة عنيفة ختم بها ارتعاشه الفنى ، واستقام ظهره ، فكفت الفتاتان عن التوقيع ، لم يكن فى نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب ان يحيى القادمة المستجدة تحية راقصة على سبيل المثال . والتفت نحو فرج ابراهيم متسائلا :

ــ تلميذة جديدة ؟.

فالتفت هذا بدوره الى تيتى وقال :

ــ اظن هذا .

ــ الم ترقص فيما سلف ؟

ــ كلا ..

فابتسم سوسو مسرورا وقال :

ــ هذا افضل يا سى فرج . اذا كانت تجهل الرقص فهى عجينة طرية اصورها كيفما أشاء ، أما أولئك اللاتى يتعلمن الرقص على غير أصوله فما أشق تعليمهن .

ونظر الى تيتى ، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت فاضح :

ــ أم تحسبين الرقص لعبا يا ابلتى ؟!. العفو يا حبيبتى . هذا فن الفنون ، وأستاذه له الجنة ونعيمها بغير حساب جزاء ما يتجشم من عناء أو مشقة .. انظرى .

وارعش خصره بغتة فى سرعة عجيبة ، ثم امسك وهو يرمقها بعجب وتيه ، وسألها باستعطاف :

ــ هلا انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك ؟

ولكن فرج عاجله قائلا :

ــ ليس الآن . . ليس الآن .

بمط سوسو بوزه متاسفا وسألها :

ــ اتخجلين منى يا تيتى .. أنا اختك سوسو !.. ألم يعجبك رقصى ؟.

وكانت تدافع جاهدة شعورا بالضيق والارتباك ، وتحاول فى اصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة بل راضية ، فابتسمت وقالت :

ــ رقصك بديع جدا يا سوسو .

فصفق سوسو بيديه حبورا وقال :

ــ دمت من فتاة كريمة . الحياة فانية يا تيتى ، واجمل ما فيها كلمة حلوة . وهل دام شىء لانسان ؟.. الواحد منا يشترى حق الفازلين ولا يدرى أيكون لشعره أو لشعر ورثته !

***

وغادرا الحجرة ــ أو الفصل ــ الى الردهة ــ فمضى بها الى الحجرة التى تليها ، وشعر بعينيها تلحظانه ولكنه تجاهلهما عن حكمة حتى بلغا الباب فغمغم قائلا :

ــ فصل الرقص الغربى .

فتبعته صامتة . كانت تعلم أن النكوص قد بات مستحيلا ، وان الماضى قد عفاه الحاضر ، فلم تر بدا من الاستسلام للمقادير ، وتساءلت : هل تبلغ حقا السعادة المنشودة ؟. وجدت هذه الحجرة فى بنائها وصورتها كسابقتها الا أنها حجرة حية متحركة

صاخبة ، كان الحاكي يبعث لحنا غريبا تلقته اذنها فى دهشة وارتكاز ، وكان قوم يرقصون أزواجا ، قوام كل زوج فتاتان ، وقد انتحى شاب انيق البزة جانبا وهو يراقبهن بعناية ، ويوليهن بلاحظاته ، وتبادل الرجلان التحية ، وواصل الراقصات رقصهن وهن يتفحصن حميدة بنظرات ثاقبة ناقدة ، ودارت عيناها بالرقص والراقصات فعجبت لثيابهن البديعة وزينتهن البارعة ، وسرعان ما تناست هواجسها ، واستولى عليها انفعال عارم ، فعانت شعورا مؤلما بالضعة ، ثم استفزها احساس حاد بالحماس والتوثب ، ولاحت منها التفاتة الى رجلها فوجدته محافظا على هدوئه ورزانته ، تلوح فى عينيه نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوة . والتفت نحوها فجاة كأنما جذبته عيناها ، فانبسطت أساريره ، ومال نحوها قليلا متسائلا :

— أيعجبك ما ترين ؟.

فقالت ببساطة وهى تقاوم انفعالها :

— جدا ..

— أى الرقصين تفضلين ؟

فابتسمت ولم تجب ، ولبثا قليلا صامتين ، ثم غادرا الحجرة ، واتجها نحو باب ثالث وقد تجلى الاهتمام فى وجهها ، وما كاد يدفع الباب حتى حملقت فى دهشة وذهول ، رات فى وسط الحجرة امرأة عارية منتصبة القامة ، وظلت ثوانى لا تحول بصرها عنها فلم تر شيئا سواها . ومن العجب أن المرأة العارية بقيت بموقفها كأنها لم تشعر بقدمهما ، وجعلت تنظر اليهما فى هدوء واستهتار وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تحييهما أو تحييه هو بالأحرى ، وعند ذاك قرعت أذنيها أصوات ، فتلفتت يمنة ويسرة وادركت أن الحجرة معمورة بالآدميين ، رات الى يسار الداخل صفا من المقاعد مشغولا نصفها بفتيات حسان

انصاف عرايا أو على وشك التعرى !.. ورأت على كثب من المراة العارية رجلا فى بدلة انيقة قابضا بيمناه على مؤشر قد ركز سنانه على مقدم حذائه ، ولاحظ فرج ابراهيم دهشتها ، فرغب ان يسرى عنها ، فقال لها :

— هذا الفصل لتعليم مبادىء اللغة الانجليزية !.

فحدجته بنظرة انكار كأنها تقول له : « لا أفهم شيئا » ، فاشار لها بالتمهل ثم وجه خطابه للرجل القابض على المؤشر وقال :

— استمر فى دروسك يا أستاذ ...

فقال الرجل بصوت يدل على الطاعة :

— هذه حصة تسميع .

ورفع المؤشر بخفة ولمس بسنانه شعر العارية ، فنطقت المراة بلفظ غريب «هير» ، فأنزله الى جبينها فهتفت «فرنت» ، وانتقل الى الحاجب فالعين ثم الفم ، وشرق وغرب ، وصعد وصوب ، وهى تجيب على أسئلته الصامتة بكلمات غريبة ، لم تسمعها حميدة من قبل ، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجا ، وتساءلت : كيف تبدو هذه المراة عارية حيال هذا الجمع ، وكيف ينظر فرج الى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة !.. وغلى دمها والتهب خداها ، وألقت عليه نظرة سريعة فرأته يهز رأسه راضيا عن التلميذة الذكية ، ويتمتم : « برافو ... برافو ... » ثم خاطب الرجل قائلا :

— أرنى شيئا من الغزل ...

فنحى الرجل المؤشر جانبا ، واقبل على المراة مخاطبا فى لهجة انجليزية وعاطته المراة قولا بقول ، فتراطنا دقائق بلا تلعثم أو تردد ، حتى صاح فرج ابراهيم :

— عظيم .. عظيم .. والأخريات ؟.

وأشار الى الفتيات الجالسات ، فقال الاستاذ :

— فى طريق التحسن !.. وانى اقول لهن دائما ان الكلام لا يحصـــل بالحفـظ ، ولكنه يكتسب بالتجـربة . فالحانات والبنسيونات هى دور العلم الحقيقية ، وما هذا الدرس الا تثبيت للمعلومات المهوشة ...

فقال فرج ينظر الى فتاته :

— صدقت .. صدقت ..

وحياه بايماءة من راسه ، وتأبط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان معا ، وقطعا الردهة الطويلة مرة اخرى صوب حجرتهما . كان وجهها جامدا ، وفمها مطبقا ، وعيناها تنمان عن الشرود والحيرة ، وكانت تتلمس سببا للانفجار ، لا لهدف ترمى اليه ، ولكن للترويح عن صـــدرها الهائج المضطرب . ولازم الرجـــل الصمت حتى حواهما المخدع ؛ ثم قال بلطف :

— يسرنى انى اطلعتك على مدرستى ، وانك فتشت فصولها بنفسك . ربما تراءت لك ذات برنامج عسير شاق ؛ ولكنك رأيت بعينيك تلميذاتها البارعات ، وجميعهن بغير استثناء دونك ذكاء وجمالا ..

فرمقته بنظرة عناد وتحد وسألته ببرود :

— أتريدنى على ان افعل مثلهن .. ؟

فابتسم فى رقة ، وقال بمكر ودهاء :

— لا سلطان لأحد عليك ، ولا راد لقضائك ، وانت وحدك صاحبة الأمر والنهى ، ولكن واجبى ان أوضح لك المعالم ، والخيرة لك . والحق أنه لمن حسن الحظ انى وجدت رفيقا لبيبا تكفيه الاشارة ، قد حباه الله جمالا وهمة وبهاء ، فاذا سعيت الى استثارة حماسك اليوم فعسى أن تسعى أنت غدا الى استثارتى . انى أعرفك حق المعرفة ، واقرا قلبك كصفحة مبسوطة ، وها انا

اقول لك عن عقيدة ويقين : انك ستقبلين على تعلم الرقص والانجليزية ، واتقان كل شىء فى أقصر فترة من الزمن . ولقد اتبعت معك سبيل الصراحة من بادىء الأمر وتجنبت الكذب والخداع ، لانى أحببتك حبا صادقا ، ولانى أيقنت من أول لحظة بانك لا تغلبين ولا تخدعين ؛ فافعلى ما تشائين يا محبوبتى . جربى الرقص أو انبذيه ، استهترى أو عفى ، ابقى أو عودى ، فلا قبل لى بك على جميع الأحوال ..

ولم يذهب خطابه سدى ، فقد سرى عنها ؛ وخف توتر اعصابها ، واقترب منها ، واخذ راحتها بين يديه ، وضغط عليها بحنو وهو يقول :

ــ انت أسعد حظ جادت به الحياة على ... ما أفتنك ... ما أجملك ...

وحدق فى عينيها بامعان وافتتان . ورفع يديها ــ وهما مضمومتان ــ الى فمه وراح يقبل أطراف أناملها زوجا زوجا ، وهى مستسلمة ليديه ، تجد لكل لثمة من شفتيه تكهربا فى اعصابها ، حتى تندت عيناها برقة وهيام . وند عنها نفس حار شبه تنهدة ؛ فأحاطها بذراعيه وضمها الى صدره رويدا حتى شعر بمس ثديها لقلبه ، ثدى بكر ناهد يكاد لصلابته ينغرس فى صدره ؛ وراح يمسح على ظهرها براحتيه صعودا وهبوطا ، ووجهها مدفون فى صدره ، ثم همس : « فمك » فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفتاها قليلا ، فطبع شفتيه على شفتيها فى قبلة طويلة جدا ، فاطبقت جفنيها كأنما اخذتها سنة من نعاس . وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع ، وسار بها متمهلا نحو الفراش ، وقد هز ساقيها المطلقتين هزة أطاحت بالشبشب ، ثم أنامها ، ولبث مائلا عليها معتمدا على راحتيه ، منعما النظر فى وجهها المورد . وفتحت عينيها فالتقتا بعينيه ،

فابتسم اليهـــا ابتسامة رقيقة ولكنها ظلت ترنو اليه بنظرة ساجية . وكان فى الحق متمالكا لاعصـابه برغم تظاهره بعكس ذلك ، وكان فكره انشط من قلبه ، وكان قد اجمع رأيه على خطة لا يحيد عنها ، فاستوى واقفا وهو يغالب ابتسامة ماكرة ، وقال بلهجة من ينزع نفسه عن هواها :

ــ مهلا ، مهلا .. ان الضابط الامريكى يدفع خمسين جنيها عن طيب خاطر ثمنا للعذراء ! .

التفتت اليه داهشة ، وسرعان ما غابت عن عينيها النظرة الفاترة ، وحلت محلها نظرة صارمة قاسـية قادحة ، ونهضت جالسة فى الفراش ، ثم انزلقت الى الأرض بسرعة فائقة فانتصبت حياله كالحية الهائجة ، وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خده بقوة وقسوة تجاوبت اركان الحجرة رنينها ، ولبث ثوانى جامدا ثم تمدد جانب فمه الأيسر فى ابتسامة هازئة ، وبسرعة تفوق الفكر رفع كفه ولطمها على خدها الايمن بقـوة متناهية ، ثم رفع يسراه ــ قبل أن تفيق من اللطمة الأولى ــ وصك بها خدها الأيسر بشدة بالغة ! . اصفر وجهها ، وسرت ارتعاشة فى شفتيها ، وانتفض جسمها انتفاضة حيوانية ، فارتمت على صدره ، وانشبت أناملها المتقبضة فى عنقه ، وتلقى الرجل هذه الهجمة بسكينة ، ولم يحاول مداقعتها ، بل احاطها بذراعيه وشد عليها حتى كاد يهرسها . ومضت اصابعها تلين ، ثم ارتدت عن عنقه ، وتحسست منكبيه وعلقت بهما ، ورفعت اليه وجها قانيا وثغرا مرتعشا مشوقا ...

- ٢٧ -

نشر الظلام رواقه على الزقاق واطبق على جنباته سكون عميق ، حتى قهوة كرشة اغلقت أبوابها وتفرق سمارها . وفي هذا الهزيع من الليل مرق من باب الفرن شبح زيطة ، صانع العاهات ، ينطلق الى تجواله الليلى . قطع الرجل أرض الزقاق الى الصنادقية ، وهرع الى اليسار متجها صوب الحسين ؛ فكاد يصطدم بشبح قادم فى منتصف الطريق ، وما لبث أن تنور وجهه على ضوء النجوم الشاحب فهتف به :

ـ الدكتور البوشى ؟. من أين انت قادم ؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة :

ـ كنت ماضيا اليك . . .

ـ أعندك طلاب عاهات ؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس :

ـ عندى ما هو أهم ، لقد توفى عم عبد الحميد الطالبى !

فاضاءت عينا زيطة فى العتمة وسأله باهتمام :

ـ متى توفى ؟ . . هل دفن ؟

ـ دفن مساء اليوم .

ـ اعرفت مقبرته ؟

ـ فيما بين باب النصر وطريق الجبل .

وتأبط زيطة ذراعه وسار به فى الطريق الذى كان آخذا فيه وهو يسأل مستوثقا :

ـ ألا يمكن أن تضل الطريق فى الظلام ؟

ـ كلا . . . كنت فى أثناء سير الجنازة منتبها يقظا نحفظت علامات الطريق ؛ وفضلا عن هذا فهو طريق معروف لكلينا ، وطالما قطعناه معا فى الظلام الدامس . .

ـ وادواتك ؟
ـ فى مكان حريز امام الجامع ...
ـ وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة ؟
ـ عند المدخل حجرة مسقوفة ولكن القبر فى فناء مكشوف .

فسأله بلهجة لم تخل من تهكم :
ـ أكنت تعرف المرحوم ؟
ـ معرفة بسيطة . كان بائع دقيق فى المبيضة .
ـ أطقم كامل أم بضع اسنان فقط ؟ ..
ـ طقم كامل ..
ـ الا تخشى ان يكون اهله قد انتزعوا الطقم من فمه قبل دفنه ؟
ـ كلا . ان أهل البلد أهل تقوى ، هيهات أن يفعلوا ذلك ..

فقال زيطة وهو يهز راسه أسفا :..
ـ مضى زمن والناس يودعون القبر حلى موتاهم .
فتنهد الدكتور قائلا :
ـ اين منا ذلك الزمن !

وبلغا الجمالية فى ظلمة حالكة وصمت مخيم ، ومرا فى طريقهما بشرطيين ثم اخذا يقتربان من باب النصر ، واستخرج زيطة من جيبه نصف سيجارة واشعلها وراح يدخن بشغف ، وقد فزع الدكتور بوشى من ضوء عود الثقاب وقال لصاحبه بنرفزة :
ـ بئس ما اخترت هذا الوقت للتدخين ...
ولكن زيطة لم يأبه ومضى يقول وكأنه يخاطب نفسه :
ـ لا فائدة ترجى من الأحياء ، وقليل من الموتى ذو نفع ..!
ومرقا معا من باب النصر ، ومالا الى اليمين يقطعان طريقا ضيقا تحف به المقابر من الناحيتين ، ويرين عليه صمت رهيب وكآبة شاملة . وقال زيطة عند نهاية الثلث الأول من الطريق :

«هاك المسجد» فتلفت بوشي فيما حوله ؛ وتنصت قليلا فى حذر ، ثم اقترب من الجامع متحاميا احداث اى صوت . وتحسس الأرض لصق جداره فيما يلى مدخله حتى عثر بحجر كبير ، ثم أزاحه عن موضعه بيديه . واستخرج من نقرة تحته فأسا صغيرة ولفافة تحوى شمعة ، وعاد الى صاحبه . فاستطردا فى مسيرهما وهو يقول همسا : « تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراوى بخمس مقابر » . وجدا فى السير وعينا الدكتور تتطلعان الى المقابر على يسار الطريق ، وقلبه يدق بعنف ؛ ثم تثاقل بغتة وهو يهمس : « هذه المقبرة » . ولكنه لم يقف ، بل حث صاحبه على السير وهو يقول :

ـ سور المقبرة المطل على هذا الطريق عال ، والطريق نفسه غير مامون ، فالأفضل أن ندور حول المقابر من ناحية الصحراء ، ثم نتسور المقبرة من ناحيتها الخلفية حيث يوجد القبر فى الفضاء المكشوف ...

ولم يبد زيطة اعتراضا ، فتقدما فى صمت حتى انتهيا الى طريق الصحراء ، واقترح زيطة أن يجلسا على الطوار قليلا ريثما يراقبان الطريق ، وجلسا جنبا لجنب ؛ وراحا يراقبان المكان بأربع اعين . كان الظلام شاملا ، والمكان مقفرا ؛ وفيما وراءهما تنتشر القبور فتشغل مساحة من الأرض ، لا يحيط بها البصر ، ومع أن هذه المخاطرة لم تكن الأولى من نوعها الا أن الدكتور بوشى لم يستطع ان يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقات قلبه المضطرم ، فلبث يحملق فى الظلماء ؛ فؤاده خافق ، وريقه جاف ، وأعصابه متوترة ، فى حين جلس زيطة جامدا ، رابط الجأش ، لا يبالى شيئا ، ولما اطمأن الى خلو الطريق قال للدكتور :

ـ دع الأدوات واسبقنى الى سور المقبرة الخلفى ، وانتظرنى هنالك .

ونهض الدكتور على كره ، وتسلل بين القبور مائلا نحو الأسوار الخلفية للمقابر ، وسار لصق الجدار متلمسا طريقه فى ظلام دامس ليس به من بارقة نور الا ما تشعه النجوم ، وجعل يعد الأسوار حتى بلغ خامسها ، والقى على ما حوله نظرة لص ، ثم جلس القرفصاء . لم تعثر عيناه بشىء يريبه ولم يبلغ اذنه حس ، ولكن القلق لم يزايله ، واشتد جزعه . وبعد قليل رأى شبح زيطة على مدى اذرع منه . فنهض فى حذر ، وعاين الرجل السور ثم قال همسا :

— تقوس حتى اصعد على ظهرك .

وتقوس الدكتور معتمدا راحتيه على ركبتيه . ورقى الرجل ظهره ، وتحسس الجدار حتى قبض على حافته ، ثم تسور بمهارة وخفة ، ورمى بالفاس ولفافة الشمعة الى داخل الفناء ، ثم مد يده الى الدكتور حتى التقت بيده ، واعانه على تسلق الحائط حتى تسنمه ، وهويا معا ، ووقفا عند أصل السور يستريحان ، والتقط زيطة فى أثناء ذلك الفاس واللفافة ، وكانت اعينهما قد اعتادت الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت ، فرأيا الفناء فى شىء من الوضوح ، وقبرين متجاورين ينهضان على كثب من موقفهما ، وفى نهاية الفناء يقوم الباب المطل على الطريق الذى جاءا منه ، وعلى جانبيه حجرتان . وسأل زيطة وهو يومىء الى القبرين :

— أيهما ؟

فاجابه بصوت يكاد ينحبس فى حلقه :

— على يمينك . .

ودنا زيطة من القبر بلا تردد ، يتبعه بوشى مرتجف الأوصال ، وحنى قامته متحسسا ارض المنزل فوجدها طرية ندية ما تزال ، فأعمل فيها فاسه بحذر وهوادة ، مكوما الثرى بين رجليه المنفرجتين ، وثابر على العمل الذى لم يكن جديدا بالنسبة اليه

حتى كشف عن السلالم التى تسقف منزل القبر ، وشمر طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه ، واقبل على طرف السلمة الأولى ، ورفعها شادا على عضلاته حتى انتصبت قائمة . واخذ ينيمها بمعونة البوشي حتى طرحها أرضا .. وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية . واكتفى بالثغرة التى فتحها حيث يمكن أن ينزلق منها هو وصاحبه ، ومضى اليها ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور مغمغما : « اتبعنى » ، فتبعه منقبض الصدر ، مقشعر البدن ، وكان الدكتور يجلس — فى مثل هذا الظرف — على الدرجات الوسطى ، ويشعل الشمعة يثبتها فى الدرجة السفلى ، ثم يغمض عينيه ويدفنهما بين ركبتيه ، وكان يدخل القبور على كره ، وطالما ناشد زيطة الرحمة أن يعفيه من دخول القبر ؛ ولكن الآخر ابى أن يؤدى له هذه الخدمة الا اذا شارك فى جميع خطواتها ، مستلذا فى أعماقه تعذيبه . وقد اشتعلت ذبالة الشمعة فاضاءت القبر ، والقى زيطة نظرة متحجرة على الجثث المدرجة فى اكفانها مطروحة فى تتابع وتواز حتى غيابات القبر ، ويرمز نظامها الى تسلسل التاريخ واطراد الزمن ، ينطق صمتها الرهيب بالفناء الأبدى ، ولكنها لم ترجع فى صدر زيطة اى صدى ، فسرعان ما استرد نظرته المتحجرة وثبتها على الكفن الجديد عند بدء القبر ، وجلس القرفصاء . ثم كشف عن رأس الجثة بيدين باردتين ، وحسر الشفتين وعالج باصابعه الطقم حتى انتزعه ، وأودعه جيبه وقد تلوثت انامله . ثم غطى الراس كما كان ، وتحول عن الجثة الى الباب ، فراى الدكتور دافنا راسه بين ركبتيه والشمعة فى أسفل الدرج تزهر ، فرماه بنظرة ساخرة وغمغم فى ازدراء : « اصح ! » . فرفع الدكتور راسه مرتعدا ، ومال نحو الشمعة فتناولها ونفخها فأطفأها ، ورقى السلم فى عجلة كأنه يفر ، ورقى زيطة الدرج كذلك ، ولكنه قبل أن يبرز من الثغرة صكت اذنيه صرخة داوية ،

وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء : «فى عرضكم !» . تسمرت قدماه ، ثم تراجع نازلا الادراج وهو لا يدرى ما يفعل وقد أثلجت اطرافه ، وما زال يتراجع حتى داس كعبه الجثة ، فتقدم خطوة ووقف متسمرا لا يجد مهربا ، وخطر له ان يرقد بين الجثث ، ولكنه قبل أن يأتى حركة واحدة غمره نور وهاج اغلق جفنيه قسرا ، وسمع صوتا شديدا يصيح به فى لهجة صعيدية :

— اصعد ، والا اطلقت عليك النار . . .

وطوقه اليأس فاستسلم . ورقى الدرج كما امر ، وقد نسى الطقم الذهبى فى جيبه .

***

ولم يتناه الى الزقاق نبأ القبض على الدكتور بوشى وزيطة فى مقبرة الطالبى الا عند عصر اليوم التالى . وفشا الخبر وعرفت أسبابه ، وتناقله القوم فى دهشـــة وانزعاج . وما ان علمت به الست سنية عفيفى حتى استحوذ عليها الفزع وولولت صارخة ، وانتزعت طقمها الذهبى ورمت به ، واخذت تلطم خديها فى حالة عصبية شديدة ، ثم سقطت مغمى عليها . وكان زوجها فى الحمام . فلما ان قرع اذنيه صراخها اخـذه الرعب فارتدى جلبابه على جسده المبلول ، وهرع اليها لا يلوى على شىء .

— ٢٨ —

كان عم كامل جالسا على كرسيه على عتبة الدكان ، مائلا رأسه على صدره ، غارقا فى النعاس ، والمنشة فى حجره . ثم استيقظ على دبيب شيء على صلعته فتحركت يده حركة آلية ليطرد ما ظنه حشرة ، ولكنها وقعت على كف آدمية ، فقبض عليها ساخطا . وتأوه متذمرا ، ورفع رأسه ليرى ذاك المداعب الثقيل الذى أيقظه من نعاسه اللذيذ ، فوقعت عيناه على عباس الحلو . . لم يكد يصدق عينيه . فحملق فيه مشدوها ، ثم اشتد احمرار وجهه المنفوخ فرحا ، وهم بالنهوض ، ولكن الشاب لم يمكنه من ذلك ، واحتضنه بذراعيه فتعانقا عناقا حارا ، والحلو يهتف به متأثرا :

— كيف حالك يا عم كامل ؟

فيجيبه الرجل فى لهفة وسرور :

— كيف أنت يا عبس . . . أهلا وسهلا ومرحبا . . . لشد ما أوحشتنى يا عكروت ! .

ووقف الحلو بين يديه مبتسما ، والآخر يتطلع اليه بعينين شيقتين . وكان يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا ، وقد حسر رأسه ورجل شعره فبدا أنيقا حسن المنظر موفور الصحة مورد الوجه ، فرمقه عم كامل باعجاب وقال بصوته الرفيع :

— ما شاء الله ! انت رائع يا جونى ! .

فضحك عباس الحلو ضحكة رنانة صاعدة من قلب جذل وقال :

— ثانك يو .. لن يرطن الشيخ درويش بالانجليزية وحده بعد اليوم !.

واجال الشاب عينيه فى الزقاق المحبوب ، فوقعتا على دكانه القديم ، ورأى صاحبه الجديد مكبا على حلق ذقن زبون ، فرنا الى الدكان رنوة حنان وتحية ، ثم طار بصره الى النافذة فوجدها مغلقة كما كانت حين قدومه ، فتساءل : ترى اهى فى الدار أم فى الخارج ؟ ، وما عسى أن تفعل اذا فتحت الباب فوجدته أنه الطارق ؟. سوف تحملق فى وجهه بدهشة وذهول ، فيملأ عينيه من حسنها الباهر !. هذا يوم اغر من الأيام المعدودة فى العمر . وانتبه الى صوت عم كامل وهو يقول متسائلا :

— اتركت عملك ؟.

— كلا ، ولكنى اخذت اجازة قصيرة .

— ألم تدر بما حصل لصاحبك حسين كرشة ؟ هجر أباه ، وتزوج ، ثم استغنوا عنه فعاد الى بيته يجر وراءه زوجه وشقيقها .

فلاح الأسف فى وجه الحلو وقال :

— يا لسوء الحظ ..! انهم يستغنون عن العمال كثيرا فى هذه الايام ، وكيف استقبله المعلم كرشة ؟

فمط عم كامل بوزه وقال :

— لا يفتأ شاكيا متبرما ، أما الفتى وأهله فيقيمون فى الدار .

وسكت الرجل نصف دقيقة ثم قال متعجلا كأنما ذكر أمرا هاما :

— اما علمت بأن الدكتور بوشى وزيطة مسجونان ؟!

ثم قص عليه كيف قبض عليهما فى قبر الطالبى متلبسين بجريمة سرقة طقمه الذهبى ، وقد وجم الحلو وجوما شديدا ، ولم يكن يستبعد أن يرتكب زيطة اشنع الجرائم ، ولكنه عجب

للدكتور بوشى كيف سولت له نفســه اقتراف هــذه الجريمة النكراء !.. وذكر كيف طلب اليه ان يركب له طقما حين عودته من التل الكبير ، فالتوت شفتاه امتعاضا وتقززا .

واستدرك عم كامل يقول :

— وقد تزوجت الست سنية عفيفى ..

وكاد يقول له «العقبى لك» ولكنه امسك فجأة وقد دق قلبه بعنف !. ذكر عند ذاك حميدة !.. ولكم ذكر هذا الموقف فيما تلا ذلك من أيام متعجبا من نسيان ما كان ينبغى أن يذكره لأول وهلة !. ولكن الحلو لم ينتبه لتغيره ، وسرعان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلا :

— أستودعك الله الى حين ..

واشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهوجة:

— أين تقصد ؟

فقال الحلو وهو يهم بالمسير :

— الى القهوة أسلم على من بقى من الصحاب ..

فاتكأ عم كامل على ركبتيه وقام جاهدا ، وتبعه متبخترا . وكان الوقت عصرا فلم يجدا بالقهوة من أصحابهما الا المعلم كرشة والشيخ درويش ، فسلم عباس على المعلم الذى لاقاه بترحيب ، وشد على يد الشيخ درويش ، فرمقه الشيخ بنظرة باسمة من وراء نظارته ولم ينبس بكلمة . وكان عم كامل يعــانى انقباضا ثقيلا ، وحزنا مريرا ، ولا يدرى كيف يفاتحه بالنبأ الأليم ، فقال له برجاء :

— هلا عدت معى الى الدكان قليلا ..؟

ووقف عباس مترددا بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة التى انتظرها جزعا بضعة أشهر ، ولكن لم يهن عليه عم كامل ، ولم يجد بأسا فى المكث معه فترة قصيرة من الوقت ، فرجع معه الى

دكانه مداريا برمه بابتسامة لطيفة ، وجلسا فى الداخل جنبا لجنب ، وهو يقول مسرورا :

ـ الحياة فى التل الكبير حياة عظيمة ، عمل متواصل . وربح موفور . انى لا ابعثر نقودى قلنعا بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الزقاق ، حتى الحشيش لم اذقه الا مرات معدودات مع أنه هنالك كالماء والهواء . وقد ابتعت هذا .. انظر يا عم كامل العقبى لك ..

واستخرج من جيب بنطلونه علبة صغيرة وفتحها ، فبان بداخلها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق ، ثم استطرد وعيناه البارزتان تلمعان بسرور :

ـ شبكة حميدة . اما علمت ؟!. سأكتب الكتاب فى اجازتى هذه ..

وتوقع أن يقول الرجل شيئا ، ولكن عم كامل لاذ بصمت ثقيل وغض بصره كأنه يخفيه ، فنظر اليه الشاب باهتمام ، ولأول مرة رأى ما ينطق به وجهه من وجوم واكفهرار . ولم يكن عم كامل من الذين يفلحون فى اخفاء ما يعتمل فى انفسهم ، فلاح باطنه عاريا فى وجهه ، وسرعان ما قطب الحلو وساوره القلق ، فاغلق العلبة وأعادها الى جيبه . وانعم فى صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له قلبه ، واشفق على قلبه الجذل الحبور أن تطفىء جذوته خيبة لا يدريها ولا يتوقعها . اشفق من ذلك اشفاقا اليما موجعا ، ولكن نذر الكدر تخايلت لعينيه فى وجه الرجل المرتبك الواجم ، ولم يستطع مع جموده صبرا ، فسأله بارتياب :

ـ مالك يا عم كامل ؟.. لست كعهدى بك . ما الذى غيرك ؟. لماذا لا تنظر الى ؟!

فرفع الرجل وجهه اليه ببطء ، وطالعه بعينين مظلمتين محزونتين ، وفتح فمه ليتكلم . ولكن لسانه خانه فلم يطاوعه ،

وبلغ الجزع بعباس مداه ، وتنبأ قلبه بالفاجعة ، فشعر بالقنوط يطفىء أضواء فرحه ، ويخمد أنفاس أمله ، فهتف بحزم قائلا :

— ماذا وراءك يا عم كامل ؟ ما الذى تريد أن تقوله ؟. عندك ما تقوله بلا ريب ، بل فى ضميرك أشياء وأشياء ، فلا تقتلنى بترددك . حميدة ؟!... أى والله حميدة !.. قل ما تشاء . لا تعذبنى بسكوتك . هات ما عندك دفعة واحدة .

فازدرد الرجل ريقه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— ليست موجودة !. لم تعد هنا . اختفت . لا يدرى أحد عنها شيئا .

أنصت اليه بذهول وفزع ، ونقشت الكلمات فى وعيه كلمة كلمة ، ولكن غشى فهمه ضباب وغبار ، وكأنما انتقل فجأة الى دنيا المحمومين ، فقال بصوت متهدج :

— لست أفهم شيئا . ماذا قلت !. لم تعد هنا . اختفت ؟!. ماذا تعنى ؟ .

فقال عم كامل بأسى :

— شد حيلك يا عباس . يعلم الله أنى حزين أسيف ، وانى حملت همك من أول الأمر ، ولكن ما باليد حيلة ، اختفت حميدة ، ولم يدر أحد عنها شيئا . خرجت يوما كعادتها كل عصر ولكنها لم تعد . فتشوا عنها فى مظانها جميعا دون جدوى . بلغنا قسم الجمالية ، وبحثنا عنها فى قصر العينى ، ولكن لم نعثر لها على أثر .

لاح فى وجهه سهوم ، ولبث حينا جامدا صامتا ، لا يتكلم ولا يتحرك ولا يطرف . لا مذهب ولا مهرب . ألم يتنبأ قلبه بالفاجعة ؟. بلى . وها هو يصدقه . يا عجبا .. ماذا يقول الرجل ؟.. اختفت حميدة ؟. وهل يختفى البشر كما تختفى

ابرة أو قطعة من النقود ؟!. لو انه قال ماتت او تزوجت لأمكن أن يجد لمضطربه مدى او نهاية ، فالياس على اية حال اروح من الشك والحيرة والعذاب ، ولكن ماعسى أن يفعل الآن ؟! بات اليأس نعمة لا يطمع فيها بحال ، وخرج من جموده فجأة ، فاستعرت نفسه هياجا وارتعشت أطرافه ، وحدج الرجل بعينين محمرتين وصاح به :

— اختفت حميدة !.. وماذا فعلتم ؟.. بلغتم قسم الجمالية وبحثتم فى قصر العينى ؟.. جزاكم الله كل خير ، ثم ماذا ؟.. عدتم الى أعمالكم كان شيئا لم يكن !.. يا لطف الله !.. انتهى كل شيء ، فرجعت انت الى دكانك ، وراحت أمها تطرق ابواب العرائس ، وانتهت حميدة ، وانتهيت أنا أيضا ، ماذا تقول يا رجل ؟ خبرنى عما تعلم ؟ ماذا تعرف عن أمر اختفائها ؟.. كيف اختفت ؟ ومتى وقع ذلك ؟!

استحوذ الاضطراب على عم كامل لما بدر من صاحبه من حدة وغضب ، وقال بصوته الحزين :

— مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بنى ، كان حادثا مروعا مفزعا ارتجت له القلوب . والله يعلم أننا لم نال جهدا فى البحث والاستفسار ، ولكن ما باليد حيلة !

فضرب عباس كفا على كف ، وقد احتقن الدم بوجهه ، وازدادت عيناه جحوظا ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— زهاء شهرين !.. رباه .. هذا تاريخ قديم . لا أمل فى العثور عليها . ماتت ؟.. غرقت ؟.. خطفت ؟.. من لى بأن أدرى ؟.. خبرنى بما يقول الناس ؟

فقال عم كامل وهو يرمقه بحزن وحنان :

— ظنوا ظنونا كثيرة ، ثم رجحوا انها ذهبت ضحية لحادث ، أما الآن فلا يذكرون شيئا ..

فهتف الشاب متأوها :

ــ طبعا .. طبعا ؛ فلا هى ابنة لأحد منهم ، ولا قريبة احد ، حتى أمها ليست بأمها ، ترى ماذا حدث لها . كنت فى هذين الشهرين أسعد الناس احلاما . ارايت كيف يحلم انسان بالسعادة اذ الشقاء يترقب يقظته ساخرا هازئا طاويا مصيره بيديه القاسيتين ؟! . ولعلى كنت انعم بلذيذ السمر بينما كانت تنهرس تحت عجلة ، أو تتخبط فى قعر النيل .. شهران يا حميدة !.. لا حول ولا قوة الا بالله .

ونهض قائما ضاربا الأرض بقدمه ، ثم قال بامتعاض :

ــ أستودعك الله .

فسأله بلهفة :

ــ علام نويت ؟

فقال بفتور :

ــ سأقابل أمها ..

وذكر وهو يدلف من باب الدكان متثاقلا كيف جاء وهو يكاد يطير من جلده فرحا ، وكيف يذهب محطما مهيضا ، فعض على شفته ، وتسمرت قدماه وقد بلغ منه الأسى منتهاه ، وتحول نحو صاحبه فرآه ينظر اليه بعينين مغرورقتين بالدمع ، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعى ، وارتمى على صدره فى قنوط ، ونشج منتحبا باكيا كالأطفال ..

***

الم يداخله شك فى حقيقة اختفائها ؟.. ألم يساوره ما يساور المحبين من ارتياب وسوء ظن فى مثل حالته ؟ الحق ان طيف شك قد لاح بخاطره ولكنه لم يلق اليه بالا فتبدد . كان بطبعه شديد الثقة ، يجود بالظن الحسن بغير حساب ،كان طيب القلب جدا ،

ومن هذه القلة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم الى اقامة المعاذير لغيرهم ، واختيار أخف التأويلات لأفظع الفعال . ولم يغير الحب من طبعه هذا ، بل لعله رسخه وقواه ، فلم تظفر منه وسوسة الغيرة وهمهمة الشك باذن مرهفة . وقد احب حميدة حبا شديدا باركته فطرته الطيبة بثقة وطمأنينة ، وآمن — الى هذا كله — بأن فتاته اكمل فتاة فى هذه الدنيا التى لم ير منها شيئا يذكر ، فلم يداخله شك فيها ، أو ان طيف الشك الذى لاح له لم يجد فى قلبه مرتعا يعبث فيه . وقد ذهب لمقابلة أمها ذلك اليوم . ولكنها لم ترو له غلة ، وأعادت عليه ما قصه عم كامل بصوت مختنق بالعبرات . وزعمت له ان الفتاة كانت لا تفتأ تتذكر وتترقب عودته بصبر فارغ ، فضاعفت بكذبها أحزانه ، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد ، مبلبل الفكر ، معذب النفس ، وغادر الزقاق تسوقه قدماه الثقيلتان ، وقد زعفر الأصيل هامة النهار ، تلك الساعة التى اعتاد — فى الأيام الخوالى — ان يرى فيها مطلعها المحبوب اذا خرجت لنزهتها اليومية ، وقطع الطريق ذاهلا عما حوله . فتمثلت لعينيه بجسمها الملفوف فى الملاءة السوداء ، وعينيها النجلاوين المحبوبتين . وهفت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على السطح . فتنهد من الأعماق . ونفخ محزونا قانطا : ترى أين هى الآن ؟.. ماذا تصنع ؟ وماذا صنع الله بها ؟.. اتعيش على ظهر الأرض أم ترقد فى قبر من قبور الصدقة ؟.. رباه . كيف تحجر قلبه طوال ذلك العهد فلا استشف ريبة ولا شام نذيرا !.. كيف استنام الى طمأنينة الأحلام ولذة المنى فاكب على العمل غافلا عما يخبئه له الغد ؟!. وايقظه الزحام من ذهوله فتنبه الى الطريق ، هذا الموسكى طريقها المختار بأناسه ودكاكينه . كل شيء فيه باق على حاله ، الا هى . اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس ، والمت به رغبة فى البكاء ، ولكنه لم يستسلم لها هذه المرة . لقد اراحه

البكاء على صدر عم كامل ، وارخى توتر أعصابه ، وتركه لحزن عميق هادىء ، فيجدر به الآن أن يتساءل عما هو فاعل ، أيدور على الأقسام وقصر العيني .. ولكن ما جدوى ذلك ؟، أيدوخ شوارع القاهرة مناديا باسمها ؟. أيطرق أبواب البيوت بابا بابا ؟. لله ما أعجزه وما أعجز حيلته . اذن هل يعود الى التل الكبير متناسيا وراء ظهره ؟، ولكن لماذا يعود ؟ لماذا يصر على تحميل نفسه آلام الغربة ؟. لماذا يكد ويكدح ويجمع النقود ؟. الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل تحته ، غاضت فى قلبه مشاعرها جميعا الا فتورا يزهق الأنفاس وخمودا يقتل الاحساس ، وهو الى هذه الحالة المضنية التى تبدو فيها الحياة فراغا كئيبا يحدق به سد هائل من القنوط . كان يعيش على الفطرة لا يدرى شيئا عما وراءها ، مخلصا لقوانين الحياة الأولية ، فوجد فى الحب جوهر حياته وخلودها ، فلما أن فقده فقد الأسباب التى تصله بالحياة ، وتردى مزعزعا كذرة هائمة فى الفضاء . ولولا أن الحياة — التى تجرع غصص الآلام — تتفنن فى اغراء بنيها بالتعلق بها حتى فى احلك أوقاتها ، لختم عمره وقضى ، ولكنه مضى فى سبيله حائرا قد ضل هدفه ، بل شعر فى تلك اللحظة أنه ضله الى الأبد . بيد أنه ما زال معلقا بخيط دقيق يدق على وعيه ، ولمح فى عرض الطريق بنات المشغل العائدات فما يدرى الا وهو يتجه نحوهن ويعترض سبيلهن فوقفن دهشات وقد تذكرنه فى غير مشقة ، وقال لهن بلا أدنى تردد :

— مساء الخير يا بنات ، لا تؤاخذننى . ألا تذكرن صاحبتكن حميدة ؟

فقالت احداهن :

— نذكرها جميعا !.. ونذكر كيف اختفت فجأة فلم نرها منذ ذلك اليوم !

فسأل بصوت ينطق بالأسى :

— الا تدرين شيئا عن اختفائها ؟

فقالت اخرى ، وقد لاحت في عينيها نظرة ماكرة :

— لا ندرى شيئا على وجه اليقين . الا ما قلته لأمها حين جاءتنى يوم اختفائها تسأل عنها ، من اننا رأيناها مرات بصحبة أفندى يسيران معا فى الموسكى .

وحملق فى وجه محدثته بذهول وقد ارتعش جانب فيه ، وسألها :

— ارأيتها بصحبة افندى ..؟!

ونال منظره من الفتيات فاختفت من اعينهن نظرات خبيثة ساخرة ، وتكلفن الرزانة ، وقالت محدثته برقة :

— نعم يا سيدى .

— واخبرت امها بذلك ؟

— نعم ..

وشكرهن بكلمة ، وسار فى طريقه ، ولم يداخله شك فى انهن سيجعلن منه حديثهن بقية الطريق ، ولعلهن يضحكن كثيرا من الفتى المغفل الذى هاجر الى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبوبته ، فآثرت عليه آخر وفرت معه . يا له من مغفل حقا !. ولعل اهل حيه جميعا قد لغطوا بغفلته ، وقد رحمه عم كامل فاخفى عنه الحقيقة ، كما اخفتها ام حميدة ، وهل كان بوسعهما أن يفعلا غير ما فعلا ؟، وخاطب نفسه ولما يفق من ذهوله قائلا : « هذا ما حدثنى به قلبى لأول وهلة » . ولم يكن صادقا فى قوله ؛ لأن الشك لم يلم به الا المامة خفيفة ، ولكنه لم يعد يذكر فى محنته غير هذه الالمامة الخفيفة من الشك ، بيد انه تأوه فى اللحظة التالية وتساءل يبسط اصابعه ويقبضها فى حركات تشنجية : « رباه كيف اعقل هذا !. اهربت حميدة حقا مع رجل ؟!. من يصدق

ضرخةغضب فى رداء ضحكة : ليته يستطيع أن يشنقها بسلسلة هذا العقد الذهبية ! وذكر كيف وقف فى دكان الصائغ يقلب عينيه بين الحلى وقلبه يكاد يقفز من صدره جذلا وسرورا . وهفت الذكرى على قلبه كالنسيم الوانى الا انهـا التقت بوهج تلب مضطرم فانقلب النسيم حرورا ..

— ٢٩ —

ما أن وقع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتى شد الخواجا الجالس قبالته على يده وقال له :

ـ مبارك عليك يا سليم بك .. هذه ثروة طائلة .

وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يمضى فى سبيله حتى توارى وراء باب الوكالة . صفقة رابحة . وبحسبه انه تخلص من مخزون الشاى الذى اشتراه الخواجة جملة ، فربح الشىء الكثير وامن شر المخاوف ، خصوصا وان صحته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء . بيد انه قال لنفسه ساخطا متبرما : « ثروة طائلة ولكنها ملعونة ، لقد حلت اللعنة بكل شىء فى دنياى » . والحق انه لم يبق من السيد القديم الا شبح هزيل ، وكانت أعصابه اشد ما يضنيه ، وكأنها تعهدت بالقضاء عليه ، فسامته تفكيرا متواصلا فى الموت حتى صار الموت شغله الشاغل . ولم يكن الرجل فى الأصل بالضعيف الايمان ولا كان بالرعديد الجبان ، ولكن تهافت أعصابه أنساه آداب الايمان وألوى بشجاعته . وما انفك يفكر فى ساعة الاحتضار — وقد ذاق بعض مرارتها فى ابان مرضه — ويستذكر ذكرياته عنها عمن حضرهم الموت من اقاربه ، ذاك الرقاد المستسلم الأليم ، وصعود الصدر وهبوطه ، وهذه الحشرجة

المتقطعة ، واظلام المقلتين ، وبين هذا وذاك تنتزع الحياة من الأعماق والأطراف ، وتودع الروح الجسد . أفيقع كل هذا فى يسر ؟! ان الانسان ليجن اذا انتزع ظفره ، فكيف يكون اذا انتزعت روحه وحياته ؟! . ولا يدرى الا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم ، فما نستطيع أن نلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة ، أما صداها فى الروح ورجعها فى الجسد ، فسر الميت الذى ينطوى عليه صدره ، ويقبر معه فى جدثه ، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا فى افظع حالاتها وابشعها . ولو أنه أتيح لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم انسان بساعة صفو واحدة فى الحياة ، ولمات الناس ذعرا قبل أن تدركهم النهاية . وطالما تمنى أن يسلكه الله فى زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكتة القلبية . ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء ، انهم ليموتون وهم يتكلمون أو يأكلون ، أو حين يقومون أو يقعدون ، وكأنهم يمكرون بالاحتضار فيتحينون منه غفلة ثم ينسلون خفية الى باب الأبدية !.. ولكنه فى شبه يأس من هذه الميتة السعيدة ، وقد ضرب له أبوه — وجده من قبل — مثل الميتة التى يشعر قلبه المتهافت الفزع بأنها ستجرى عليه ، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان . من كان يصدق أن السيد سليم علوان — الرجل القوى السعيد — سيمسى فريسة لهذه الأفكار والمخاوف ؟ .. هكذا كان ، ولم يكن الاحتضار بفزعه الوحيد ، فقد انجذبت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها ، فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته ! وصور له خياله وثقافته المتوارثة عن الأجيال ، أن بعض شعوره سيلازمه بعد الموت ، أليس الأحياء يقولون : أن عينى الميت تريان من يحدقون به من الأهل ؟.. فحتم أن يرى الموت جهرة ، وأن يشعر بالنهاية الأبدية وهى تشتمله ، وأن تتصل حواسه بظلمة القبر ووحشته وغربته

وهياكله وعظامه واكفانه ، بل بضيقه واختناقه ، وما يحتمل أن يتردد فى النفس من اشواق وحنين وحب للدنيا واهلها !.. تمثل ذلك كله بصدر منقبض وقلب متشنج واطراف باردة وجبين يتفصد عرقا ، ولم ينس ما وراء ذلك من بعث ونشور وحساب وعذاب ، أواه .. ما ابعد الشقة بين الموت والجنة !..

ولذلك تعلق باهداب الحياة بقوة الخوف واليأس ، على رغم انها حياة عاطلة من اسباب النعيم ، فلم تترك له دورا يلعبه فى مسرحها الا المراجعة وعقد الصفقات . وداب عقب نقاهته على استشارة طبيبه ، فاكد له الطبيب شفاءه من الذبحة وآثارها ، ولكنه نصحه بالحذر والحرص والاعتدال . وشكا اليه عدة مرات ما يعانى من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة اخصائى فى الأعصاب . ومن ثم مضى يتردد بين الاخصائيين فى الأعصاب والقلب والصدر والراس ، وتفتح له باب المرض عن عالم لا يقل عن عالمنا اتساع رقعة وازدحاما بالسكان من الجراثيم والأعراض الخفية . ومن عجب انه لم يكن يؤمن بالطب والأطباء ، ولكنه آمن بهما فى اضطرابه ، ولعل ايمانه هذا كان من بين أعراض المرض الذى الم باعصابه !..

وفى هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته ، وفى اوقات عمله ، واويقات السلام التى تصفو فيها نفسه وتنقى من نمش الهواجس ، كان كانه يتفرغ لافساد علاقاته بالمحيطين به من البشر ، فهو اما فى حرب مع نفسه ، واما فى حرب مع الناس ، وادرك عمال الوكالة من بادىء الأمر أن سيدهم قد استحال شخصا شاذا ملعونا ، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرت ربع قرن من حياته ، وبقى من بقى من العمال على مضض وتوجس واستكراه . وقال عنه اهل الزقاق انه بين العقل والجنون ، وقالت حسنية الفرانة بشماتة لم تحاول اخفاءها :

« انها صينية الفريك والعياذ بالله » . ويوما قال له عم كامل عن قصد حسن ونية سليمة :

— هلا أمرتنى يا سى السيد أن أصنع لك صينية بسبوسة مخصوصة ترد عليك ثوب العافية باذن الله ؟ ولكن السيد غضب غضبا شديدا وانفجر صائحا فيه :

— اليك عنى أيها الغراب ، أجننت يا أعمى القلب والبصيرة !. ان أمثالك فقط من البهائم تبقى لهم معدهم سليمة حتى القب ..

ولم يعد بعدها عم كامل الى التعرض له بخير أو بشر .

اما زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه ، ولم يفتأ يلقى على حسدها المزعوم له تبعة ما حصل له فى جسمه وعقله ، وكان ينتهرها قائلا :

— لشد ما نقمت على صحتى وعافيتى ، حتى تحطمت بين يديك ، فهنيئا لك الراحة يا أفعى ..

واشتد به سوء الظن ، حتى ارتاب يوما أن يكون نما اليها عزمه على الزواج من حميدة ؛ لأن أمثال هذه الأمور تتصدى لها أعين كثيرة فتراها فى خفية من صاحبها ، وتتطوع ألسنة كثيرة لاذاعتها وايصالها لصاحب الشأن ، ولم يستبعد عند ذاك أن تكون المراة قد انتقمت منه بأن عملت له « عملا » هو الذى أودى بصحته وعقله ؟.. ولم يكن فى حالة تسمح له بأن يزن ما يعرض له من فكر بميزان العقل ، ولا أن يسبرها بمسبار الحكمة ، فسرعان ما انقلبت الريبة يقينا ، فتميز غيظا ، وامتلأ حنقا ، وتوثب للانتقام : اشتط فى معاملتها ، وداب على سبها ونهرها ، ولكنها قابلت قسوته بالامتثال والصبر والأدب ، فلم يجده شططه ، ولبث يتحرق الى اثارتها ، واخراجها من التعوذ بالصمت والصبر الى الأخذ بأسباب التشكى والتذمر وذرف الدموع ، فقال لها مرة بجفاء وازدراء :

— لقد مللت عشرتك . ولا اخفى عنك أنى شارع فى الزواج ، سوف اجرب حظى مرة اخرى .. وصدمته المراة . فتصدع بنيان رزانتها المتماسك ، وفزعت الى ابنائها فباحت لهم بما تلقاه على يديه من سوء القول والفعل ، وهالهم الأمر ، ودهمهم الخطب ، فايقنوا ان اباهم ينزلق الى مهوى وخيم العواقب : وزاروه يوما واقترحوا عليه — ابقاء على صحته — ان يصفى تجارته ويفرغ للراحة والعناية بنفسه . وفطن الرجـل الى ما يساورهم من خوف غير جديد عليه . فغضب غضبة هائجة ، وعنفهم بفظاظة لا عهد لهم بها ، وخاطبهم بحدة قائلا :

— حياتى ملك لى أصرفها كيفما اشاء ، وسابقى عاملا ما راق لى العمل فاعفونى من نصحكم المغرض .

وضحك متهكما ثم استدرك وهو يقلب فى وجوههم عينيه الذابلتين :

— الم تحدثكم امكم عما اعتزمت من الزواج مرة اخرى ؟.. هو الحق . لقد شرعت أمكم فى نتلى ، فساوى الى كنف امراة جديدة على شىء من الرحمة . واذا تضاعف عددكم بهذا الزواج فثروتى كفيلة باشباع أطماعكم جميعا ..

وانذرهم بانه سيقبض يده عنهم . وان على كل منهم ان يعتمد فى حياته على موارده الخاصة . وقال بسخط وغضب :

— انى كما ترون لا اكاد اذوق غير مر الدواء ، فلا يصح ان يتمتع الآخرون بمالى .

قال كبيرهم :

— كيف تخاطبنا بهذه اللهجة المرة ونحن ابناؤك البررة ؟

فقال السيد ساخرا :

— بل ابناء أمكم .

ونفذ وعيده فلم يعد يحمل شىء من طرفه الى بيوت ابنائه ،

وحزم معلبخ سراياه من الانواع الفاخرة التى اشتهر بها ، والتى حرمت عليه هو بعد مرضه ، ليشاركه الجميع — خصوصا زوجه — فيما فرض عليه . ولهج بحديث الزواج المزعوم حين وجده السهم النافذ الذى تحطمت دونه ما تدرع به زوجه من صبر واناة . وتشاور ابناؤه فيما بينهم ، وقد ألفاهم الخطب قلبا واحدا فى التوجع لابيهم ، والاخلاص له فى محنته ، وقال كبيرهم :

— نتركه وشانه حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .

بيد أن المحامى قال بشىء من الحزم مستدركا :

— اللهم الا اذا شرع فى الزواج حقا ، فأشد ما نتخذه من احتياط أهون من ان نتركه هملا بين أيدى الطامعين ..

***

وكان اختفاء حميدة حدثا فظيعا فى حياته ، ومع انه لم يعد الى ذكرها — منذ مرضه — فتخلفت عن تيار شعوره ، الا أن خبر اختفائها اثار اهتمامه وجزعه ، فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها ، ولما تناهى اليه ما تهامس به اللاغطون من انها فرت مع رجل مجهول ، انزعج انزعاجا شديدا ، وثار غضبه ذلك اليوم فلم يجرؤ احد على الدنو منه ، فرجع مع المغيب الى بيته مهدم الأعصاب ، واصابه صداع شديد أرقه حتى مطلع الفجر . وحنق على الفتاة الهاربة حنقا كبيرا ، وتآكل قلبه حقدا وغضبا ، وتمنى أن يراها يوما متدلية من مشنقة ، مندلقة اللسان ، جاحظة العينين ، ولما علم بعودة عباس الحلو من التل الكبير سكن روعه لغير ما سبب واضح ، ودفعته رغبة لا تقاوم الى استدعاء الشاب ، وقربه ، ولاطفه فى الحديث وساءله عن احوال معيشته ، متجنبا ذكر الفتاة ، فسر الشاب بعطفه ، وشكر له حدبه ، وأقبل على الحديث فى استفاضة من استنام الى لطفه ، والسيد يسترق اليه النظر

من عينيه الغائرتين . وفى الأيام الأولى التى أعقبت فرار حميدة وقع حادث — ربما كان فى ذاته تافها — ولكنه مما يؤرخ به فى زقاق المدق . كان السيد سليم علوان منجها نحو الوكالة فى ضحوة النهار فالتقى بالشيخ درويش ذاهبا لبعض شانه ؛ وكان السيد — فى عهده الأول — من محبى الشيخ درويش ، وكثيرا ما تعهده بالبر والاحسان والهدايا ، ولكنه اغفله فى مرضه وأهمله وكانه لم يعد يشعر له بوجود ، ولما التقيا على كثب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش وكانه يخاطب نفسه :

— اختفت حميدة .

فبهت السيد . وظنه يعنيه بقوله ؛ فما تمالك أن صاح به :

— مالى أنا ولهذا !

ولكن الشيخ درويش واصل خطابه قائلا :

— ولم تختف فحسب ؛ ولكنها هربت . ولم تهرب فحسب ولكنها هربت مع رجل ؛ ويسمون ذلك فى الانجليزية Elobement وتهجيتها . . e ، وقبل أن يتم الرجل تهجية الكلمة انفجر السيد صارخا :

— انه ليوم شؤم اذ اصبحت على وجهك يامجنون ؛ اغرب عن وجهى عليك لعنة الله . .

وجمد الشيخ فى مكانه كانه تسمر فى الأرض ، ولاحت فى عينيه نظرة طفل مذعور اذا لوح له شخص بعصا مهددا ، ثم اعول باكيا ، ومضى السيد لطيته ، ولبث الشيخ درويش بموقفه باكيا ؛ وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ ، حتى أهاب نواحه بالمعلم كرشة وعم كامل والحلاق العجوز فهرعوا اليه متسائلين ، وقادوه الى القهوة ، واجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكنون روعه ، وطلب له المعلم كرشة قدحا من الماء ؛ وربت عم كامل على كتفه قائلا بتوجع :

— وحد الله يا شيخ درويش ، اللهم اكفنا السوء .. بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب .. اللهم لطفك .

ولكن الشيخ ازداد بكاء وعويلا ، فاضطربت انفاسه ، وارتجفت أوصاله ، واطبقت شفتاه فى توتر وتشنج ، وراح يشد ربطة رقبته بعنف ، ويضرب الأرض بقبقابه ، وفتحت نوافذ الدور وأطلت الرءوس فى دهشة وانزعاج ، وجاءت حسنية الفرانة ، وشق النحيب طريقه الى مسمعى السيد سليم علوان فى الوكالة ، فانصت اليه غاضبا حانقا ، وظل ينصت اليه هائجا ، وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل ؟.. وعبثا حاول أن يغيب بانتباهه عنه ، فكأنه كان يلح فى مطاردته والتضييق عليه ، حتى خيل اليه أن الدنيا جميعا تبكى وتنوح . وسكت غضبه وسكن هياجه ، ولكن ما طفق البكاء يرعش أوتار قلبه فترن فى اشفاق وألم . ليته شكم غضبه ولم ينتهر الشيخ الولى !.. ليته لم يصادفه فى طريقه !. وما كان ضره لو أغضى عنه ومر به مر الكرام !. وتأوه نادما ، ومضى يقول : ان الانسان فى مثل حالته من المرض حرى بأن يزدلف الى الله لا ان يغضب وليا من أوليائه ، وطوى كبرياءه ، ونهض قائما ، وغادر الوكالة متوجها الى قهوة كرشة ، وقصد الى الشيخ الباكى غير عابىء بالأنظار التى سددت نحوه فى دهشة ، ووضع يده على منكبه برفق ، وقال بلهجة تنم عن الاعتذار والأسف :

— ياشيخ درويش .. سامحنى .

٣٠

كان عباس الحلو يجلس مختبئا بنفسه فى شقة عم كامل حين دق الباب بعنف ، فنهض اليه وفتحه فراى حسين كرشة مرتديا القميص والبنطلون ، تبرق عيناه الصغيرتان كعادته ، ثم بادره قائلا :

ــ كيف لم تقابلنى وهذا ثانى يوم لك فى المدق !.. كيف حالك ؟ فمد له الحلو يده مبتسما ابتسامة باهتة وقال :

ــ كيف انت يا حسين !.. لا تؤاخذنى فمتعب أخاك ، لا ناس ولا مهمل ، هلم نسر معا .

وخرجا معا ، وكان عباس الحلو قد قضى ليلته مسهدا ، وقطع النهار متفكرا ، فسار مصدع الراس ، منغل الجفون ، ولم يكد يبقى من ثورة الأمس اثر ، سكت الغضب الجنونى ، وبرد الهياج الحامى ، وتلاشت خواطر الانتقام الدموى ، على حين رسب فى قرارة نفسه حزن عميق ويأس مدلهم ، وبمعنى آخر تخلصت نفسه مما لا تطيقه من الوان الانفعال ، مسلمة بكليتها للحزن واليأس ، وقال له حسين متسائلا :

ــ اما علمت بانى كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة ؟

ــ حقا !..

ــ وتزوجت ، وأخذت باسباب حياة رائعة ..

فقال الحلو وهو يدسب صوته شيئا من الاهتمام الذى لا يجده :

ــ حمدا لله .. مبارك .. عال .. عال ..

وكانا قد بلغا الغورية ، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بحدة :

- بل زفت وهباب !.. استغنوا عنى فعدت الى الزقاق على رغمى ، وانت هل استغنوا عنك أيضا ؟.

فأجابه الشاب بفتور :

- كلا .. ولكنى منحت اجازة قصيرة .

فأكلت الغيرة قلبه ، وضحك ضحكة باردة ثم قال :

- أنا الذى دفعتك الى العمل دفعا وانت تمانع ، وها انت ذا تنعم على حين اتسكع أنا متعطلا .

وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوى عليه طبيعة صاحبه من غل وشر ، فقال بانكسار :

- نهايتنا قريبة على أية حال ، هذا ما يؤكدونه لنا .

فارتاح حسين قليلا ، ثم استدرك يقول فى صوت أسيف :

- كيف انتهت الحرب بهذه السرعة ؟!. من كان يصدق هذا ؟!.

فهز الحلو رأسه دون أن ينبس بكلمة ، سيان عنده إن تستمر الحرب أو تنتهى ، وان يبقى فى عمله أو يفصل منه ، انه لا يبالى شيئا على الاطلاق . وكاد يضجره حديث صاحبه ، الا انه الفاه اخف من الوحدة والفكر ، ومن ناحية أخرى تحمله - كما اعتاد ان يتحمله - دفعا لشره ، واستطرد حسين قائلا :

- كيف انتهت بهذه السرعة !.. كان الأمل معقودا بهتلر أن يطيلها الى ما لا نهاية ، ولكن انهاها حظنا الأسود .

- صدقت ..

فصاح حسين بشدة :

- نحن تعساء . بلد تعس وأناس تعساء .. أليس من المحزن الا نذوق شيئا من السعادة الا اذا تطاحن العالم كله فى حرب دامية ؟!. فلا يرحمنا فى هذه الدنيا الا الشيطان !.

وامسك قليلا وهما يشقان طريقهما بين سابلة السكة الجديدة ، وقد اخذ ستار الظلام فى الانتشار ، ثم قال متنهدا فى حسرة :

— لشد ما تمنيت ان أكون جنديا محاربا ! . تصور حياة جندى باسل ، يخوض غمار الحرب ، وينتقل من نصر الى نصر ، يركب الطيارات والدبابات ، يهاجم ويقتل ويسبى النساء الفارات ، ويبذل له المال عن سخاء ، فيسكر ويعربد فوق القانون . هذه هى الحياة ، الا تتمنى أن تكون جنديا ؟ .

الحق ان ركبتيه كانتا تتخلخلان اذا سمع صفارة الانذار ، وكان من رواد المخبأ المواظبين ، فكيف يتمنى ان يكون جنديا من المحاربين ؟ بيد أنه تمنى صادقا لو كان خلق جنديا فظا متعطشا للدماء فيسهل عليه الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه فى السعادة والحياة الرغيدة ! . وقال بلهجته الفاترة :

— من لا يتمنى ذلك ؟ !

وانتبه الى الطريق ، فازدحمت برأسه الخواطر ، رباه .. كيف للزمان ان يمحو ذكريات هذا الطريق من صدره ؟ ! ، أن ارضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين ، وان هواءه لا يبرح معبقا بانفاسها المحبوبة ، وكانه يراها رؤية العين وهى تخطر بقوامها المعتدل المشوق ، انى له أن يطمع فى نسيان هذا كله ؟!. وقطب متغيظا على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير أهله ، واطبق فمه فلاح وجهه صارما قاسيا ، وعاودته لفحة من ثورة الأمس ، ينبغى ان ينبذه ، وان يطرح من يخونه ، والا يحرق اضلعه حزنا — ولا حتى غضبا — على من يرقد ناعما بين احضان غريم له . تبا للقلب من صاحب خئون ، دسيسة على الروح والجسم ، يحب من لا يحبهما ، ويحرض على من لا يفرط فيهما ، فيسيم صاحبه الخسف والهوان . واستيقظ عند ذاك على صوت حسين الصاخب وهو يلكزه هاتفا :

ـ حارة اليهود .

ووقف بيده عن السير متسائلا :

ـ الا تعرف حانة فيتا ؟.. ألم تدمن الخمر فى التل الكبير ؟.

فأجابه عباس قائلا باقتضاب :

ـ كلا .

ـ كيف عاشرت الانجليز ولم تشرب الخمر ؟ يا لك من خروف تعس .. الخمر شراب منعش ومفيد للمخ ، تعال ..

وتابط ذراعه ومال به الى حارة اليهود ، وكانت حانة فيتا تقع على بعد يسير من مدخلها : على جانبها الأيسر ، وهى أشبه بدكان ، متوسطة ، مربعة الشكل ، تمتد فى جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخامى ينهض وراءها الخواجا فيتا ، وقد ثبت فى الجدار خلفه رف طويل صفت عليه الزجاجات ، وقامت فى نهايته من الداخل براميل ضخمة ، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان الترمس والأقداح ، ازدحم حولها الشاربون من أهل البلد ، حوذية وعمال وآخرون حفاة ونصف عراة كالشحاذين ان كان الشحاذون يسكرون . وبقى من الحانة غير ذلك موضع اتسع لبعض المناضد الخشبية ، فجلس اليها أعيان السوقة والعاجزون عن الوقوف لكبر أو لسكر شديد ، ورأى حسين مائدة شاغرة فى نهاية الحانة فقاد صاحبه اليها ، وجلسا حولها ، وقلب عباس عينيه فى المكان الصاخب المدوى فى صمت وقلق ، حتى استقرتا على غلام فى الرابعة عشرة قصير مفرط فى البدانة ، مطين الوجه والجلباب ، حافى القدمين . يزحم الشاربين ويكرع من قدح مترع ، ويتمايل رأسه سكرا ، فاتسعت عيناه دهشة ولفت حسين اليه ، ولكن هذا لوى بوزه استهانة وقال بسخرية :

ـ هذا عوكل بائع الجرائد . يبيع الجرائد فى النهار ويسكر فى الليل ، غلام ولكن قل فى الرجال مثله ، أرأيت يا غشيم !

ومال برأسه نحوه قليلا وقال :

ـ كاس النبيذ بقرش ونصف لذة للمتعطلين امثالى . منذ شهر كنت اشرب الويسكى فى بار فنش ولكنها الدنيا القلب ، معلهش يا زهر ! .

وطلب كاسين ، فجاء بهما الخواجا ووضعهما على المائدة ومعهما طبق ترمس ، ونظر عباس الى كاسه بقلق وقال منفقا من لسان صاحبه اشفاقه من الاقدام على التجربة الجديدة :

ـ يقولون انها مؤذية ! .

فقبض حسين على قدحه وهو يقول بسخرية :

ـ تخاف على نفسك لا ! . خلها تقتلك .. فى داهية يا سيدى لا انت فى الزيادة ولا فى النقصان . صحتك .

وقرع كاسه بكاسه ، ثم افرغها فى جوفه بغير مبالاة . ورفع عباس كاسه وكرع منها كرعة ، ثم ابعدها عن فيه متقززا . وقد شعر كأن لسانا من لهب اندلع فى حلقه . فتقبض وجهه وكانه وجه لعبة من المطاط ضغطته اصابع طفل ، وقال متاففا :

ـ فظيع . مر . حامى .

فتضاحك حسين ساخرا . شاعرا بزهو واستعلاء . وقال بازدراء :

ـ تشجع يا طفل ، الحياة امر من هذا الشراب ، واوخم عاقبة ...

ورفع كاسه ووضع حافتها بين شفتيه وهو يقول : « اشرب حتى لا تندلق على قميصك » فتجرعها الآخر حتى الثمالة ، ونفخ متقززا ، ثم احس حرارة فى بطنه ، سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها فى جوفه ، فشغل بالانتباه اليها عن تقززه ، وتتبع اثرها وهو يندفع مع دمه ، ويجرى فى عروقه ، حتى اذا بلغ راسه خفت وطأة الدنيا عليه قليلا ، وقال حسين بسخرية :

ـ اكتف اليوم بكاسين ولا تزد ..

وطلب كأسا أخرى لنفسه وراح يقول :

ــ أقيم الآن عند ابى ومعى زوجى وشقيقها . ولكن نسيبى وجد عملا فى الترسانة وسيفارقنا اليوم أو غدا ، ويقترح أبى على أن اشرف على القهوة نظير ثلاثة جنيهات فى الشهر ، وبمعنى آخر اشتغل من الفجر حتى منتصف الليل بثلاثة جنيهات ! . . ولكن ماذا تقول لحشاش مجنون ؟! . وهكذا ترى أن الدنيا تناصبنى العداء ، وتستفز غضبى ومقتى ، وليس عندى الا جواب واحد : فاما الحياة التى طابت لنا ، واما حرقنا الدنيا ومن عليها . .

فسأله عباس ، وكان آخذ يستشعر راحة وجدها عجيبة لذيذة بالنسبة لما عاناه طوال يومه من هم وفكر :

ــ ألم توفر مالا ؟ . .

فقال حسين بحدة وسخط :

ــ ولا مليما ! كنت اسكن شقة نظيفة بالوايلية ، فيها الكهرباء والماء ، وكان عندى خادم صغيرة تقول لى بكل احترام : « يا سيدى » ، وكنت أرتاد السينما والفرقة القومية . وبحت كثيرا ، وضيعت كثيرا ، وهذه هى الحياة ، ان أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود ؟ بيد أن النقود ينبغى أن تساير العمر حتى نهايته ، والا فالويل لمصر اذا لم تساير النقود الأعمار ، ليس لدى الآن الا قليل من الجنيهات غير حلى زوجى . .

وصفق طالبا كأسا ثالثا ثم قال باشفاق :

ــ والأدهى من ذلك أن زوجى تقيأت فى الاسبوع الماضى . .

فقال عباس متظاهرا بالاهتمام :

ــ لا بأس عليها .

ــ لا بأس ولا زفت ، هذه امارات الحبل كما تقول أمى ، وكأن الجنين غثت نفسه تقززا من الحياة التى تنتظره فأعدى أمه . .

ولم يطق عباس أن يتابعه بالاصغاء لسرعته ولهوجته ، ولم

يعد يهتم بذلك ، وانتابته كآبة فجائية بعد ان نعم ساعة بالراحة ، ولاحظ الآخر شروده وسهومه فقال باستياء :

ـ مالك ؟ .. انك لا تصغى الى ..

فقال عباس بصوت حزين :

ـ اطلب لى كأسا اخرى ..

وحقق حسين مشيئته بسرور ، ورنا اليه بنظر مريب ثم قال :

ـ أنت متكدر وانا اعلم بسبب كدرك ..

فخفق فؤاد الشاب وقال بلهجة :

ـ لا شيء مطلقا ، هات ما عندك انى مصغ اليك ..

ولكنه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار :

ـ حميدة ..

فاشتد وجيب قلبه ، وكأنه تجرع كأسا ثالثة ، فهاج دمه وسرى اليه الوجد والحزن والغضب ، فقال بصوت منهدج :

ـ أجل حميدة ، هربت ، خطفها رجل ، عار وشقاء ! .

ـ لا تحزن كثيرا كالحمقى ، وهل طابت حياة من لم تفر عنهم نساؤهم ؟ !

وتناهى الانفعال بالشاب فقال بغير وعى :

ـ ترى ماذا تفعل الآن ؟ !

فضحك حسين ساخرا واجابه :

ـ تفعل ما عسى أن تفعله اية امراة فرت مع رجل ..

ـ انت تهزأ بالمى .

ـ المك سخيف ، خبرنى متى علمت بفرارها ؟ .. مساء الأمس ! .. كان ينبغى أن تكون نسيتها الآن ..

وهنا أحدث عوكل ـ الغلام الشريب بائع الجرائد ـ حركة لفتت اليه أنظار الجلوس ، وكان قد استوفى شربه ومضى ثملا مترنحا حتى اذا بلغ عتبة الحانة نظر فيما حوله بعينين زائغتين ورأسه يميل الى الوراء فى عظمة وسلطنة وصاح بلسان ملتو :

— انا عوكل شاطر الشطار وسيد الرجال ، اسكر وانبسط ، وها انا ذاهب الى عشيقتى ، فهل لأحد منكم اعتراض ؟ .. اهرام ، مصرى ، البعكوكة ...

واختفى الغلام تاركا وراءه عاصفة من الضحك ، اما حسين كرشة فقد عبس غاضبا ، ولاح الشر فى عينيه ، وبصق بصقة طارت الى الموضع الذى كان به الغلام ، واخذ يسب ويلعن . كانت اقل اثارة من تحد — ولو على سبيل المزاح — كافية لاشعال غضبه واهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه ، ولو كان الغلام بمتناول يده للكمه او ركله أو اخذ بتلابيبه . والتفت الى عباس — وكان يتجرع كاسه الثانية — وقال بحدة وكأنه نسى ما كانا آخذين فيه من اسباب الحديث :

— هذه حياة وليست لعبة خشبية ، يجب أن نعيش ؛ .. الا تفهم ؟

ولم ينتبه عباس اليه ؛ كان يخاطب نفسه قائلا : « لن تعود حميدة ، اختفت من حياتى الى الأبد ، وماذا تجدى عودتها ؟ ، ولكن سأبصق على وجهها اذا التقيت بها يوما ، هذا أشد من القتل . اما ذاك الأفندى فالويل له منى ؛ سأدق عنقه .. » .

واستدرك حسين قائلا :

— هجرت المدق فاعادنى الشيطان اليه ، سأضرم به النار ، هذه خير وسيلة للتحرر منه .

فقال عباس بأسى :

— زقاقنا لطيف ، وما طمعت يوما فى أكثر من حياة طيبة فيه ..

— انك لخروف !. وحلال أن تنحر فى عيد الأضحى . علام تبكى ؟ . انك عامل وفى جيبك نقود ، ولتجمعن غدا بتقتيرك مالا وفيرا فماذا تشكو ؟

فقال عباس بلهجة تشف عن الاستياء :

— انك أكثر منى شكوى ، وعمرك ما حمدت الله ..

فحدجه الشاب بنظرة قاسية اثابته الى رشده وجعلته يستدرك قائلا بلين :

— لا عليك من هذا ، لكم دينكم ولى دين ..

فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة ، وقال وقد أخذت الخمرة تلعب براسه :

— خير لى ان اشتغل خمارا من ان اشتغل مكان أبى فى القهوة ، الربح هنا موفور ، وفضلا عن هذا فالخمر مبذولة للخمار بغير حساب ...

فابتسم عباس ابتسامة فاترة وقد بات أشد حذرا فى مخاطبة صاحبه الديناميتى ، وكان دبيب الخمر يسرى فى أعصابه ، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت خواطره فيه ، وصاح حسين مرة أخرى :

— فكرة رائعة ! .. سأتجنس بالجنسية الانجليزية ، فى بلاد الانجليز الكل سواسية ، لا فرق بين الباشا وابن زبال . فلا يبعد أن يصير ابن القهوجى رئيس وزارة ...

وانبعثت نشوة مباغتة فى دم الحلو فقال بحماس :

— فكرة طيبة ! .. سأتجنس أيضا بالجنسية الانجليزية ..

ولكن حسين لوى شفتيه ازدراء وقال بسخرية :

— مستحيل ، انت خرع ، فالانسب أن تتخذ الجنسية الايطالية ، ومهما يكن من امر فسنسافر على سفينة واحدة ... قم بنا ..

ونهضا واقفين ، وأديا حسابهما ، وغادرا الحانة والحلو يتساءل :

— أين تذهب الآن ؟

- ٣١ -

لعل الساعة الوحيدة التي داومت عليها من حياتها الغابرة هي انطلاقتها الى الخارج عند الأصيل من كل يوم ، ولكنها الآن تطيل الوقوف أمام المرآة المصقولة ؛ أصلها ثابت في الحوض الذهبي وفرعها سامق في سماء الغرفة ، وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها واخذت زينتها ؛ فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت في احضان النضارة ونمت وترعرت في مطارف الجاه والنعيم : على الرأس عمامة بيضاء مرتفعة في تقوس كالخوذة ، عقص تحتها شعرها المدهون العبق ، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من الأصباغ ، بعد تجربة طويلة دلت على ان بشرتها البرنزية افتن للجنود الحلفاء واحب اليهم ، الأشفار مكحلة ، والأهداب مدهونة مفصلة تهدف أطرافها الحريرية الى على ، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر ، هلالان مزججان خطتهما يد ماهرة مكان الحاجبين ، سلسلتان من البلاتين ذواتا نبقتين من اللؤلؤ تتدليان من الأذنين ، غير ساعة ذهبية في معصمها وهلال منغرس في مقدم العمامة ، فستان أبيض يشف أعلاه عن قميص وردي وتنضح حاشيته بسمرة فخذيها ، جورب رمادي من الحرير الخالص لبسته لا لشيء الا غلو ثمنه ، وقد تطاير شذا عبق من تحت ابطيها وراحتيها وعنقها ، فشد ما تغير كل شيء !

***

ولقد اختارت سبيلها من بادىء الأمر بمحض ارادتها ، وبعد تجربة وعناء ، تكشف لها أفقه عن أفراح وضاءة وخيبة مريرة ، فوقفت على قمة الامتحان تردد عينيها بين اليمين والشمال متحيرة متلهفة ...

علمت من اول يوم ما يراد بها . فثارت غاضبة هائجة ، لا لتكسر ارادة عشيقها الحديدية . ولكن استسلاما لداعي عجرفتها واشباعا لغريزتها المتعطشة للعراك . ثم أذعنت بعد ذلك وكانها تذعن بمحض مشيئتها وادركت بوضوح ، وبفضل بلاغة فرج ابراهيم ، انها لكي تتمرغ في التبر ينبغي أن تتمرغ في التراب . فلم تبال شيئا . وفتحت صدرها للحياة الجديدة بحماس وسرور وهمة ، حتى صدق عليها قول عشيقها يوم وصلها بالتاكس الى حيها من انها « عاهرة بالفطرة ! » وتجلت مواهبها فبرعت في فترة قصيرة في أصول الزينة والتبهرج وان سخروا اول الأمر من سوء ذوقها . فكانت سريعة التعليم ، محسنة للتقليد . ولكنها سيئة الاختيار لالوان ثيابها وفي ميلها الى الحلي تبذل ملموس . ولو كان ترك الامر على ما تشتهي وتحب لتبدت وكانها « عاملة » في زواقها الفاقع وحليها التي تكاد تغطي جسمها . وفيما عدا ذلك فقد تعلمت الرقص بنوعيه ، ودلت على مهارة في تعلم المبادىء الجنسية للغة الانجليزية ، ولم يكن النجاح الذي جاءها يجر اذياله بمستغرب فتهافت عليها الجنود وتساقطت عليها اوراق النقود ، وانتظمت في سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظير . وبدا لها انها فازت بكل شيء ، وانها لم تخسر شيئا . فلم تكن في عهدها الأول بالساذجة فتأسى للخدعة التي اطاحت بها . ولم تكن بالفتاة الطيبة فتذهب نفسها حسرات على ما فقد من امل في الحياة الطيبة . ولم تكن بالفاضلة حقا فتبكي على شرفها المثلوم . ولم تشدها الى ذلك الماضي ذكرى حسنة يهفو اليها الفؤاد فانغمرت في حاضرها المحبوب لا تلوي على شيء . وعلى العكس من ذلك كانت غالبية الفتيات اللاتي يضطربن في مضمارها . فمنهن جماعة يتطاحن في قلوبهن الأسى والطمع والشقاء والياس ، ومنهن بائسات يشقين ليقمن أود اسرات جائعات ، ومنهن تعيسات يخفين تحت شفاههن

المصبوغة قلوبا دامية ، ونفوسا حنانة الى الحياة الفاضلة . اما هى فقد طابت بحيانها نفسا ، واذكت عيناها الفاتنتان ضياء الزهو والحرية والرضا والفرح . الم تتحقق أحلامها ؟ بلى والثياب والحلى والذهب والرجال المتهافتون آيات على ذلك ، ناهيك بهذه السطوة السحرية التى دان لها المعجبون . افمن الغريب بعد ذلك ان يلوح المدق كما يلوح السجن للابق الطليق ! ولقد ذكرت يوما كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها : وتساءلت : أكانت تفضل حقا أن تتزوجه ؟. وجاءها الجواب بالنفى بلا تردد . ولو تحقق ذاك الزواج لكانت الآن قابعة فى بيت ، دائبة على القيام بدور الزوجة والخادم والأم وغير ذلك من الواجبات التى تدرى الآن عن تجربة ويقين انها لم تخلق لها ، فلله ما ابرعه وما افطنه وما أبعد نظره ! . ومع ذلك اقول حذار ! . . اياك أن تتصورها امراة شهوانية ، تستحوذ عليها شهوة طاغية ، هى أبعد ما تكون عن ذلك ! والحق ان شذوذها لا يكمن فى قوة شهوتها ، لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتى تستأسرهن الشهوة وتستذلهن فيجدن بكل غال فى سبيل ارضائها : كانت تتلهف بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك ، وكانت ـ حتى بين ذراعى الرجل الذى محضته الحب ـ تتلمس انامل الحب خلل اللكمات والصفعات . وقد باتت شاعرة بهذا الشذوذ فى عواطفها ، أو هذا النقص فى طبيعتها ، وكان ذلك من دواعى تماديها واستهتارها ، بيد انه كان كذلك من أسباب تعلقها بعشيقها ، وعن هذا التعلق نجمت الخيبة المريرة التى منيت بها .

***

كانت تجتر خواطر هذه الخيبة وهى ماثلة أمام المرآة تأخذ زينتها ، ثم طرق اذنيها وقع خطاه ـ ذلك الرجل ـ ورأت صورته فى المرآة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنه لم يكن

ذاك العاشق الولهان . فتحجر بصرها وتشنج قلبهـا . لم يعد الرجل الذى عرفته من قبل . وهذه هى الخيبة المريرة ، ولو طال بها العهد فربما هان الخطب بعض الشىء ، ولكنه دهمها فى نشوة الايام الاولى ، فلم تنعم بحبه خالصا فى لذة وسعادة وحلم وخيال وهنـاء وامل ، الا زهاء عشرة أيام ! ثم غلب المدرب فيـه على العاشق ، ومضى يتكشف رويدا عن التاجر ، ذلك الرجل القاسى الفظ الذى يتجر بالأعراض . والواقع أن قلبه لم يعرف الحب قط ، ولعله من الغريب ان تقوم حياته على هذه العاطفة التى لم تحرك فؤاده ابدا . كانت طريقته اذا أوقع فريسة فى شباكه أن يمثل معها دور العاشق ــ وهو ما اتقنه بطول الممارسة وأسعفته عليه فحولته ــ حتى اذا استنامت اليه تمتع بها فترة قصيرة . ومن ثم يطمئن الى سيطرته عليها بما يبعثه فيها من تعلق به وما يكبلها به من قيود مالية ، ثم بما يتهددها عادة من رقابة القانون !.. فاذا تم له سعيه بدا على حقيقته ، وتمخض العاشق عن تاجر الأعراض . ولقد عزت حميـدة فتور عاطفته الى الجو المشبع بأنفاس النسـاء الذى يعيش فيه ، فانقلبت ولا هم لهـا الا الاستئثار به ، وصار همها هذا شغلها الشاغل الذى نغص عليها صفوها ، فباتت فريسة للحب والغيرة والغضب . واستحوذت عليها هذه المشاعر جميعا وهى تنظر الى صورته التى تطالعها على صفحة المرآة ، فتحجر بصرها وتوثبت ارادتهـا وتوترت اعصابها . أما هو فقال بلهجة سريعة متظاهرا بالعجلة :

ــ انتهيت يا عزيزتى .. ؟

ولكنها لم تعبأ به ، وتعمدت الا تجيبه استكراها لما يبدى من ملاحظات عن « العمل » وتذكرت بحسرة عهدا لم يكن يحدثها الا عن الحب والاعجاب . الآن لا تنفرج شفتاه الا عن العمل او الزبن!. والآن لا تستطيع عنه فكاكا بحكم هذا العمل ، وبطغيان عواطفها نفسها ، وان الغضب ليملأن صـدرها ، ولكن ماذا يجدى هذا

الغضب ؟ ! .. لقد فقدت حريتها التى استباحتك في سبيلها كل منكر ، وانها ليداخلها شعور بالقوة والسيادة ما دامت في الطريق أو الحانة ، حتى اذا رأته أو ذكرته حل محل هذا الشعور الباهر احساس بالأسر والذل .. ولو اطمأنت الى قلبه لهان كل عسير ، فذل الحب فى أعماقه ظفر ، أما والحال غير ذلك فما تدرى الا الجنون مهربا من حيرتها ، وكان فرج ابراهيم يعلم بما يختلج فى صدرها ، ولكنه كان يريدها على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم بالقطيعة المرتقبة ، ولو كانت امرأة أخرى لهان عليه هجرها بغير عناء ، ولكنه آثر أن يجرعها كأس القنوط نقطة نقطة ، واستوصى بالصبر والأناة شهرا طويلا ، حتى بات متأهبا للضربة الحاسمة ، قال بلهجته العارية عن العاطفة :

— هيا يا عزيزتى فالوقت من ذهب .

فصرفت وجهها اليه بعنف وقالت بحدة :

— هلا اقلعت عن هذه العبارات السمجة ؟.

— هلا أقلعت أنت يا عزيزتى عن الاجابات الجافة !

فتهدج صوتها غضبا وهى تقول :

— أهكذا يحلو لك أن تخاطبنى الآن ؟ !

فتظاهر بالملل وقال :

— أوه .. انعود مرة أخرى الى هذا الحديث المجوج ؟ ! « تخاطبنى بهذه اللهجة » . « أنت لا تحبنى » ... « لو كنت تحبنى لما اعتبرتنى مجرد سلعة ! » .. ما جدوى هذا الكلام ؟.. الا اكون عاشقا الا اذا رددت صباح مساء « انا عاشق » ؟.. الا أكون محبا الا اذا بادرتك كلما التقينا « احبك » ؟.. الا يكون حب الا اذا شغلنا بحديث الحب عن عملنا وواجباتنا ؟.. أحب أن يكون عقلك كبيرا كغضبك ، وان تكرسى حياتك — كما أكرس حياتى — لعملنا العظيم ، وان تجعلبه فوق الحب نفسه وفوق كل شىء ..

واصغت اليه بوجه مصفر من الغضب ، هذا كلام بارد فاتر ، هذه مراوغة لا اثر فيها لعاطفة . ولقد ملت مثل هذا الكلام من قبل ، وكادت تألفه مذ آنست منه الفتور ، وانها لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدها متعمدا ، فكان يفحص يديها بعناية ، ويحثها على المزيد من الاهتمام بهمـا قائلا : « اطيلى اظافرك واصبغيها بالمانيكور ... يداك نقطة ضعف فى جمالك ! » ، وقال لها مرة اخرى متشـفيا وقد طال بينهما الجدل : « حذار هـذه نقطة ضعف اخرى ما فطنت لها من قبل ، صوتك يا عزيزتى .. ازعقى اذا شئت من الفم لا من الحنجرة ، فهذا صوت خشن فظ ، ولو اهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع ، ولعله يذكر السامع بالمدق ولو كنت فى عماد الدين ! » .. هكذا تكلم الفاجر !.. لشدما ما آلمها قوله واذل قلبها الفخور ، وظل يصطنع معها المراوغة والملاينة كلما طرقت حديث الحب ، ولكنه بكرور الأيام أسقط من تمثيله حتى هذه الملاينة الكاذبة ، وربما قال لها فى ملل : « الحب لعب ونحن جادون ! » أو قال بغير مبالاة : « هلمى الى العمل .. الحب كلام فارغ » . تبا له ، لشد ما ملأ وعاء خيالها بالذكريات الأليمة ! وقد حدجته بنظرة قاسية وقالت بحدة :

— كلامك هذا لا يجوز على ، لماذا تذكرنى دائما بالعمل ، الاهية عنه انا !! انك لتعلم انى افوق الأخريات وابرع عليهن ، وانك لتربح من كدى أضعاف ما تربح من كثيرات مجتمعات . فاهجر انت هذا الحديث المعاد الممجوج ، وخبرنى صراحة فقد ضقت باللف والدوران ، أما زلت تحبنى ؟ !

وحدثته نفسه بأن يقذفها بالجواب القاطع ! الم يمهد له بما فيه الكفاية ؟. ونشط فكره فى سرعة وقلق وعيناه اللوزيتان لا تتحولان عن وجهها الغاضب ، ولكنه تردد وآثر السلامة ولو الى حين ، فقال يداريها :

— عدنا كما توقعت الى الحديث القديم ...

فانفجرت صارخة :

— أجبني بصراحة : أحسبتني اموت أسى لو حرمتني نعمة حبك ؟.

ليس الوقت مناسبا . لعلها لو جابهته بهذا السؤال على اثر إيابها من الخارج ، أو فى الصباح — حين يتسع الوقت للملاحاة والشجار — لكان أجابها كما يشاء . أما الآن فالجواب الصريح حرى باضاعة ثمرة اليوم هباء ؛ فلذلك ابتسم ابتسامة باردة وقال بهدوء :

— احبك يا عزيزتى ...

افبح بكلمة الحب اذا ندت عن فم مملول ، كالبصقة ! استحوذ عليها القهر ، وشعرت فى قهرها بأنها لا تتأبى عن هوان وان جل لو ضمن ان يعيده الى أحضانها ! .واحست لحظة ان حبه مطلب تهون من أجله الحياة ، ولكنها كانت لحظة عابرة سرعان ما أفاقت من غشيانها ، ثم امتلأ قلبها ضغينة ، فاقتربت منه بخطوات وعيناها تلمعان لمعان الماس الناشب فى عمامتها ، وقالت مصممة على أن تشق طريق التحدى حتى نهايته :

— تحبنى حقا ؟ ! اذن فلنتزوج .

وتطلعت عيناه بالدهشة ، ونظر اليها بين مصدق ومكذب ، ولم تكن تعنى ما قالت ولكنها ارادت سبر أغواره ، فقال لها :

— وهل يغير الزواج من أمرنا شيئا ؟

— أجل . لنتزوج ، ولنهجر هذه الحياة .

ونفد صبره ، وتولدت فى صدره عزمة صادقة : أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة ، وأن يحقق ما جال بخاطره طويلا ولو ضاعت ثمرة الليلة ، وقهقه ضاحكا فى غيظ وسخرية وقال هازئا :

ـ نعم الراى ! ، أحسنت يا عزيزتى ، نتزوج ونعيش كما يعيش الشرفاء . فرج ابراهيم وحرمه وأبناؤهما ليمتد ! ، ولكن خبرينى ما هو الزواج ؟.. لقد انسيته كما انسيت الآداب الشريفة جميعا ، أو دعينى اتذكر قليلا ... زواج ؟ ! .. شيء خطير فيما اذكر يتضمن رجلا وامراة ومأذونا ووثيقة دينية وطقوسا كثيرة .. . متى عرفت هذا كله يا فرج ؟ .. فى الكتاب او فى المدرسة ؟ ! ولكن لا ادرى . اما تزال هذه العادة متبعة ام قد اقلع الناس عنها ! .. خبرينى يا عزيزتى الا يزال الناس يتزوجون ؟

وارتعشت اطرافها غضبا ، وافعم قلبها يأسا وغما . ونظرت اليه فاذا هو مبتسم هازىء سادر فجن جنونها ، وارتمت عليه ناشبة اظافرها فى عنقه ، ولم تفجؤه حركتها المباغتة فتلقاها بسكينة ، وقبض على ساعديها وفرج بينهما ثم تخلص منها والابتسامة الهازئة لا تفارق شفتيه ، فاشتد حنقها وغضبها ، ورفعت يديها بسرعة خاطفة وصفعته بكل ما اوتيت من قوة وعصبية ، فغاضت ابتسامته ولاحت فى عينيه نظرة وعيد وشر ، فردت عليها بنظرة جريئة متحدية ، وانتظرت نشوب العاصفة بجزع وتلهف ، وكادت تنسى اسباب آلامها فى لذة العراك المرتقبة ، ومنتها احلامها الهستيرية بختام سعيد لهذا النضال البهيمي ، ولكنه كان من ناحية اخرى يقدر عواقب الاستسلام للغضب ، ولا يغيب عنه أن دفع العدوان بالعدوان سيوثق الرباط الذى يروم نقضه ، ويزيد من تعلقها به ، فضبط نفسه ، وكبح جماح غضبه ، وصمم على أن يكاشفها بالقطيعة السافرة ، وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع ، فتراجع خطوة ، وانفتل آفلا وهو يقول بهدوء :

ـ هلمى الى العمل يا عزيزتى ...

ولم تكد تصدق عينيها ، والقت على الباب الذى غيبه نظرة ساهمة رنق بها القنوط ، وأدركت بغريزتها سر تقهقره فاستشف قلبها الحقيقة المفجعة ، وتقلقل صدرها برغبة حارة مباغتة فى قتله ، انفجرت فى صدرها بقوة آسرة لا كامنية الضعيف الحاقد ، ولكن رغبة فتاكة شعرت بأنها فى نطاق طاقتها . لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هذا الرجل ، وها هو يتم صنائعه فيكشف عن أخطر هذه الجوانب جميعا ، ولكن أيرضيها حقا أن تبيع الحياة من أجل الفتك به ؟ انها استهانت بكل شىء فى سبيل الحياة ، أما الاستهانة بالحياة نفسها . ؟ ! وانقبض صدرها ، واستحوذ عليها قلق مفعم بالنفور ، وبقيت رغبتها فى الانتقام تتلظى ويندلع لهيبها . ينبغى أن تغادر البيت أولا ، وفى الخارج مهرب من جحيم الفكر ، ومجال للأناة والتدبير ، وسارت متثاقلة صوب الباب ، ثم ذكرت أنها تهجر هذه الحجرة — حجرتهما — لآخر مرة ، فدارت على عقبيها كأنما لتلقى عليها نظرات الوداع . تنزى قلبها فى صدرها فى تلك اللحظة الفاصلة . رباه . . كيف انتهى كل شىء بهذه السرعة ؟! . هذه المرآة كم بدت على صفحتها فرحة مستبشرة ، وهذا السرير الوثير مهد الغرام والأحلام ، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين يديه تصغى الى ارشاداته بين العناق والقبل ، وهذا الخوان يحمل صورتهما معا فى ثياب السهرة !؟ ثم ولت الذكريات ظهرها وفرت من الحجرة . وفى الطريق لفحها الهواء الدافىء فتنسمته فى اعياء ، واخذت فى سبيلها وهى تقول لنفسها : « لن اعدم طريقة للفتك به ! » كم يكون هذا شافيا على شرط الا تدفع حياتها ثمنا له ، لم تخلق الحياة للتضحية ، الحياة فوق كل شىء ، بل فوق الحب نفسه . حقا بات الحب ندبا عميقا فى سويداء قلبها ، ولكنها ليست المرأة التى يفنيها الحب ، بها جرح عميق ، ولكن الجريح يعيش حتى وهو ينزف ، بل يستطيع أن يتمتع بحياة عريضة فيها

الذهب والسرور والسطوة والعراك . هكذا لاقت خيبتها . ورأت عربة فأشارت الى الحوذى ، وركبت ، واستشعرت حاجة ملحة الى مزيد من الراحة والهواء فقالت له :

— الى ميدان الأوبرا اولا . ثم عد الى شارع فؤاد الأول ، واحدة واحدة من فضلك .

وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها الى الوراء ، واضعة رجلا على رجل ، فانحسر الفستان الحريرى عن بطن فخذيها ، واستخرجت من حقيبتها علبة سجائر ، واشعلت سيجارة ، وراحت تدخن بشغف غير عابئة بالأنظار التى تتخاطف ما انجلى من لحمها ...

وغرقت فى خضم الفكر ! هيهات ان يبرأ قلبها من أوجاعه ، ومع ذلك فهيهات ان تسترخى يدها القابضة على حبل الحياة . وتعزت بآمال كثيرة ، ومسرات مرتقبة ، ولكن لم يجر لها فى خاطر انها قد تستجد حبا ينسيها هذا الحب الخائب ، لأنها كانت حاقدة على الحب ، ولأن الانسان اذ يفقد جوهرة الحب اللامعة لا يتصور انه سيسعد بالعثور عليها مرة اخرى . وانتبهت الى الطريق فاذا بالعربة تدور فى محيط الأوبرا ، ولمحت فى دورانها عن بعد ميدان الملكة فريدة ، فطار الخيال بها الى الموسكى والسكة الجديدة والصنادقية والمدق ، ولاحت لعينيها اخلاط اطياف : نساء ورجالا ، وتساءلت : ترى هل يعرفها احد من هؤلاء اذا رآها فى هذا الزى ؟.. أيستطيع احدهم ان يستشف حميدة وراء تيتى ؟!. وماذا تبالى ؟!. لا اب لها ولا أم !.. ونفخت دخان سيجارتها فى استهانة ورمت بالمعقب ، واخذت تتسلى بمشاهدة الطريق حتى رجعت العربة الى شارع شريف ، واتجهت نحو الحانة التى تقصدها ، وفى تلك اللحظة قرع اذنيها صوت كأنما انشق عنه قبر هاتفا « حميدة » ، فالتفتت نحوه وقد تملكها الذعر . فرأت عباس الحلو على بعد ذراع منها لاهثا .

— ٣٢ —

وهتفت وهى لا تدرى :

ـ عباس ! . .

كان الفتى يلهث مبهورا بعد أن ركض شـوطا كبيرا وراء العربة من ميدان الأوبرا ، وقد اندفع لا يلوى على شىء ، يصطدم بالكتل البشرية ، لا يعتاقه ما ناله من دفع ، ولا يثنيه ما لحقه من شتم ولعن ، وكان قبل ذلك يسير متابطا ذراع حسين كرشة ، يتخبطان على غير هدى — عقب مغادرتهما لحانة فيتا — حتى انتهى بهما التخبط الى ميدان الأوبرا ، فالتقى بصر حسين بالعربة التى تحمل حميدة ، ورأى الجالسة داخلها ، فلم يعرفها ، وارعش حاجبيه استحسانا وهو يلفت صاحبه اليها ، ونظر عباس الى العربة المقبلة عليهما فى طوافهما بالميدان ، وعلق بصره بالفتاة الغائبة فى افكارها ولم يستطع أن يسترد عينيه ، جذبهما بقوة سحرية شىء فى الوجه ، وفى القوام ، شىء كالشبه ، أو هو شبه رقيق يحسه القلب قبل أن تحسه العينان ، وتمشت فى مفاصله رعدة انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحيا وهتف القلب « هى ؟ » ، وكانت العربة قد ولته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزبكية ، فلم يأل عدوا وراءها بلا تدبر ولا تفكير ، وصاحبه يزعق وراءه معربدا صاخبا ، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأول ولكن عينيه لم تتحولا عن العربة ، ثم استأنف العدو جاهدا لاتكاد تسعفه قدرته الا قليلا ، حتى أدركها وهى توشك أن تدخل الحانة فناداها . ولما أن التفتت اليه وهتفت باسمه ، قطع الشـك باليقين ، وأدركت حواسه ما سبق القلب اليه ، فوقف حيالها

لاهثا مبهورا لا يدرى كيف يصدق عينيه ، وغابتها الدهشة والانزعاج أول وهلة واستحوذ عليها الانفعال . ثم شعرت بحرج موقفها واشفقت من فضول المتسكعين ، فتمالكت مشاعرها ، واشارت اليه ومضت فى عجلة الى عطفة سابقة للحانة — وهو يتبعها — ودخلت أول باب الى يسارها وكان حانوت ازهار ، وحيتها بائعة الأزهار — التى عرفتها بحكم ترددها على المكان — فردت تحيتها وسارت به الى نهاية الحانوت متحامية مواقع الانظار ، وادركت بائعة الزهور أنها تريد ان تختلى بصاحبها فمضت الى مقعدها وراء معرض الزهور ، وجلست بغير مبالاة كان احدا لم يقتحم عليها حانوتها . ووقفا وجها لوجه ، يلفه الانفعال والحيرة ، وترتعش أطرافه تأثرا ، ما الذى دعاه الى هذا العدو القاتل !! ماذا يروم من هذا اللقاء المغتصب ! . لقد وجد نفسه فى تلك اللحظة عريا من كل رأى او عزم ، ولقد كانت ذكريات الشر الذى هصر آماله — فى أنباء عدوه — تذر على عينيه غبارا فتكاد تحجب عنه الطريق ، ولكنه لم يبيت رأيا أو يستجب عزما ، فركض ركضا آليا لا يتبين له غاية ، حتى اذا هتفت باسمه فقد البقية من وعيه وتبعها الى الحانوت كالسائر فى نومه .

واخذ يفيق رويدا من الاعياء والجهد والانفعال ، وراح بصره يعاين المرأة الواقفة حياله بلباسها الجديد وزينتها الغريبة ، متلمسا عبثا أن يجد فيها موضعا للفتاة التى أحبها . فارتد البصر كليلا ، وتجرع قلبه غصص الباس المرير . لم تكن بساطة قلبه من البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى ، ولقد اجبرته الشائعات فى المدق على تصديق أمر فظيع ، ولكن الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة الماثلة لعينيه ، وامتلأ قلبه المتهور شعورا بتفاهة الحياة وعبثها . بيد ان غضبه الذى أصلاه نارا حامية فى ليله ونهاره ، لم ينفجر . فكان أبعد ما يكون عن البطش بها او حتى

البصق عليها . وجعلت حميدة تنظر اليه فى ارتباك وحيرة ، واستشعر قلبها خوفا حيال هذا الأثر من الماضى للذى تتحاماه ، ولكنه لم يحرك بها عطفا أو ندما ، بل استثار ازدراءها ومقتها فلعنت فى سرها شؤم الحظ الذى رمى به فى طريقها ، واشتد الصمت على أعصابها ، ولم يعد فى الوسع احتماله ؛ فقال الحلو بصوت مبحوح متهدج :

— حميدة !. اهذا انت ؟!.. رباه كيف اصدق عينى ؟! .. كيف هجرت بيتك وامك وانقلبت الى هذه الحال ؟ !

واجابته فى ارتباك غير خاف :

— لا تسالنى عن شىء ، فليس عندى ما أقوله . وهذا قضاء الله الذى لا يرد .

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر ، فاستفزا غضبه واثارا حنقه ، فعلا صوته مزمجرا حتى ملأ الحانوت :

— كاذبة فاجرة ... أغواك فاجر مثلك ففررت معه . وتركت وراءك فى حيك أسوأ الذكرى ، وها هو الفجر السافر يطالعنى فى وجهك وتبرجك الفاضح ..

واستفز هذا الغضب المفاجىء شراستها الطبيعية فغضبت غضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره من ارتباك وخوف ، وضاعفها ما احتملته فى يومها من حنق وخيبة ، فاربد وجهها وصرخت فى جنون :

— صه ... لا تزعق كالمجانين ، احسبت انك تخوفنى بصراخك ؟! ماذا تريد منى يا هذا ؟ . لا حق لك على فاضرب عن وجهى ..

وخبا غضبه قبل أن تتم كلامها ! وقهر غضبها غضبه فأماته فى صدره وكانه كان يشعله الماء وتطفئه النار ، وحملق فى وجهها ذاهلا وغمغم بصوت مرتعش النبرات :

ــ كيف سولت لك نفسك ان تقولى هذا القول ؟ .. الست ... الم تكونى خطيبتى ؟

وتشفت بهزيمته ، وارتاحت الى غضبتها التى اسعفتها فى الوقت المناسب وقالت بتململ :

ــ أى فائدة تجنى من ذكر الماضى الآن !؟ لقد مضى وانقضى .

فقال متحيرا متوجعا :

ــ أجل مضى وانقضى . ولكنى فى حيرة من امرى وامرك ، الم تقبلى يدى ؟ .. الم أهاجر الى ذاك البلد البعيد من أجل سعادتنا معــا ؟! .

لم تعد تشعر نحوه بارتباك او حرج ، وتساءلت فى جزع : متى يمسك عن هذا ؟ متى يفهم ؟ متى يرحل ؟. ثم قالت بلهجة لا تخلو من برم :

ــ أردت شيئا وارادت الاقدار سواه ..

ولم يغب عنــه تململها ، ولكنه بات اشــد تشبثا بالكلام والاستفسار ، واستمد من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول بيأس :

ــ ماذا صنعت بنفسك ؟ كيف انقلبت الى هــذا المصــير الأسود ؟ .. اى شؤم أعمى بصــيرتك ؟ .. ومن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذى خطفك من حياتك الطاهرة وطرحك فى مزبلة الدعارة ؟..

واكفهر وجهها ، وتناهى بهــا الجزع ، وقالت بلهجــة تشى بالملل :

ــ هذه حياتى ، هذه النهاية التى لا مهرب منها ، نحن الآن غريبان وكلانا ينكر صــاحبه ، لم يعد بوســعى الرجوع ، ولن تستطيع مهما قلت ان تغير من الواقع شيئا ، وحذار أن تغلظ لى القول فلست على حال أملك معها السماحة او العفو ، وانى

لأقر بعجزى حيال حظى ومصيرى ، ولكنى لا أحتمل أن يضاعف لى انسان الكرب بالغضب والزجر . انسنى ، واحتقرنى كما تشاء ، واتركنى بسلام ..

ما هذه بفتاته ، اين منها حميدة التى احبها وأحبته ؟ يا عجبا : الم تحبه حقا ؟ الم تلصق شفتيها بشفتيه على بسطة السلم ؟ الم تدع له يوم الوداع وتعده باستشفاع الحسين لاجابة الدعاء ؟.. فمن تكون هذه الفتاة ؟؟. الا تستشعر ندما ؟ الم تلنها اثارة من حنان قديم ؟ واوشك ان يغضب مرة اخرى لولا اشفاقه من غضبها ، فتنهد تنهد المغيظ المقهور وقال :

ـ انك تحيريننى ، وكلما أصغيت لك تضاعفت حيرتى ، لقد عدت بالأمس من التل الكبير فدهمنى الخبر الأسود على غرة : اتعلمين ماذا دعانى لهذه العودة ؟!.. (وأبرز علبة القلادة واراها اياها) .. عدت بهذه هدية لك ، وكان فى نيتى أن أعقد عليك قبل ان ارجع الى البلد ..

والقت على العلبة نظرة صامتة ، وفى أثناء ذلك وقعت عيناه على الهلال الماسى والقرط اللؤلؤى فتراجعت يده بالعلبة الى جيبه ، وتناهى به الضيق فسألها بحدة :

ـ الا تأسفين على هذه النهاية ؟!.

ولمعت عيناها بخاطر غامض بث فى نفسها يقظة محمومة ، فقالت بلهجة حزن مصطنعة :

ـ أنت لا تدرى كم انا شقية .

فاتسعت عيناه فى دهشة وريبة ، وقال بألم بالغ :

ـ يا للشقاء يا حميدة !.. لماذا اصخت لنداء الشيطان ؟.. كيف هانت عليك حياتك الشريفة ؟.. كيف نبذت الحياة الطيبة والأمل المرتقب من أجل (وهنا تحشرج صوته) .. مجرم آثم وشيطان رجيم ؟!.. هذه جريمة لا تغتفر ..

وكانت حمى ذلك الخاطر لا تزال تلتهم افكارها . فقالت بلهجتها الأسيفة الجديدة :

ــ انى أؤدى ثمنها من لحمى ودمى ..

وازدادت دهشته ، وخالطها ارتياح غامض سرورا بالشقاء المزعوم الذى اعترفت به ، ولكنها لم تنكسر عن حدتها اعتباطا ، كانت افكارها تتوارد بسرعة جنونية فى الهام شيطانى ، خطر لها ان تحرضه على الرجل الذى هرس قلبها بقسوة وسخرية ، واملت ان تجعله اداة انتقامها وهى بمنأى من عوادى الشقاء ، ورقت نظرة عينيها وهى تقول بصوت ضعيف :

ــ لست الا شقية يا عباس . لا تؤاخذنى على سوء قولى ، فقد افقدنى الشقاء وعيى . انكم جميعا تروننى عاهرة فاجرة ، والحق انى شقية بائسة ، خدعنى الشيطان الرجيم كما دعوته بحق ، لا ادرى كيف اذعنت اليه ، ومع ذلك فلست انتحل لنفسى عذرا ، ولا اطمع أن اسالك العفو ، فانى أعلم انى مذنبة ، وها أنا ذى ادفع ثمن جريرتى النكراء . اعف عن غضبى الذى اهاجته كلماتك العادلة ، وابغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك الطاهرة الكريمة ، واشمت بى فلست فى حاضرى الا العوبة رخيصة فى يد من لا يرحم ، يطلقنى فى الطرق ويستغل شقائى بعد ان استلبنى أعز ما أملك ، انى امقته ، أمقته بكل ما فى من شقاء ومهانة هما من غرسه ، ولكن هيهات أن اجد لى منه مهربا .

اذهله حديثها الشاكى عن نفسه ، وراعته نظرة الشقاء تغشى عينيها ، فنسى المراة المتنمرة التى كادت تفتك به منذ برهة قصيرة ، واهابت به رجولته أن يغضب ، فزمجر صائحا :

ــ يا للشقاء يا حميدة ، انك شقية ، وانى شقى ، كلانا شقى بفعل هذا المجرم . اجل ، لا أستطيع أن انسى انك اخطات خطأ اثيما ، وان هذا الخطأ يحول بيننا الى الأبد ، ولكن بينا يشقى

كلانا بهذا الخطأ ، اذا بالمجرم الأول مطمئن سعيد كأنما يسعد بشقائنا ، فلا كانت حياة اذا أنا لم أحطم رأسه !.

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها أن يفضحها ، وكانت سرعة انزلاقه الى شباكها فوق مطمعها ، وارتاحت بصفة خاصة الى قوله : « هذا الخطأ يحول بيننا الى الأبد » فامن قلبها ان يجرجره الانفعال الى حد العفو عنها ، والسعى لاسترداها ، وما كانت تحلم بهذا كله . أما الحلو فاستدرك يقول عابسا راغبا :

— لا يرتاح لى بال قبل أن أحطم راسه واهشم عظمه !. أجل . لا استطيع ان أنسى أنك فررت معه ، ولا انهم راوك تسيرين فى صحبته ، فلا امل ان نجتمع مرة اخرى ، لقد فقدت حميدة التى احببتها الى الأبد ، لكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى كلينا . خبرينى اين اجده ؟.

فقالت وعقلها فى تفكيره أسرع من لسانها فى نطقه :

— لا سبيل لك عليه اليوم ، ولكن تعال يوم الأحد ظهرا اذا شئت فتجده فى الحانة عند أول هذه العطفة ، ولن تجد مصريا سواه فيها ، فاذا التبس عليك الأمر أشرت اليه بعينى .. ولكن ماذا تنوى أن تفعل به ؟

نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنم عن الاشفاق عليه من العواقب ، ولكنه أجاب فى جنون الغضب واليأس قائلا :

— سأحطم رأس القواد الوضيع ..

وتساءلت وعيناها تتفرسان فى وجهه : أيستطيع الحلو أن يقتل ؟!..

ولم يغب الجواب عن فراستها ، ولكنها أملت أن يثير من حوله فضيحة تسوقه الى يد القانون ، فتنتقم منه وتخلص من أسره ، وارتاحت الى أفكارها بلا تدبر أو نقد ، بيد أنها لم تخل من رغبة صادقة فى الا يصيب الحلو شر فادح من مخاطرته ؛ وتمنت على الله

أن ينتقم لها من غريمها دون ان يذهب ضحية لفعله !. ولذلك قالت تحذره :

— لا تبلغن بك الرغبة فى الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك ؟ اضربه . افضحه . جره الى القسم فيكون فبه القضاء عليه وعلى جرائمه ..

ولكنه لم يكن يصغى اليها ، وكان يقول وكأنه يخاطب نفسه:

— لا يصح ان نشقى بلا ثمن . انتهت حميدة ، وانتهى عباس ، فكيف يروح القواد آمنا ضاحكا من تعاستنا ؟ لأدقن عنقه ، ولأكتمن أنفاسه ، (ثم علا صوته موجها اليها الخطاب) : وانت يا حميدة ماذا تصنعين بحياتك اذا نحيت عن سبيلك هذا الشيطان ؟

وخافت على نفسها ما عسى أن يؤدى اليه هذا السؤال ، واشفقت من أن يتطرق الى مسارب ضعفه القديم . فقالت بحزم وهدوء :

— انقطع ما بينى وبين العالم القديم ، ولكنى سأبيع ما عندى من حلى وأجد لنفسى عملا شريفا فى مكان بعيد ..

وصمت صمتا طويلا متفكرا محزونا . فعانت فى صمته من القلق ألوانا ، حتى طامن من رأسه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— لا يستطيع قلبى أن يعفو .. لا يستطيع ، لا يستطيع .. ولكن لا تعجلى بالاختفاء مرة أخرى حتى نرى كيف ينتهى هذا الأمر ..

ووجدت فى لهجته ما ينذر بالسماحة والعفو والاستسلام ، فلمعت عيناها فى حذر وقلق ، وآثرت فى أعماق قلبها الثائر أن يهلك هو وغريمها على أن يعود اليها فاتحا ذراعيه ؛ بيد انها لا تستطيع أن تفصح له عما يدور بخلدها ، ولن يشق عليها الاختفاء اذا شاءته ، واذا تم لها الانتقام الذى تتلهف عليه ،

فما ايسر أن تشد الرحال الى الاسكندرية التى حدثها عنها فرج ابراهيم كثيرا ، وهنالك تصفو لها الحياة وتطيب فى حرية لا يحدها قيد ؛ وفى أمن من المتطفلين ، ولذلك لم تجد بأسا فى أن تقول له بمثل لهجته الرقيقة :

ـ لك ما تشاء يا عباس ..

وكان قلبه يعانى مرارة الشقاء والقنوط والتحفز للانتقام ؛ ولكنه ما انفك ينبض بالحيرة والعطف ..

- ٣٣ -

كان يوم وداع وسرور ، فدبت فى قلوب الرفاق عاطفة واحدة : ذلك أن للسيد رضوان الحسينى منزلة رفيعة فى القلوب جميعا على السواء . كان السيد قد استخار الله فى اداء فريضة الحج هذا العام فأخاره ، وعلم الجميع أنه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمن الى السويس فى طريقه الى الأراضى المقدسة ، وامتلأ بيته بالمودعين من أصدقاء العمر واخوان الصفاء ، وحفوا به فى الحجرة القديمة الوديعة التى طالما اصغت جدرانها الى سمرهم الورع اللطيف عاما بعد عام ، واستفاض حديث الحج ، وثارت ذكرياته ، ولهجت بها الألسن فى أركان الغرفة حول خط متموج من دخان البخور يتصاعد من المجمرة ، ورووا نتفا من أخبار الحج شملت المعاصرين والغابرين ، واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة ، ورتل ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ثم أنصتوا جميعا الى فيض من كلام السيد رضوان أفصح به فؤاده عما يكنه من رقة وطيبة ..

وكان احد الأصفياء قد قال له :

ــ سفر سعيد وعود حميد ..

فاشرقت فى وجه السيد ابتسامة وضاءة كسته جمالا على جمال ، وقال بصوته الحنان :

ــ اخى لا تذكرنى بالعود . ان من يقصد بيت الله وفى قلبه خاطر من خواطر الحنين الى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويخيب دعاءه وينفد سعادته . سأذكر العودة حقا اذا فصلت عن مهبط الوحى فى طريقى الى مصر ، واعنى بها العودة الى الحج مرة ثانية اذا اذن الرحمن واعان . من لى بمن يقرنى ما تبقى من العمر فى البقاع الطاهرة ، امسى واصبح فلا أرى الا أرضا تطامنت يوما للمس اقدام الرسول ، وهواء خفقت بتضاعيفه اجنحة الملائكة ، ومغانى أصغت للوحى الكريم يهبط من السماء الى الأرض فيرتفع بأهل الأرض الى السماء ، هنالك لا تطوف بالخيال الا ذكريات الخلود ، ولا يخفق الفؤاد الا بحب الله ، هنالك الدواء والشفاء ، أخى .. أموت شوقا الى استطلاع افق مكة ، واستجلاء سماواتها ، والانصات الى همس الزمان بأركانها ، والسير فى مناكبها ، والانزواء فى معابدها ، وارواء الغلة من زمزمها ، واستقبال الطريق الذى مهده الرسول بهجرته فتبعته الأقوام من ثلثمائة والف عام ولا يزالون ، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر النبوى والصلاة فى الروضة الشريفة ، وأن بقلبى من مكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثه ، ولدى من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصوره .. ارانى يا اخوان ضاربا فى شعاب مكة تاليا الآيات كما أنزلت أول مرة ، كانما اسمع درسا للذات العلية ، اى سرور !. وارانى ساجدا فى الروضة متخيلا الوجه الحبيب كما نتراءى فى المنام ، فاى سعادة !.. وارانى متخشعا لقاء المقام مستغفرا فاى طمانينة !. وارانى واردا زمزم ابل جوارح الشوق بندى الشفاعة فاى سلام !. اخى لا تذكرنى بالعودة وادع الله معى أن يحقق لى المنى ..

فقال له صاحبه :

— حقق الله مناك ومتعك بطول العمر والعافية .

فضم السيد راحته المبسوطة على لحينه وقد تالقت عيناه بسرور وهيام وراح يقول :

— نعم الدعاء ، والحق أن حبى الآخرة لا يدفعنى الى الزهد فى الدنيا او التململ من الحياة ، لطالما لمستم بأنفسكم حبى الحياة والسرور بها ، كيف لا وهى من خلق الرحمن ؟ خلقها الله وملأها بالعبر والأفراح ، فمن شاء فليتفكر ومن شاء فليشكر ، ولذلك احبها ، احب الوانها واصواتها ، وليلها ونهارها ، ومسراتها وآلامها ، واقبالها وادبارها ، وما يدب على ظهرها من حى أو يقيم عليه من جماد ، هى خير خالص ، وما الشر الا عجز مرضى عن ادراك الخير فى بعض جوانبه الخافية ، فيظن العاجز المريض بدنيا الله الظنون . لذلك اقول لكم ان حب الحياة نصف العبادة ، وحب الآخرة نصفها الآخر ، ولذلك يهولنى ما تنوء به الدنيا من دموع وانات وسخط وغضب وغل وسخيمة ، وما تبتلى به نوق هذا كله من ذم المرضى العاجزين . أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا ؟ أكانوا يحبون لو لم نخرج من العدم ؟ أتسول لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الالهية ؟ وما أبرىء نفسى ، فلقد ملكنى الحزن مرة على اقتطاع فلذة من كبدى ، وتساءلت فى غمرة الحزن والألم : لماذا لم يبق الله على طفلى حتى يتمتع بحظه من الحياة والسعادة ، ثم شاء الله ان يهدينى ، فقلت لنفسى : أليس هو — عز وجل — الذى خلقه ، فلماذا لا يسترده وقتما يشاء ! ولو أراد الله له الحياة للبث فى هذه الدنيا حتى يشاء الله ، ولكنه استرده لحكمة اقتضتها مشيئته ، فهو لا يفعل شيئا الا لحكمة ، والحكمة خير ، فقد أراد ربى به وبى خيرا ، وسرعان ما غلبنى السرور بادراك حكمته على حزنى ، ولسان قلبى يقول : ربى ، لقد وضعتنى موضع البلاء

اتختبرنى وها أنا اجوز امتحانك ثابت الايمان ، ملهما حكمتك :
« فاللهم شكرا » وصار ديدنى اذا اصابتنى مصيبة أن ألهج من أعماق قلبى بالشكر والرضا . كيف لا والله يخصنى بالامتحان والعناية ، وكلما عبرت محنة الى بر السلام والايمان ازددت ادراكا لما فى مقاديره من حكمة ، وما فيها بالتالى من خير ، وما تستحق بعد ذلك من شكر وسرور ، وهكذا وصلت المصائب ما بينى وبين حكمته على دوام لا ينقطع . حتى خلتنى طفلا مدللا فى ملكوته يقسو على لأزدجر ، ويخوفنى بعبوس مصطنع ليضاعف سرورى بالأنس الحقيقى الدائم ، وأن الحبيب ليسبر محبوبه بالصد حينا ، وان عرف المحبوب أن الصد مكر محب ، لا هجر قال ، تضاعف حبه وسروره ، فما عدوت أو وقر فى اعتقادى أن المصابين فى هذه الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه ، خصهم بحب مقنع ، ورصدهم غير بعيد ، ليرى ان كانوا حقا أهلا لحبه ورحمته .. فالحمد لله كثيرا ، بفضله عزيت من حسبوا اننى أهل العزاء ..

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من الحاح التعبير عن مكنون صدره ما يجده المغنى اذا سكر بحلاوة الطرب ، وتاه فى سلطنة الفن ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد :

— يذهب اناس الى أن هذه المصائب وامثالها مما يبتلى به الأبرياء عنوان عدالة انتقامية لا يفطن لحكمتها عامة الناس وتراهم يقولون انه لو تفكر الأب الثاكل مثلا لوجد ان ثكله جزاء ذنب اقترفه هو او احد آبائه الأولين . ولكن لعمرى أن الله اعدل وأرحم من ان يأخذ البرىء بالمذنب ، وتراهم يستشهدون على صواب رايهم بما وصف الله به نفسه من انه عزيز ذو انتقام ، ولكنى اقول يا سادة : ان الله تعالى غنى عن الانتقام ، وانه انما اضاف هذه الصفة لذاته لينبه الانسان الى احتذائها . وقد سبقت ارادته بالا تستقيم امور هذه الدنيا الا بالثواب والعقاب ، أما ذاته العزيزة

الجلبلة فسنتها الحكمة الربانيــة والرحمة الالهيــة ؛ ولو أنني اكتشفت تحت مصائبي عقابا أستحقه ، أو وجدت وراء جثث ابنائي جزاء أستأهله ، لاعتبرت حقا ، ولازدجرت حقا ، ولكن كان ببقى فى النفس ضنى ، وفى العين دموع ، ربما هتف قلبي المحترق : ضعيف اذنب وبرىء هلك ، فكيف العفو والرحمة ؟! واين هذا من مصيبة تستشف الحكمة والخير والسرور !..

واثار رأيه اعتراضات كثيرة ، فتمسك البعض بالنص ، وأول البعض التفسير ، ورد آخرون الانتقام الى الرحمة . وكان كثيرون اقوى منه عارضة وأوسع علما ، ولكنه لم يكن متهيئا للجدل ، كان متفتحا فحسب للتعبير عما يضطرم فى فؤاده من الحب والسرور ، فجعل يبتسم ببراءة الطفل ، متورد الوجه ، متألق العينين ، وراح يقول بصوت رققه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين :

ـ معذرة يا سادة ، فاني أحب الحياة ، بل أحب نفسي ، لا كذات تتعلق بي ، ولكن كفلذة من قلب البشرية ، ونبض من الحياة ، وخلق للصانع الأجل ، وتجربة للحكمة الالهية ، وأحب الناس جميعا حتى المجرمين الشائهين . أليسوا يرمزون الى عناء الحياة الممض فى سبيل الكمال ؟.. أليسوا ظلمة تلقى عتمتها على بهاء الخير ضياء ؟ ذروني أبح لكم بسر دفين ، أو تعلمون ما الذي بعثني الى الحج هذا العام ؟

وصمت السيد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج ، ثم قال يجيب نظرات الاستطلاع التى عكستها الأعين :

ـ لا انكر ان الحج أمنية طالما نازعني الفؤاد اليها ، ولكن قضت ارادة الله ان أؤجلها عاما بعد عام ، حتى حسبتني قد بت أوثر الشوق الى الحبيب على الحبيب نفسه ، ولأشواق العبادات لذة كقضائها ؛ ثم كان من أمر زقاقنا ما تعلمون ، فشد الشيطان

على اعين رجلين وفتاة من جيراننا ، أما الرجلان فقادهما الى قبر ينبشانه وغادرهما فى السجن ؛ واما الفتاة فاستدرجها الى هاوية الشهوات وغاص بها فى حمأة الرذيلة . هنالك زلزل قلبى زلزالا شديدا تصدعت له اضلعى . ولا اكتمكم يا سادة أن شعورا بالذنب داخلنى ، لأن أحد الرجلين كان يقتات على الفتات ، وقد نبش القبر لعله يجد بين عظامه النخرة لقمة يستسيغها ، كالكلب الضال يلتقط رزقه من اكوام الزبالة ، فلشد ما ذكرنى جوعه بجسمى المكتنز ووجهى المتورد ، حتى استحوذ على الخجل . وغلبنى استعبار ، وقلت لنفسى معنفا متقززا ماذا فعلت — وقد اتانى الله خيرا كثيرا — لدفع البلاء او التخفيف من وقعه ، الم اترك الشيطان يعبث بأهل جيرتى وانا ذاهل عنه بسرورى وطمانينتى ؟ الا يكون الانسان الطيب بتقاعده عونا للشيطان من حيث لا يدرى ؟.. واستصرخنى الضمير المعذب أن البى النداء القديم ، واشد الرحال الى ارض التوبة مستغفرا ؛ حتى اذا شاء الله أن أعود ، عدت بقلب طاهر ، وجعلت من قلبى ولسانى ويدى اعوانا للخير فى مملكة الله الواسعة ..

ودعا له الاخوان بصدق وحرارة ، وواصلوا الحديث فى سرور وحبور .

***

وابى السيد رضوان بعد أن ودع بيته الا أن يزور قهوة كرشة مودعا . فاقتعد مجلسه محوطا بالمعلم « كرشة » وعم كامل والشيخ درويش وعباس الحلو وحسنين كرشة ، وجاءت المعلمة حسنية الفرانة فقبلت يده وحملته السلام امانة ، وقد قال لهم السيد :

— الحج فريضة على من استطاع اليه سبيلا ، يؤديها عن نفسه وعمن تقعد بهم الاعذار من الصادقين .

فقال له عم كامل بصوت الأطفال :

— صحبتك السلامة فى الحل والترحال ، وعسى الا تنسى أن تنجيئنا بسبحة من المدينة المنورة ..

فابتسم السيد وقال :

— لن أكون كمن وهبك كفنا ثم ضحك عليك .

وضحك عم كامل وكاد يعود الى هذا الموضوع القديم لولا أن رأى وجه عباس الحلو الواجم فامسك ، وقد أثار السيد هذه الذكرى متعمدا ليدخل منها الى نفس الشاب التعس مدخلا لطيفا ، والتفت اليه بحنان وقال :

— يا عباس : أصغ الى كما ينبغى لشاب شهد له جميع أهل الزقاق بالعقل واللطف ؛ عد الى التل الكبير فى أول فرصة ، بل اليوم ان سمعت واطعت . واعمل بما أوتيت من همة ، واقتصد من النقود ما تشق به حياة جديدة ان شاء الله . واياك وأن تلقى براسك فى خضم الفكر ، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب، ولا تحسبن ما اعترضك من سوء الحظ هو ختام ما قدر لك فى الحياة . انك بعد شاب فى نهاية الحلقة الثانية من عمرك ، وما تلقاه من الم ليس الا بعض ما يصيب الانسان فى حياته ، وكأنه ما ينتاب الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولفهما ، فاذا صمدت له بشجاعة جزته رجلا خليقا بالرجولة ، وذكرته فيما يقبل من حلقات العمر ببسمة الظافر وتأسي المؤمن . انهض مستوصيا بالصبر متعوذا بالايمان ؛ واسع الى رزقى ولتهنأ بسرور المؤمن اذا ادرك أن الله قد اختاره لمصاف المصابين من أوليائه .

ولم يحر عباس جوابا ، ولكنه لما رأى عينى السيد لا تتحولان عنه ، ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرضا ، وغمغم بلا وعى تقريبا :

— سيمضى كل شىء كأن لم يكن .

فابتسم السيد ، والتفت نحو حسين كرشة وهو يقول :

— أهلا بشاطر زقاقنا ! ، سأدعو الله لك الهداية فى أرض مستجابة الدعاء ، ولأجدنك ان شاء الله حين عودتى محتلا مكان أبيك كما يريد لك ، ونعم ما أراد ، وطوبى للمعلم الصغير الجديد .

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقا :

— يا سيدى رضوان ، اذكرنى اذا أحرمت ، وذكر أهل البيت بأن محبهم تلف وشنفه الغرام ، وانه أضاع ما يملك من مال وعتاد على حب لا تنقع له غلة ، واشك اليهم خاصة ما يلقى من ست الستات ..

***

وغادر السيد رضوان القهوة يحف به الصحاب . وقد لحق به من البيت قريبان اعتزما السفر معه حتى السويس . ومال السيد الى الوكالة فوجد السيد سليم علوان مكبا على بعض دفاتره . فابتسم قائلا :

— تأذن الرحيل فدعنى اعانقك .

ورفع الرجل وجهه الذابل فى دهشة ، وكان قد علم بميعاد الرحيل دون أن يحرك ساكنا ، ولكن السيد رضوان لم يلق بالا الى اهماله ، وكان يعلم من سوء حاله ما يعلم الجميع ، فأبى أن يغادر الحى قبل أن يودعه . وكأنما شعر الآخر بخطيئة فى هذه اللحظة فاعتراه ارتباك ، الا أن السيد احتواه بين ذراعيه وقبله ودعا له طويلا ، ولبث عنده مليا ، ثم قال وهو ينهض قائما :

— لندع الله أن نحج معا فى عامنا القادم .

فغمغم السيد وهو لا يعنى ما يقول :

— ان شاء الله .

وتعانقا مرة اخرى ، ورجع السيد الى أصحابه ، ومضوا جميعا الى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربة محملة بالحقائب . فصافح الرجل مودعيه بحرارة وركب هو وقريباه ، وانحدرت العربة صوب الغورية تتعلق بها الأعين ، ثم مالت الى الأزهر .

- ٣٤ -

قال عم كامل لعباس الحلو :

– ليس وراء نصح السيد رضوان مذهب لناصح ، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر ، وسوف أنتظرك طال الزمان أو قصر ، وستعود باذن الله ظافرا وتكون على راس حلاقى هذا الحى جميعا .

وكان الحلو يجلس على كرسى أمام دكان البسبوسة غير بعيد من عم كامل ينصت الى صاحبه دون أن ينبس بكلمة ، ولم يكن باح لأحد بسره الجديد ، وقد هم حين نصحه السيد رضوان الحسينى بالافصاح عما يثقل كاهله ، ولكنه تردد لحظة فوجه السيد خطابه الى حسين كرشة ، وسرعان ما عدل عما قام بنفسه ؛ ولم تضع نصيحة السيد رضوان هباء فتفكر فيها مليا ، بيد ان يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره ، وكان مضى على اللقاء الغريب فى حانوت الورد ليلة ونهار ، فقلب وجوه الفكر فى هدوء وأناة وعرف فى النهاية انه لا يزال يحب الفتاة ، وان كانت اسبابها قد انقطعت الى الأبد ، وأن رغبته فى الانتقام من غريمه لا تقاوم . وقد أنصت الى كلام عم كامل صامتا ، ثم تنهد من الاعماق ، تنهد انسان تعس كبلته الأقدار بأغلال الشقاء ، ووضعته على شفا جرف هار من الدمار ، وسأله عم كامل بقلق :

– خبرنى عما اعتزمت ؟

فنهض الشاب قائما وهو يقول :

– سامكث هنا بضعة ايام أخر ، على الأقل حتى يوم الاحد ، ثم اتوكل على الله .

فقال عم كامل فى اشفاق :

— ليس السلوان بالمطلب العسير اذا نشدته صادقا .

فقال الشاب وهو يغادر موضعه :

— صدقت ! .. السلام عليكم .

ومضى وفى نيته أن يقصد حانة فيتا ، حيث يظن ان حسين كرشة قد سبقه اليها عقب توديع السيد رضوان مباشرة ، وظل فكره فريسة للأفكار القلقة ، وقلبه نهبا للعواطف المضطرمة . انه ينتظر يوم الأحد ، وما يوم الأحد ببعيد ، ولكن ما عسى ان يصنع اذا حان الحين ؟ ! . ايمضى الى الموعد حاملا خنجرا ليغمده فى قلب غريمه ؟ . لعل هذا ما يتحرق اليه بكل ما يمتلىء به قلبه من غضب وحقد وشقاء ، ولكن : هل يسعه ارتكاب الجريمة ؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة ؟ . وهز راسه فى شك وكمد وحقد . انه ابعد ما يكون عن العنف والاجرام ، وهذا ماضيه يشهد له بالوداعة والمسالمة ، فما عسى أن يصنع اذا جاء يوم الأحد ؟ وتضاعفت رغبته فى لقاء حسين كرشة ليقص عليه قصة حميدة ويسأله المشورة والعون ! ، بل العون قبل سواه ، لانه يبدو عاجزا بغير هذا العون . وفى هذه الحال من الاقرار بالعجز عاودته نصيحة السيد رضوان الحسينى « ... عد الى التل الكبير فى أول فرصة ، بل اليوم ان سمعت واطعت ، .. اياك وأن تلقى براسك فى خضم الفكر ، او أن تهن عزيمتك لقاء الياس والغضب ... » ، استحضر كلام السيد الذى اوشك ان ينساه . اجل ، لماذا لا يطوى الماضى بأحزانه وينطلق فى شجاعة وصبر فى طريق السلوان والعمل ؟ لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به ؟ لماذا يعرض حياته لأهوال اخفها السجن ؟ وارتاح الى افكاره الجديدة ولكن دون أن يقطع برأى حاسم ، ولم تزل نفسه تنازعه الى الانتقام ، ولعل الانتقام لم يكن وحده الذى يستبد بشعوره ،

ولعله خاف العدول عنه لأن فى هذا العدول قطعا حاسما لهذا الخيط الواهى الذى وصله بحميدة أمس ، وقد ابى أن يصدق أنه يستطيع العفو عما سلف ، وقال وكرر القول — بداع وبلا داع — ان أسبابهما قد انقطعت الى الأبد ، ولكن هذا الالحاح فى القول نفسه أخفى رغبة — لعله لم يدرها — فى استردادها ووصل ما انقطع من وشائجهما ! فكان نزوعه الى الانتقام ظلا لتعلقه بالمرأة التى يحبها ولا يطيق هجرها ، وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا ، وكان حسين كرشة بمجلسه يكرع من النبيذ الأحمر ولما تلعب الخمر برأسه ، فمضى اليه وحياه تحية مقتضبة ، وقال برجاء حار :

— حسبك ما شربت فانى أريدك لأمر هام .. هلم معى .

ورفع حسين حاجبيه منكرا ، وكأنما كبر عليه ان يعكر القادم صفوه ، ولكن عباس — وقد أذهله الهم عن وعيه — أمسك بذراعه وشده حتى أقامه وهو يقول :

— انى فى مسيس الحاجة اليك .

فنفخ الشاب مستاء ، ودفع ما عليه ، وغادر الحانة برفقة صاحبه ، وقد أصر عباس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا ينتفع بمشورته .

ولما صارا فى الموسكى ، قال وكأنما يزيح كابوسا عن صدره :

— وجدت حميدة ياحسين ..

فلاح الاهتمام فى العينين الصغيرتين وسأله :

— أين ؟

— الا تذكر امرأة العربة التى عدوت وراءها أمس وسألتنى عنها اليوم دون أن تظفر منى بجواب شاف ؟ هى حميدة دون غيرها ..

فصاح الشاب بدهشة وسخرية :

- اسكران أنت ؟! . ماذا قلت !

فقال عباس بلهجة جدية شديدة التأثر :

- صدقني فيما قلت . هذه المراة هي حميدة بلحمها ودمها ، وقد عرفتها من اول نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت . حتى ادركتها وحادثتها .

فتساءل حسين في دهشة وانكار :

- كيف تريدني على أن اكذب عيني ؟ !

فتنهد الحلو بأسى . وراح يروى له ما دار بينهما من حديث دون أن يخفي عنه شيئا ، والآخر يصغي اليه باهتمام شديد . حتى ختم حديثه قائلا :

- هذا ما اردت ان اطلعك عليه ، وقد ترديت حميدة في الهاوية ولا نجاة لها ، ولكنني لن أترك المجرم الأثيم بغير عقاب .

وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار في تفسيرها . وكان الفتى بطبعه ، مستهترا قليل الاكتراث ، فافاق من دهشته باسرع مما قدر صاحبه ، ثم قال بازدراء :

- حميدة هي المجرمة الأصلية ، ألم تفر معه ؟ . . الم تستسلم له ؟ . أما هو فماذا تؤاخذه به ؟ . . فتاة اعجبته فغواها . ووجدها سهلة فنال منها وطره ، واراد ان يستغلها فسرحها في الحانات . هذا لعمري رجل حاذق ، وبودي لو أفعل مثله حتى تنجاب عني هذه الأزمة التي اكابدها . حميدة هي المجرمة يا صاح .

وكان عباس يحسن فهم صاحبه ، فلم يداخله شك في انه لا يتورع عن شيء مما ارتكبه غريمه ، ولذلك تحامى عن حكمة ذم الرجل في سلوكه أو خلقه ، وعمد الى اثارة نخوته من سبيل آخر فقال :

- ولكن الا ترى أن هذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا بما يستوجب تأديبه ؟

ولم يغب عنه قوله « كرامتنا » وادركانه يشير الى الأخوة التى تربطه بحميدة ، وذكر لتوه شقيقته المطروحة فى السجن بسبب فضيحة مماثلة ، فاستشاط غضبا وحنقا وزأر صائحا :

— هذا شىء لا يعنينى ، ولتذهب حميدة الى الشيطان .

ولكنه لم يكن صادقا كل الصدق فيما قال ، ولو كان لقى ذلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وانشب فيه مخالبه ، ولكن الحلو خدع بقوله فصدقه وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب :

— الا يغضبك أن يعتدى رجل على بنت من زقاقنا هذا الاعتداء المنكر ؟.. أسلم لك بأن حميدة مجرمة حقا ، وأن عمل الرجل فى ذاته لا غبار عليه ، ولكن أليس هو بالنسبة الينا اعتداء مشينا يستوجب الانتقام ؟ !

فصاح حسين بحدة :

— انت أحمق ، ولست غاضبا لكرامتك كما تتوهم ، ولكن نيران الغيرة تلتهم قلبك الخرع ، ولو أن حميدة رضيت بأن تعود اليك لطرت بها فرحا . كيف لقيتها يا رطل ؟!. نازعتها الحديث والشكاة ؟! مرحى . مرحى . حييت من رجل همام !. لماذا لم تقتلها ؟! لو كنت مكانك ورمت المصادفات الى يدى بالمرأة التى خانتنى لخنقتها بلا تردد ، ثم ذبحت عشيقها . واختفيت عن الأنظار هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل .

وتلبست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية ، فاستدرك مزمجرا :

— لست أقول هذا متهربا ، فالحق ان هذا الرجل ينبغى أن يدفع ثمن اعتدائه غاليا ، وليدفعنه غاليا ، وسنمضى معا فى الموعد المضروب ونوسعه ضربا ، ثم نرصده بمظانه جميعا ونوالى ضربه ولو اقتضى الحال أن نحشد له جيشا من الأعوان ، ولا نكف

عنه حتى يفتدى نفسه بمبلغ كبير من المال . وبذلك ننتقم ونستفيد معا !..

وسر عباس بهذه النتيجة غير المتوقعة ، وقال بحماس :

ـ نعم الرأى هو .. حقا انت رجل الملمات ! ..

وسره الثناء ، ومضى يفكر فى تنفيذ خطته مدفوعا بغضبه لكرامته ، وميله الطبيعى الى العدوان ، وطمعه فى الحصول على مبلغ من النقود ، ثم غمغم بصوت ملؤه النذير « ما يوم الأحد ببعيد ! » ، وبلغا عند ذاك ميدان الملكة فريدة فتوقف عن السير وهو يقول :

ـ عد بنا الى حانة فيتا ..

ولكن الآخر تشبث بذراعه وهو يقول :

ـ اليس من الأفضل ان نمضى الى الحانة التى سنلقاه بها يوم الأحد لتعرف الطريق بنفسك ؟

وتردد حسين لحظات،ثم سار معه كما أراد وقد حثا الخطا، وكانت الشمس قد مالت للمغيب ، ولم يكد يبقى من نورها الا ظلال خفيفة ، وشمل السماء ذلك الهدوء الحالم الذى تخلد اليه اذا تراءت لها طلائع الظلام ، واشتعلت مصابيح الطريق ، واطرد سيل السابلة لا يعبأون اختلاف الليل والنهار ، ودوى سطح الأرض على غير انقطاع ، فمن جعجعة الترام الى أزيز السيارات ، ومن نداء الباعة الى نفخ الزمارات ، غير همهمة البشر ، فكأنهما بخروجهما من المدق الى هذا الطريق قد انتقلا من المنام الى يقظة صاخبة ، وارتاح عباس الحلو وانقشعت الحيرة التى غشيته طويلا فعرف سبيله بفضل صاحبه الجرىء القوى ، أما حميدة فقد ترك أمرها معلقا للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء ، ولم يستطع ان يبت فيه برأى او انه اشفق من البت فيه برأى جاسم ، وقد يخطر له بلحظة ان يفاتح صاحبه ببعض

خواطره ولكنه ما كاد يختلس الى وجهه الاسود نظرة حتى غاص الكلام فيحلقه فلم ينبس بكلمة . وواصلا السير حتى بلغا موقف الأمس الذى لا ينسى فلكز عباس صاحبه وهو يقول :

— هاك دكان الأزهار الذى حادثتها فيه .

ونظر حسين الى الدكان الذى يشير اليه صامتا ثم سأله باهتمام :

— واين الحانة ؟

فاوما الى باب غير بعيد وهو يغمغم : « هاهى ذى » ، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينيه الصغيرتين الحادتين ، ونظر عباس الحلو الى داخل الحانة وهما يمران بها فجذب عينيه منظر غريب . ندت عنه شهقة ، وتصلبت عضلات وجهه ، ثم جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى : رأى حميدة فى جلسة شاذة بين نفر من الجنود ، كانت تجلس على كرسى والى ورائها جندى واقفا يسقيها خمرا من كأس فى يده ، ينحنى عليها قليلا وتميل هى برأسها اليه وقد مدت ساقيها على حجر آخر يجلس قبالتها ، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون ، بهت الفتى وتسمر فى موقفه ، ونسى ما كان علمه عن مهنتها ، وكأن الخطب يدهمه على غير علم به ، وطمس الدم الفائر بصيرته ، فلم يعد يعرف غريما له فى دنياه سواها ، واندفع الى الحانة كالمجنون وصاح بصوت كالرعد :

— حميدة ..

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسى ، وحملقت فى وجهه بعينين ملتهبتين ، وغلبتها الدهشة ثوانى ، ثم ثابت الى رشدها وقد هالها ما يتهددها به حمقه من الفضيحة ، فصاحت به بصوت خشن فظ جعله الغضب كالزئير :

ـ لا تبق هنا لحظة واحدة .. اغرب عن وجهى ..

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فجن جنونه واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد ، ووجد اخيرا ما عاناه فى الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقبا فى مرجل نفسه . فانطلق منه صارخا مصفرا مجنونا ، ولمح الى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة ، فتناول واحدة وهو لا يدرى ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط ، فى سرعة خاطفة لم يستطع ان يمنعها احد ، لا من الجنود ولا من عمال الحانة . فاصابت الزجاجة وجهها ، وتفجر الدم غزيرا من انفها وفمها وذقنها ، وامتزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها ، واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين ، وانقض عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر ، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات ..

وقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدى والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعا ، وكلما تلقى ضربة هتف صارخا : « يا حسين .. يا حسين » ، ولكن الفتى الذى لم ينكص عن خوض معركة فى حياته لبث متسمرا لا يدرى كيف يشق سبيله الى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين ، وتملكه الغضب ، واشتعلت بصدره ثورة جائحة ، واخذ يتلفت يمنة ويسرة عله يجد آلة حادة أو عصا او سكينا ، وبقى مقهورا مغلوبا على أمره ، وقد مضى السابلة يتجمعون عند مدخل الحانة متطلعين للمعركة بأعين فزعة وأيد مغاولة ..

— ٣٥ —

أضاء الصباح بجنبات الزقاق ، وألقت الشمس شعاعا من أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكان الحلاق ، وغدا الغلام سنقر صبى القهوة فملأ دلوا ورش الأرض ، وكان المدق يقلب صفحة من صفحات حياته الرتيبة ، وأهله يستقبلون الصباح بهتافاتهم المحفوظة ، وفى هذه الساعة الباكرة ينشط عم كامل على غير عادته فيقف أمام صينية البسبوسة يحف به صبية المدرسة الالزامية ويمتلىء جيبه بالملاليم ، وفى مواجهته أكب الحلاق العجوز على المواسى يشحذها ، ومضى جعدة الفران يحمل العجين من البيوت ، وأقبل العمال على الوكالة يفتحون أبوابها ومخازنها ويخرقون الكون المخيم بجلبتهم التى لا تنقطع طوال النهار . بينما تربع المعلم كرشة وراء صندون الماركات فى جلسة حالمة يقضم شيئا بثنيتيه ويلوكه فى فمه ثم يعتصره بقدح من القهوة ، وقد جلس على كثب منه الشيخ درويش فى صمت وغيبوبة ، وفى هذه الساعة الباكرة أيضا تلوح الست سنية عفيفى فى نافذتها ، تشيع زوجها الشاب وهو يغادر الزقاق فى طريقه الى القسم . هكذا تطرد الحياة فى المدق على وتيرة واحدة الا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتياته أو ابتلاع السجن لرجل من رجاله ، ولكن سرعان ما تنداح هذه الفقاعات فى بحيرته الهادئة او الراكدة ، فلا يكاد يأتى المساء حتى يجر النسيان ذيوله على ما جاء به الصباح . أضاء الصبح والزقاق يستقبل هذه الحياة الهادئة المطمئنة ، ولما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشة مكفهر الوجه ، ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة ، يضرب

الارض بخطوات ثقال ، ومضى الى مجلس ابيه وارتمى على كرسى لقاءه . وهو يقول بصوت غليظ دون تحية او سلام :

ـ قتل عباس الحلو يا ابى ..

وكان المعلم قد أوشك ان ينتهره لغضبانه الليلة خارج البيت ، فلم ينبس بكلمة ، وحملق فى وجهه بعينين ذاهلتين ، ولبث لحظات جامدا ساهما كانه لم يفهم ما ألقى على سمعه ، ثم سأل بانزعاج شديد :

ـ ماذا قلت ؟

وكان حسين ينظر فيما أمامه بعينين شاردتين فقال بصوت أجش :

ـ قتل عباس الحلو !. قتله الانجليز ! ..

وازدرد الفتى ريقه ثم اعاد على أبيه ما حدثه به عباس وهما يسيران فى الموسكى قبل مغيب الامس ؛ وقال بصوت حاد مضطرب :

ـ وقد مضى بى ليرينى الحانة التى وعدته اياها الفتاة الشريرة ، وانا لنمر ببابها اذ راى العاهرة تعربد فى جمع من الجنود ، ففقد وعيه ، واندفع الى داخل الحانة ورماها بزجاجة فى وجهها قبل أن اتنبه لقصده ، وهاج الجنود وانقضوا عليه عشرات وعشرات واوسعوه ضربا حتى سقط بينهم لا حراك به .

وكور قبضته بحنق وقرض أسنانه قائلا بغضب :

ـ يا للشيطان !.. ما كان بوسعى ان اخف الى نجدته !.. حالت دون ذلك جموع الجنود الكثيفة التى سدت الباب سدا .. آه لو بلغت يداى عنق جندى من أولئك الملاعين ..

وكان هذا يحز فؤاده حزا ، وما يشب فى صدره نار الغضب من غير انقطاع ، حتى لقد انقلب الى الزقاق يكاد يستخفى من الخزى والعار ، اما المعلم كرشة فقد ضرب كفا بكف وقال :

— لا حول ولا قوة الا بالله ، وماذا فعلتم به ؟

— جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء وضربوا حول الحانة حصارا . وما عسى أن يفيد الحصار ؟ ، وحملوا جثته الى قصر العينى ، ونقلوا العاهرة الى الاسعاف . .

فسأل المعلم باهتمام :

— وهل قتلت ؟ . .

فأجاب الشاب والحقد يأكل رأسه :

— لا اظن . . لا اظن الضربة كانت قاتلة . .! ضاع الفتى هدرا .

— والأنجليز ؟

فقال الشاب بلهجة اسيفة :

— تركناهم والشرطة تحيط بهم ، ولكن من ذا يستطيع أن ينال منهم حقا ؟

فضرب المعلم كفا بكف مرة اخرى وقال :

— انا لله وانا اليه راجعون ، وهل علم أهل الفتى بالخبر الأسود ؟ اذهب الى خاله عم حسين القباقيبى بالخرنفش وآذنه بموته ، والله يفعل ما يريد .

ونهض حسين يغالب تعبه واعياءه وغادر القهوة ، وذاع الخبر ، وأعاد المعلم كرشة القصة التى رواها ابنه مرات ومرات على السائلين ، فتناقلتها الألسن ، وزادت عليها ما شاء لها الهوى ، وجاء عم كامل القهوة مترنحا وقد دهمه الخبر فصعقه وارتمى على اريكة وراح يبكى بكاء مرا وينتحب كالأطفال ، ولا يكاد يصدق أن الفتى — الذى اعد له كفنا — لم يعد من الأحياء ، ونمى الخبر الى أم حميدة فغادرت البيت مولولة حتى قال بعض من رآها انها « تبكى على القاتل لا على القتيل ! » وكان أشد الناس تأثرا السيد سليم علوان ؛ لا حزنا على الفقيد ؛

ولكن فزعا من الموت الذى اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه ، فعاودته أفكاره السوداء ، وتصوراته المريضة ، واخيلة الاحتضار والموت والقبر التى انهكت أعصابه . واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه ، وجعل يروح ويجىء فى الوكالة . أو يخرج الى الزقاق فيلقى نظرة زائغة على الدكان الذى ظل دكان الحلو اعواما طوالا . وكان أعفى نفسه — لشدة الحرارة — من شرب الماء الدافىء ، فأمر العامل المكلف بخدمته بأن يدفىء له ماء للشرب كما كان يفعل فى الشتاء ، وقضى تلك الساعة نهبا للخوف والقلق وبكاء عم كامل يصك مسامعه صكا . .

***

وانداحت هذه الفقاعة ايضا كسوابقها ، واستوى المدق بفضيلته الخالدة فى النسيان وعدم الاكتراث . وظل كدابه يبكى صباحا — اذا عرض له البكاء — ويقهقه ضاحكا عند المساء ، وفيما بين هذا وذاك تصر الأبواب والنوافذ وهى تفتح ثم تصر كرة اخرى وهى تغلق . ولم يحدث فى هذه الفترة امر ذو بال ، اللهم الا ما كان من اصرار الست سنية عفيفى على اخلاء الشقة التى كان يقطنها الدكتور بوشى قبل سجنه ، وما كان من تطوع عم كامل بنقل اثاثه ومعداته الطبية الى شقته ، وقيل فى تفسير هـذا : ان عم كامل آثر اشراك الدكتور فى مسكنه على الوحدة التى لم يألفها ، ولم يعاتبه أحد فى ذلك ، بل لعلهم عدوها له من المكرمات ، لأن السجن لم يكن مما يشين المرء فى المدق .

وتحدثوا فى تلك الايام عن اتصال ام حميدة بابنتها التى دخلت فى طور النقاهة والشفاء ، وعما تحلم به المراة من جنى بعض ثمار هذا الكنز المترع . ثم ثار اهتمام الزقاق فجاة حين سكنت أسرة أحد القصابين شقة الدكتور بوشى ، وكانت مكونة

من القصـــاب وزوجه وسبعة من الأطفال وفتاة حسناء ، قال حسين كرشة عنها انها كفلقة القمر ، ولكنه عندما اقترب موعد عودة الحاج رضوان الحسينى من الأقطار الحجازية لم يعد يفكر احد الا فى هـــذا اليوم الموعود ، وقد علقت الثريات والأعـــلام وفرشـت أرض الزقاق بالرمل ، ومنى الجميع نفوســـهم بليلة فرح وسرور تدوم ذكراها على الأيام .

ويوما رأى الشـــيخ درويش عم كامل وهو يمازح الحـــلاق العجوز .

فهتف وهو يرفع رأسه الى سقف القهوة :

وما سمى الانسان الا لنسيه ولا القـــلب الا انه يتقلب

فتجهم وجه عم كامل ، وانطفأ لونه ، واغرورقت عيناه ، ولكن الشـــيخ درويش هز منكبيه اســـتهانة ، وقال وعيناه لا تزالان شاخصتين الى السقف :

من مات عشقاً فليمت كمدا لا خير فى عشـــق بلا موت

ثم وحوح متنهدا واستدرك قائلا :

ــ يا ست الستات .. يا قاضية الحاجات .. الرحمة .. الرحمة يا آل البيت ، والله لأصبرن ما حييت ، أليس لكل شيء نهاية ؟! بلى لكل شيء نهاية ..

ومعناها بالانجليزية end وتهجيتها e n d . ،

me3refaty.maktoobblog.com **معرفتى**

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الأولى			
مصر القديمة (مترجم عن الإنجليزية)		١٩٣٢			
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	الطبعة	السابعة	١٩٧٠
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	«	السادسة	١٩٦٩
رادوبيس	قصة تاريخية	١٩٤٣	«	السابعة	١٩٧١
كفاح طيبة	قصة تاريخية	١٩٤٤	«	السادسة	١٩٦٧
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	«	الثامنة	١٩٧١
خان الخليلي		١٩٤٦	«	السابعة	١٩٧٢
زقاق المدق		١٩٤٧	«	السابعة	١٩٧٢
السراب		١٩٤٨	«	السابعة	١٩٧٠
بداية ونهاية		١٩٤٩	«	الثامنة	١٩٧٠
بين القصرين		١٩٥٦	«	التاسعة	١٩٧٢
قصر الشوق		١٩٥٧	«	الثامنة	١٩٧١
السكرية		١٩٥٧	«	السادسة	١٩٦٧
اللص والكلاب		١٩٦١	«	السادسة	١٩٧٢
السمان والخريف		١٩٦٢	«	الرابعة	١٩٦٧
دنيا الله	قصص قصيرة	١٩٦٣	«	الثانية	١٩٦٦
الطريق	رواية	١٩٦٤	«	الثالثة	١٩٦٧
بيت سيء السمعة	قصص قصيرة	١٩٦٥	«	الثالثة	١٩٧٢

		الطبعة الأولى		
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الطبعة الثالثة	١٩٧٢
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	« الثانية	١٩٦٧
ميرامار	رواية	١٩٦٧	« الثانية	١٩٧٠
خمارة القط الأسود	قصص قصيرة	١٩٦٩	« الثانية	١٩٧١
تحت المظلة	قصص قصيرة	١٩٦٩	« الثانية	١٩٧١
حكاية بلا بداية ولا نهاية	قصص قصيرة	١٩٧١		
شهر العسل	قصص قصيرة	١٩٧١		
المرايا	رواية	١٩٧٢		

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
0296001